محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

الحريق



روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٣ – نوفمبر ١٩٧٠ – [illegible] ١٣٩٠

No. 263 — November 1970

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – عن الكميات المرسلة بالطائرة – في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد [illegible] البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ – في سائر انحاء العالم [illegible] دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ، في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » – والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة
تليفون : [illegible] « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة
الفنان هبة عنايت

الحريق

بقلم

محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الهلال

تمهيد

ما ان تصل الى امام « بيت النور » حتى تمضي مصعدا في منعرجات حجرية مهدتها الرياح . ان نوامي مخشوشنة من نبـات الدبس والقطكي تتعثر بها قدمك وتنزلق عليها . هذه هي الطريق الوعرة التي يسلكها بنو ارنيد مع حميرهم الصغيرة . هذا هو السور الجنوبي من اسوار « المنصورة » التي لم يبق منها الا جوانب ابراج . الارض عتيقة . وتلك ضوضاء مبهمة ترقى اليك من السهل . حتى اذا بلغت من تصعيدك رابية يقال لها « عطار » أطللت من هناك على ارجاء فسيحة . ففي المشرق ، ترى « شرفة الغراب » الكبيرة تنتصب براسها المخروطي فوق ما يحف بها من ذرى . وفي الشمال يمتد المشهد الى ما وراء طريق « وهران » والسكة الحديدية . فيشمـل اراضي « صفصف » و « حنايا » و (عين الحوت) ، التي تغطيهـا أشجار الكرمة وحقول القمح . وتلك جبال « طرارا » الزرقاء الخفيفة المتموجة تقوم عند آخر المدى حاجزا بين البحر الابيض المتوسـط والسهول الداخلية العالية . وعلى مسافة أقرب ، يقـع بصرك على سهول « امامه » و « الكيفان » و (بريا) . ان أواخر موجات الزرع المتسارعة من الافق تأتي لتفنى هنا ، على سلسلة جبال بنى بوبلان ، ووراءها فورا تنبسط ارض خلاء تناثرت عليها جبال حزينة .

انك لتدرك من الشعور القوى الذى تعانيه فى هذه الاماكن ، انك اجتزت حدودا ، ونفذت الى عزلة . انك تتقدم الآن فى أرض بوار ، تدمدم فيها الرياح بين الجرائد الشائكة من زعانف النخيل ، وكأنما تضيئها باقات من أشجار الدوم المنورة . وتنظر الى الشمال ، فترى ظهر جبل «السطح» مفلوحا ومزروعا قبل ان ينخفض امام الاراضى البكر ، كأنه عماد يسند ذلك الجزء (أعنى الجزء الادنى كله) الذى يحتله الفلاحون من جبال بنى بوبلان ، ان هؤلاء الناس يعيشون على أطراف الوهدان الصلصالية المالحة ، المعلقة فى الجبل ، النائيـة الآن عن العالم ، رغم أن المسافة التى تفصلها عن تلمسان لاتزيد على ثلاثة كيلومترات .

ان حياتهم تنقضى ايام زراعة ورعى لدى المستوطنين الفرنسيين.

فى حياة تبلغ من طابع القدم ، ويبلغ اصحابها من بساطة العيش حداً تحسبهم معها آتين من قارة منسية . ان الارض هناك فى الاعالى صعبة المراس لاماء فيها ، قاحلة تختنق ظمأ ، ولا تكاد تستطيع سكة المحراث القديم ان تحزها .

والفلاحون كثيرا ما تلم بهم المجاعة . وحين يهبط الليل ، فيبتلع الظلام تلك الاكواخ الحقيرة التى يسكنها هؤلاء الفلاحون ، تنطلق بنات آوى مطوفة فى الارجاء ناعبة . غير ان هذا الوجه القاسى الذى للجبل يكتسى فى بعض الاحيان جمالا خاطفا . وذلك حين يقع بصرك على جماعات عارمة من اطفال ناحلين يرتدون اسمالا خلقة ، ويضطربون بخفة ورشاقة بين الوحل أو غبار الطريق .

لم توجد الحضارة قط . ما يظن حضارة فهو وهم باطل . ان مصير الفلاح على هذه الروابى هو الشقاء . اشباح رجال القادر ورجاله تهوم فوق الاراضى الظمآى وامام اطيان عظيمة تختنق المداخن السود التى تأوى الفلاحين .

ونحن الآن فى عام ١٩٣٩ ، فى صيف عام ١٩٣٩ .

لقد التقى عمر هنالك باطفال اشقى منه ، اطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم . ان ملابسهم لاتعدو ان تكون خرقا مجمعة . اما اقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء ، وربما رأيتهم حفاة بغير شىء فى الاقدام اكثر الاحيان . ان اعينهم الكبيرة التى يلمع فى حدقتها الاشهب والاخضر تحلق بنظرة غريبة فى هذه الاراضى المجدبة التى تركت لهم . ان ما يلوح فيهم من جد وصرامة قد يبدو لعمر شيئا غريبا عجيبا . العابهم ليست هى الالعاب المألوفة عند اطفال المدن . الحيوانات هى رفاقهم ، لا رفاق لهم سواها . وهم صامتون ، يحسنون الصمت ، ويحتقرون كل ما ليس من الريف .

كان اطفال هذا العالم الحزين مبكرين فى نموهم مثل عمر . ان ادراكهم للشقاء يلمع فى اعينهم مثلما يلمع فى عينى عمر ، وان يكن قد حصل لهم ذلك على نحو آخر .

على انهم يختلفون عن عمر فى ان احاديثهم تشتمل على تعبيرات ولهجة لا تلاحظ لدى اطفال المدن فى مثل هذه السن . وهم يصرون على جدهم اصرارا عنيدا . انها الرصانة المعهودة فى الفلاحين . كان عمر يحس بينهم انه طفل صغير جدا . انهم ليرعبونه بهذا الاندفاع العارم الذى يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الاهداف : قتـــل

الطيور او قيادة القطعان او تحدى الاوروبيين . وقد اكتشف بين هؤلاء الصبيان من ابناء الفلاحين رفاقا له لم يمانعوا فى قبوله بينهم البتة [illegible] انهم استغربوا أن يعرف القراءة وأن يقول كلاما بالفرنسية، وفوجئوا [illegible] يعرفه من معلومات خاصة . انه يقول مثلا بأن الارض كروية [illegible] ، وهذا مخالف للبداهة . وهو يقول [illegible] ان الشمس ثابتة ، [illegible] الاطفال ، يدورون حولها مع الارض . وهو يعرف أشياء كثيرة عن البلاد البعيدة . وقد شرح لهم كذلك [illegible] يتكون المطر ، فما لبث الفلاحون عندئذ ان استنكروا كلامه [illegible] . ولشد ما [illegible] حين قام امامهم ببعض العمليات الحسابية [illegible] ان القرويين [illegible] جهله، فهو لايعرف شيئا عن الاشجار والنباتات ولا يعرف شيئا عن الحيوانات والزراعات واعمال الحقول .

وفى أثناء ذلك كانت تنبثق فى نفسه معرفة حياة الارض [illegible] اللاشعورية . [illegible] طاقة عجيبة ، دفاقة قوية ، غمرته فى بنى [illegible] . هناك فى أعلى الجبل ، عرف حياة العالم الكبرى بصوت الشيخ العجوز كومندار .

الجزء الأول

— ١ —

الظلام يطفح من الفجاج ساكنا . وهذه بضعة أصوات تشق طريقها في الهواء الرقيق ثم تضيع في الصمت · ان رجالا يضطربون هنالك تحت ، وثم حيوانات يختلط صراخها في الاعماق ، وما تنفك تتحرك وتغيب في ظل أزغب يتموج بين الاشجار . لقد أحس عمر بطراوة نافذة تهب على وجهه وعلى ذراعيه العاريتين ·

وضم عمر راحتيه أمام فمه بوقا ، وصاح بصوت قوى :

— هيه ، زهور ، أنظرى أين أنا ·

ان الارض منبسطة من جهة واحدة ثم تنخفض فجأة · كان عمر رانفا في وهدة الحقول يتأمل بيت اسرة محمد ، وهو قشرة من الارض جافة بيضاء · وكانت زهور تجهد على الطريق الضيقة متدثرة (بحايكها) ، دائرة حول المزرعة ·

الحقول تدخل في الليل على قدر تراجع خط من البياض يشتعل في آخر الارض · وعلى مقربة من ذلك يقوم السهل المرتفع الواسع، سهل لالا ستى الذى لاترى منه الا جبهته الثقيلة الهائلة الحادة · ان غابة الصنوبر تبدو الى جانبه ملفعة بنعومة ريش كبير ، رغم انها أعلى منه ·

وسطعت الشمس لحظة أخيرة ، وأحاط الهواء الحار بالذرى . ان ضوء النهار يصعد على الجبل شيئا فشيئا نحو القمر · وما لبث الغسق أن خيم · ان شعورا بالسكينة يرين على قلب عمر · وما انفك الظلام يزداد كثافة في المشرق · ان موقدا بلا شعلة كان يحرق الاراضى والجبال في الشرق ، ثم هو الآن يتجمع على نفسه كورقة تحترق ·

لم يمض عمر مع زهور الا حين سمحت عينى لابنها بذلك · أصبحت عينى لا تطلب من ابنها أن يبقى في البيت · لاشك أن الصبى أخذ منذ تلك اللحظة يعد الدقائق ، ولا يطيق على الانتظار صبرا · انه ليتفق له الآن كثيرا أن يصعد الى بنى بوبلان في صحبة زهور · وان هذه الرحلات لتورى في قلبه مشاعل من الفرح ·

كان يقفز ويرقص · وكان ضحكه ينفجر صاخبا · والسيارات

يتلاحق بعضها وراء بعض فى الطريق ، فاذا خطرت واحدة منها أخذ يتواثب على ألف صورة وصورة ، ويصيح مقلدا أصوات زماراتها . فاذا مرت سيارة كبيرة من سيارات النقل التى تلهث من فـرط ما حملت ، أخذ ينفخ نفخا شديدا ليقلدها حتى تكاد تتحطم أضلاعه من شدة النفخ . وكان عمر يتمسك بها أحيانا فيقطع مسافة طويلة من الطريق . وكانت زهور فى مثل هذه الاحوال تخلع عنها حجابها ، فتطويه حتى يصير أشبه بكرة ، وتأخذ تركض فى اثر الصبى . انها تركض بلا حايك .. يا ويلها اذا علمت أمها أنها تسير بلا حايك ، ولو فى هذا الطريق المقفر ...

كانت تنبعث فى عمر حياة جديدة . وكانت دار سبيطار تبـدو له فى هذه اللحظة أشبه بسجن رهيب ، وتلك النسوة اللاتى تقلبن الدار أثناء فورانها المألوف رأسا على عقب ، يبدون له غيلانا لاتحتمل ولا تطاق . انهن أقرب الى بهائم متعجرفة منهن الى البشر . كان يحس حين يلاحظهن فى بعض اللحظات بانزعاج شديد يخنقه خنقا ، وكان يشعر فى لحظات أخرى بفيض من الحزن والمرارة فى قلبه : لاشك أن ظروف السجن التى تحيط بهن تزيدهن غرابة وشذوذا .

أخذ عمر يدفع الباب ذا المصراع الواحد ، الذى لاينفتح الا فى بطء فلما رأت (ماما) الصبيين يدخلان ، صاحت صيحات صـــغيرة فى دهشة :

ـ هه ... هذه زهور ... هذا عمر .

وأقبلت على الصبى فقبلته ، ثم قبلت أختها .

ان (قره على) وامرأته لا يزالان الى هذه الساعة يقومان ببعض الاعمال . ان شغل النهار يشارف على النهاية .

لم يمسح عمر اللعاب الذى يخضل خديه . انه أشبه بزهرة طرية تتفتح على جلده وينعشها هواء المساء .

ـ أأنت جائع ؟

ـ نعم .

وقادته ماما الى الغرفة التى فيها المؤونة (وهى حجرة ضيقة رطبة) فتناولت قبضة من التين الجاف وضعتها فى يده مع قطعة من فطير . وسألتهما ماما عن سكان (دار سبيطار) ، ثم استأذنت . كانت تنهى كنس الارض بمقشة من سعف النخل . تستطيع الاختان أن تتحدثا على مهل فيما بعد .

ان فناء البيت ، وهو من تراب ممهد ، يشكل مستطيلا كبيرا .

فعلى الضلعين الطويلين من هذا المستطيل تقوم مساكن من حجر ولبن مطلية بالكلس . وما يرمى الى خارج الفناء من بعر وزبل يصبح ملتقى صاخبا للدجاج وسائر الطيور .

وهبت نسمات من الهواء فبعثرت كل شيء .

قال قره :

ـ ما ينبغي أن يضيع شيء ، حتى ولا هذا .

قال ذلك وهو يشير بيده الى الروث الذى كانت ماما ترميه ، وأضاف :

ـ من الممكن أن نتخذه وقودا .

وعادت المرأة الشابة تثرثر مع أختها .

لقد اقتيدت ماما بنت قدري من دار سبيطار ذات يوم الى بني بوبلان في زفة كبيرة . حدث ذلك منذ عدة سنين .. وليست الآن سعيدة ، ولا هي في حقيقة الامر شقية ، ما دامت قد تزوجت .كانت في ذلك اليوم ، على لطفها ودماثتها ، ذات أبهة وعظمة،يزينها الذهب ويكسو وجهها الطلاء . ان غرفة كبيرة ستكون غرفتها ، وستكون المؤونة كلها لاشرافها . وقد غرقت حياتها الآن في الجبل . ان المرء يعيش في بني بوبلان ساعات هادئة . ليس هناك الا اربعة بيوت ، وقد حفرت الايام حول كل بيت هوة من صمت . ليست بنو بوبلان قرية ، حتى ولا كفرا صغيرا .

بنو بوبلان تجرى الايام الجميلة فيها هادئة ، والضياء يتأرجح فيها مضطردا ..

هذه الحياة ، هذه الارض .. كان لا يعرفهما عمر الا قليلا ،وذلك منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذى يسمى كومندار . والى هذا الرجل انصرف ذهن الصبي حين وصل هذه المرة ، متسائلا عما حل به . ولولا ان الغسق قد شمل الارض لهرع الى حيث يقوم كوخه. ما من شك انه كان سيجده هنالك ، جالسا عند حدود أراضي قره، تحت شجرة البطم الكبيرة ، يضفر حبال الحلفاء على عادته . انمأواه المصنوع من اوراق الشجر والاغصان يرتفع فوق منحدر خفيف ، ويشرف على الطريق الكبير كله ، وعلى ما بعد الطريق الكبير ، يشرف على «دشرة» الفلاحين ، وهي موضع يسمى ايضا بنو بوبلان

ان عمر لم ير كومندار واقفا في يوم من الايام . كان الشيخ العجوز يلف ساقيه المبتورتين عند الركبتين بخرق بالية يشد فوقها عصائب من المطاط الاحمر . فاذا نظرت الى هذين الجذلين رأيتهما يشبهان

بالسمك والمظهر قطعتين من عمود . لقد بترت ساقا كومنـــدار ابان الحرب القديمة • والى جانبه لا تزال ترقد عصوان صغيرتان • ان عمر لم ير هذا الرجل ماشيا فى يوم من الايام .

ان كومندار ينتمي الى هذه الارض ، كهذه الاشجار المتفرقة التى حوله سواء بسواء . وحين اصبح قره صاحب هـذه الارض ،فعثر عليه في هذا الموضع نفسه ، لم يعرف ماذا يقول له . حتى اذا قرر بعد ذلك ان يطرده كان الاوان قد فات • لقد أدرك قره أنه لا سبيل له الى طرده .

وقد جاء للرجل هذا الاسم ، اسم كومندار ، من حياة عسكرية طويلة كلفته بتر ساقيه آخر الامر . ومنذ اصبح الناس يطلقون عليه اسم كومندار ضاع اسمه الحقيقي من ذاكرتهم . ان كومندار قدرأى النار من قرب في الحرب القديمة • وظل ثلاثة أيام بلياليها تحت كومة من الجثث . لقد صارع ، وظل يئن ويعول ثلاثة ايام . ثم استطاع بالزحف ان يخرج من كداسة الموتى . وهكذا انتصر على الموت . الا انه فقد ساقيه . فلما عاد الى بني يوبلان لم يكلم الناس والبهائم بعد ذلك الا بصوت مرتجف • ان الفلاحين يحيونه التحية العسكرية ، ويسمونه كومندار .

لقد كان كومندار يشبه شجرة من حديد حين كان عمر يقترب منه ، كان الشيخ يحدثه طويلا عن العالم . انه لا يحمل لهـــذا العالم الا الصداقة والاحترام انه ، وهو جالس وحده تحت شجرته وسط الارض ، لا ينفك يساعد المخلوقات التى تملأ هذه الارض • لقد سمع فى الحرب القديمة نداء الرجال الذين كانوا يريدون أن يعيشوا. وظل هو نفسه ثلاثة أيام بلياليها مع الجثث ، وأحس بالتفسخ يصل اليه.

لا ، ان الشيخ لم يكن يأنف من التوجه بالكلام الى عمر . وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين عمر وهذا الرجل الذى ينصت لضوضاء الارض ويفهمها . كان الصبى يترك النساء والرجال ليلحق بالحياة الكبرى التى يحياها العالم . كان الشيخ كومندار يعلمه الكلام الذى يجب أن يعلمه عن الخليقة .

قال له ذات يوم :

ــ لا بأس .. سيان ان تفهم والا تفهم فى هذه اللحظة يابنى . فانما المهم ان تفتح الآن اذنيك وان تحفظ ما اقوله لك ، حتى اذا اشتد ساعدك ونضج عقلك فى المستقبل ، افدت منه وعرفت كيف تنفق حياتك .. نعم ، فى المستقبل .. حين تصير رجلا ..

اشتعلت نيران فى الطرف الاخر . ان نساء لا يرين ، يثرثرن فى الظلام . ان السنتهن تشحذ على مسن الهواء . وهذه اصوات اخشن تختلط باصواتهن . انها اصوات رجال . ولكن ، مامن صوت من هذه الاصوات ، سواء اكان صوت رجل ام صوت امراة ، يستطيع ان يغطى ذلك الصوت الاخر الابح ، الذى كان يبدو انه يجهل كل ماق العالم من ضوضاء كان هذا الصوت يترنم باغنية ، تتردد فيهـا نغمة عالية علوا غريبا ، نغمة تفيض حزنا واسى .

صاح واحد من آخر القرية :

ـ انتظر قليلا .

قال (بادعدوش) هذا وهو يلوح مهددا بعصا نحو الجهة التى ياتى منها الغناء . واستمر الصوت يغنى :

تسلل صوتى بين الشجر
فأصـغ اليه يخبر البقر

ـ انتظر أن يصل العم بادعدوش ، ليريك كيف يجعل البقر من أمثالك تخور وتجأر .

وراح (با دعدوش) يطلق نداءات مدوية وقد نفد صبره :

ـ سلي . . .مان . سلي . .مان .

وظهر سليمان من الظلام ، عاقدا يديه وراء نقرته ، مدندنا اغنيته بصوت خافت ، وفى وجهه الذى لايكاد يبين فى الظلام يشع تعبيره عن فرح . كان يهتز فى اعماق عينيه المزمومتين التمـاع ضعيف ، وكانت هذه النشوة تختفى فى لحية تأكل وجهه كله تقريبا .

صمت سليمان . انه يكبح ابتسامة تلمع فى نظرته الغريبة . قال با دعدوش :

ـ اصبحت منذ مدة تكثر من الغناء يا سليمان

فاطلق سليمان ضحكة بلا صوت

ونظر الرجلان كلاهما الى الاراضى الممتدة امامهما . وبدون ان يقول احد منهما كلمة واحدة ، قعدا معا فى آن واحد على المنحدر المعشب . ان القرية التى أولياها ظهريهما اشبه بصدفة من ظل . وعلى جنبيها تتموج نفحات دخان ذكى الرائحة من سوق الذرة .

الظلمات تكثف تحت ذرى جبال يبرز جانبها فى سماء حزين بلا ضوء ولا ظل ، ومخضوضر الى غير نهاية ، وفى آخر السهل ، على بحيرة من حجر اشهب قاتم ، يطرف قبس صغير من ضياء . انهـا مزرعة مسيو فيلار وبعدها تستريح فى الضباب أضواء مدينـة

تلمسان وقراها .

قال الشيـــخ :

ـ حين تعوزنا الواجبات ينهشنا الضجر نهشا، فنأخذ نغنيأغانى حزينة ، ونحن لا نعرف متى نتوقف عن الغناء . لا حيلة لنا فى هذا. اننا ندلل ضجرنا ، ونحنو عليه . يستطيع الانسان بذلك أن يعمر طويلا . ويأتى يوم نكتشف فيه هذا الامر . فاذا لم نستجل واجباتنا فى ذلك اليوم واضحة ، كنا نجر حياتنا جرا لا فائدة فيه ولا جدوى منه ، الى أن .. الى أن يحين حين «البعث». على اننى أحس ان اللحظة التى سنفهم فيها واجباتنا الجديدة اصبحت قريبة فلن تلبث ان تأتى .

كان (سليمان مسكين) يصغى دون ان يكف عن الدندنة وهـــو مطبق فمه . كان يفكر فى أقوال العجوز . وزالت الابتسامة عن شفتيه شيئـــا فشيئـــا .

حواشى الارض غارقة وراء ضباب الصيف . الحقول اقلعت ،وقد قطعت قلوسها . قرية بنى بوبلان الادنى تبحر ، السماء متلألئة .

وكان العم بادعدوش ينتهز فرصة هذا الصمت هو ايضا ، ليتأمل كلماته التى قالها . سأل :

ـ وقره على ؟ كيف اصبح حال هذا الرجل ؟

وما لبث أن أضاف يقول :

ـ لا أدرى .. يظن المرء انه يكفيه ان ينظر اليه حتى يعرف طبعه. والحق ان المرء قد ينفق حياته كلها قبل أن يصل الى ســـبر نفسه كاملة ، واعتقـــد ..

فقاطعه سليمان قائلا :

ـ عفوك .. اننى لأخشى الا تكفينى حياتى كلها من أجل ذلك ! ما لنا ولنفس قره .. حسبنا القمل الذى علينا ، فلا حاجة بنا الى البحث عن قمل فى رءوس الناس. ليس يهمنى كثيرا ان أعرف كيف تركبت نفس قره .

ـ على كل حال .. اقول لك ..

ـ دعنا من هذا . ولنحاول اغنية من الاغنيات ، اغنية صغيرة . فذلك احرى بنا وخير لنا .

هذا ما قاله سليمان . فأجابه الآخر .

ـ أراك تسرف فى الغناء .. ما عسى يخرج من هذا كله ؟

ـ اغنية صغيرة . هبا . اغنية صغيرة فقط ، يا با دعدوش .

انتصب «سليمان مسكين» ورمى الشيخ بنظرة تواطؤ ، قائلا : الغنية فقط .

ثم تمطى ورنح راسه قليلا .

واعاد سليمان عصابته الى مكانها وقبب صدره ، ثم القى نظرة اخرى على العم بادعدوش ، كاشفا عن اسنانه ، فهتف الرجل العجوز يشجعه .

واخذ سليمان يغنى ، عاقدا يديه وراء ظهره ، جاعلا كوعيه في الهواء :

يا ياما يا دميمة
ودار على نفسه

فقاطعه با دعدوش ، قائلا بصوت معول :

ــ لا ، لا ، ما هذه ..

ولكن سليمان لم ينثن عن عزمه ، وتابع يغنى :

يا ياما يا دميمة
غنى لنا اغنية جميلة
فالقدر تغلى
والطعام طيب

ان تعبيرا عن حزن صادق عميق يرتسم الآن على قسمات بادعدوش وضحك سليمان. ثم دار على نفسه وهو يقرع الارض بقدميه، وظل يضحك ضحكا صاخبا فى انف الفلاح العجوز المحملق .

ان وجه با دعدوش يثير ضحك سليمان اكثر فاكثر . وسليمان لا ينفك يدور على كعب قدمه بلا توقف ، وهو يردد لازمته :

القدر تغلى
والطعام طيب
ان الطعام طيب

وفجاة انفجر با دعدوش يضحك هو أيضا ضحكا قويا هز جسمه هزا شديدا .

ــ هيه سليمان ، كفى .. هيه هيه هيه سليمان . كفى اذهب .

ثم صاح يقول وهو يشير الى المزارع الراكعة فى السهل المظلم :

ــ وانتم هنالك .. اصمدوا ، اصمدوا ..

ان رائحة قوية تفوح من الحقول بينما الظلام يشتد فى السماء حلكة . ان ليلة باردة متلألئة تطرد اهتزاز النهار الواسع ، وتحل محله . وتحت النجوم تبدأ جولة فى الزمان الكثيف وفى وسن الارض.

وامتلأ جو الليل بنبرات اسيانة عميقة : ان اغنية أخرى تصل الى هذا المكان من بعيد :

ماذا جرى لك يا حصانى

يا حصاني ..

فانقطع سليمان فجأة عن حركاته . واخذ يصغى اصغاء شديدا نهما ، نسي معه با دعدوش . ثم طرا على وجهه تغير . لكأنه يتذكر امرا لا تظفر ذاكرته الضعيفة باستعادته . وانتظر . ولم يخرج خلال كل ذلك الانتظار لا عن صمته ولا عن انتباهه .

دام ذلك بضع دقائق ، كان خلالها ذلك الصوت نفسه لا ينفك يطلق شكاته القاتمة الحزينة :

ايه حصاني .. ايه حصاني

انه الرجل الوحيد ، الذى لا امراة له ولا اولاد ، انه كومندار الذى يغني .

الاراضي العالية غارقة الآن في الظلام . وسرعان ما نشرت رطوبة الارض اغطيتها ، فاذا الارض بحر من ضباب يتأرجح على هون .

ارتعش سليمان رغم ان الجو لم يكن باردا ، وانتصب قليلا ، وتمطى ، ثم استرد هدوءه . ومرة أخرى ، راح ينصت مغمضا عينيه ، مستندا بظهره الى جذع شجرة ، دافعا راسه الى وراء . ان با دعدوش يرى صدره يعلو ويهبط ، ويرى تفاحة آدم البارزة تتحرك في عنقه . وامسك سليمان بغصن من الاغصان واهتزت شفتاه بارتعاشة خفيفة .

كان الصوت البعيد يتموج خلال الليل ، وكأنه ينبع من قلب الجبل ثم يظل يرتفع ويرتفع بلا توقف . واخذ سليمان يرافق الغناء بدمدمة صماء جاعلا وجهه أمام با دعدوش ، وظهره الى السهل :

ماذا جرى لك يا حصاني ؟

ما الذي ينقصك ؟

ان الغناء يخنقه . فما ان وصل الى النغمة العليا حتى سكت ، وهز راسه يمنة ويسرة في يأس ..

ان الانغام الاخيرة تنتهي بنبرة كأنها انتحاب . وكان با دعدوش يلاحظ صاحبه الفلاح ، ففهم انه لا ينبغي له ان يخرجه من حال النشوة التي هو فيها .

شد سليمان على قلبه بكلتا يديه والها . ثم رفع عينيه الى السماء ، وفتح ذراعيه الى آخر مدى كأنما يريد ان يحضن عالم الليل كله .

ثم انتصب في تحد ، ونشق الهواء في يأس ، وبلعه في غضب حميا ، ونفثه في عنف. وظل يرتعش لحظة من الزمان ، وهو منحن الى امام يستقبل ريح الليل التي اخذت تهب . وانطلق يقول بكل ما أوتي من قـوة :

نحن نرقب النهار
ومن اعماق الاعين
ننظر الى الليل وهو ينتشر على الجبال
حالكا لا يشتعل .
ــ نيران
نوقدها كل مساء
في مواقد منازلنا
نيران فرح بين الجبال
تصل الى حدود العالم .

ان سليمان يتأرجح الآن ، وحركات جسمه تساير تثنيات صوته. لكأن جسمه كله كان يغني، انه يترنح ترنح سكران أسرف في الشراب. وهو يلتفت بوجهه تارة الى الظل المتناثر في الليل المضيء ، وتارة الى الظلمة الحالكة في الروابي ، فاذا تعابير شتى تتعاقب على وجهه واحدا بعد آخر ، فهو متجمد القسمات ، او مظلم العينين ، او هادىء النفس ، او فرح مرح .

النجوم ذات الاسنان
ترمي الارض بنبالها .
ورجال يسيرون في الليل
يجوبون هذه الذرى
الملأى العارية
ما غناؤهم الا دمدمات

كان بادعدوش مائلا براسه على صدره وقد سرت فيه حمى غريبة. ان ما يظهر في وجه سليمان من تعابير قد فتنه عن نفسه ، فهو لا يستطيع ان يتحول ببصره عنه .

وفجأة قام العم با دعدوش يسير في الظلام كعملاق متحدب ، فكتفاه هابطتان ، وظهره مقبب . لكأنه حشرة ضخمة عجيبة تهم أن تتجمع على نفسها . وقطع الخطوات القليلة التي كانت تفصله عن سليمان ، قطعها في هدوء وبلا جلبة ، ثم انتصب بقامته عالية علوها كله .

حملق سليمان مسكين بعينيه اللتين ليس لهما قرار ، وتأمل بادعدوش فى رفق وعذوبة كما كان يتأمله من قبل ، واستمر يغنى بصوت ازداد الآن اتساعا :

جميع اليمامات المحتشدة
جميع الكواكب المتلاحقة فى السماء
المدينة كلها ، الشوارع والحقول ،
النساء اللاتى يلدن صائحات ،
هؤلاء جميعا يحيون السجن
والباب الذى يدخل منه السجين .

أن دوامة تلف الارض لفا . نفس بادعدوش الخشنة الجافية تدرك ذلك ، تدركه ادراكا حادا كل هذه الحدة لانها خشنة جافية .

وركع العم بادعدوش . جرى هذا المشهد بسرعة محيرة . الليل هادىء . الفلاح العجوز ينظر الى سليمان الذى وضع احدى يديه على كتفه .

خر الشيخ بادعدوش ساجدا عند قدمى سليمان مسكين فى وضع خضوع ومذلة . وشملهما الليل الاخرس الذى كان يزداد عمقا وشمولا .

- ٢ -

ملأ صوت زهور فناء البيت . كان ألق الشمس يغرق مدخل المغارة . لم يكد عمر يفتح عينيه بعد حتى رفت خيوط من ضياء جفنيه . وتمطى . ان شعورا بالراحة والرخاء يسرى فى جسمه كله . وكان لا يزال يتردد فى تعرف تلك الامكنة. وارتفع صوت الفتاة مرة اخرى . انه ينضم الى صوت الحياة فيطيل فرحة الفتى . شعر الصبى بانه الكائن الداخلى لزهور : طيف وحشى يتحرك عند انبثاق النهار .

ووصل ، وهو يفرك عينيه ، الى المراتين اللتين كانتا جالستين تحت شجرة التين فى الخارج فشدته زهور اليها ، وأحاطت بذراعها كتفيه . وصبت له ماما قهوة باللبن ، ووضعت الى جانب فنجانه قطعة من الخبز . تملص الطفل من ذراع زهور .

قالت ماما لزهور :

ـ دعيه ، لا تضايقيه .

وقالت لعمر :

ـ هل تجيئنا بالذرة ؟

ـ حالا .

ـ لا ، لا داعى الى السرعة أيها الصغير .. اشرب قهوتك أولا .

خرج عمر . ان القرية غارقة فى طراوة الصباح . ان سياجا من الذرة يحيط بحقل البطاطس الواسع الذى يمتد فوق البيت. سيقان عالية ملفوفة بأوراق حادة قاطعة . ان هذه الكتلة من النبات تغطى الارض بنسغ اخضر . قطع الصبى بضع سبلات وهو يرضض النباتات. وكان من اجل ان يثق بانها ناضجة ، يزيح القشر ويفحص الحبات، فاذا رأى ان بياضها قد حال وصارت صفراء كالعاج ، انتزعها .

وعاد عمر الى البيت ممتلىء الذراعين بالعرانيس مع أوراقها . وكانت زهور قد اعدت فرنا .. فأخذوا يقشرون السبلات ، وينزعون منها فرعها. لم يبق بالكانون الا بصوات، فوضعت الذرة عليها لتشوى.
دمدمت ماما تقول للصبى :

ـ صفراء ذابلة تلفها غلف ، ماهيه ؟ ان حزرت حزرت ، وان لم

تحزر وقعت ..
فصاح الفتى يقول قبل ان تكمل ماما كلامها :
ــ الذرة ، الذرة .
تلك أحجية معروفة .
وهتف الصبى مطالبا :
ــ واحدة أخرى .
ــ عندى بيت من حديد ، فى داخله عبيد ، ان حزرت اعطيتك ، وان لم تحزر بالسوط ضربتك . ما هو ؟
طفق الصبى يفكر ، والاختان ترقبانه . وعجز فى آخر الامر عن الاجابة ، فقالت ماما تكشف عن الجواب :
ــ هو البطيخة يا مغفل .
وانفجرت ضاحكة .
قالت زهور آمرة :
ــ هاتوا السوط ، هاتوا السوط .
وتظاهرت بأنها تنهال عليه بالسوط ضربا . فكان الصبى الذى لم يستطع ان يحزر ، ينظر اليها مقطبا حاجبيه .
قالت :
ــ نعم ، هو البطيخة
ــ واحــــدة أخرى .
قــالت الام :
ــ ولكن هل تعرف ماذا يقال ؟ يقال ان الذين يقصون حكايات اثناء النهار يصاب اولادهم بالقراع .
قالت ذلك ووضعت اصبعها على فمها تطالبه بالسكوت .
ومضت المرأتان الى مشاغلهما . وبقى عمر يراقب الذرة تشوى . وتناول غطاء قدر من القدور ، فأخذ يهوى به النار . وكان من حين الى حين يرفع سبلة من السبلات شويت من احد جانبيها ، فيديرها على الجانب الآخر ، والموقد يدوى بانفجارات من حين الى حين .
كانت ماما ترتب الغرفة ، وكانت زهور تقشر الخضر . وما هى الا لحظة ، حتى عادتا معا ، وتربعتا امام الكانون .
ــ هات هات . انت نائم . أنظر كيف يجب ان تفعل .
قالت زهور للصبى ذلك ، واخذت الغطاء من يده ، وحركته تحريكا قويا فوق الموقد فتأججت النار ، واخذت الذرة تفرقع بسرعة .
غطست العرانيس بعد ذلك فى ماء مملح بضع لحظات ، ثم سحبت .

كانت حباتها متراصة كالاسنان المصفوفة . واخذوا يعضونها فامتلأت بحباتها افواههم فورا . انهم يقضمونها ، فيحسون بمذاقها ملحا ودقيقا وشواء فى آن معا .

ادهش عمر ان تكون الحياة جميلة بمثل هذه السهولة . وكان يحس هذه الدهشة فى كل صباح يطلع على بنى بوبلان الاعلى . أن قلبه يتفتح لامواج الحياة التى تتدفق على الريف. كان يلاحق بقظة الحشرات فى العشب ، ويحصى حركاتها ، ويسحق أوراق «النعناع البرى بين أصابعه ، ويستنشىء منها رائحة الارض المشبعة بالرطوبة . وكان يتقرى بقدميه مسير الندى من خلال أنشوطة نعله المخضلة .

وكانت الشمس تبسط سلطانها على الريف . لقد أنجز أهل البيت بسرعة جل العمل الذى كان عليهم أن يتجزوه فى ذلك الصباح ، فقالت زهور لنفسها : « لعل خير ماأفعله الان هو ان أنزل الى الجارات اسلم عليهن » وكانت تفكر فى ذلك ، ولكن قره ، زوج ماما ، وصل من الحقل فى هذه اللحظة الى البيت . وبسرعة ودت زهور ان تتوارى ، ولكنها أمسكت عن ذلك . انها لاتجرؤ الان على أن تتحرك مادام قرة فى البيت وهى تشعر من جراء ذلك بنقمة لا تطاق فنهضت وقبلت يده حين مر بالقرب منها . كانت زهور تحس بحرج مضن حين يكون عليها ان تقترب من قره . وها هى ذى ماما على انشغالها تبادر الى أن تطلب اليها تقديم طعامه . هذا وقت تناوله فطور الصباح . انه يأتى الآن الى البيت ليأكل حتى اذا فرغ من طعامه عاد الى الحقل .

اتجهت الفتاة الى الغرفة المشتركة التى لم تكن فى حقيقة الامر الا مغارة رفعوا امامها جدارا فاذا هى تبدو كأنها غرفة . كان قره جالسا هنالك فوق مقعد صغير ، متكئا بظهره على صوان قديم مزين برسوم ازهار واوراق . فدفعت زهور أمامه منضدة صغيرة مدورة وضعت عليها قرصا من فطير الشعير ، ووعاء مملوءا باللبن . ان قره على يرى فى حقوله منذ منبلج الفجر . انه يحب أن يعمل فى الارض حين يكون الليل لا يزال جاثما فوقها .

وفيما كان قره يأكل ، جعلت الفتاة تتجول فى الغرفة خلسة . انها تنظر الى وجه الرجل فى بعض اللحظات ، فتشعر بصدمة خفيفة . انها لم تسمح لنفسها يوما ان تتفرس فيه صراحة ، ومع ذلك كانت تحس احساسا واضحا ان وجهه الاشقر وملامحه الثقيلة المسطحة وفمه الشاحب ، تلاحقها فى هذه اللحظة أنى تحركت .

طوف عمر بين الحقول طويلا ، والخروف « معشو » يجرى وراءه .

ذهب الى نبع شجرة التين ، وقصف العصافير هنالك بالمقلاع ، ان الريح فى ذلك المكان تسرى من ورقة الى ورقة تشيل الثقل المتموج المتلاطم الذى تحمله الاشجار • ليس يدرى عمر كيف يتم هذا • ولكنه كان يفاجىء اللحظة التى يحصل فيها : ان الريح تدور عندئذ فى غير توقف ، فيتجمد عمر فى مكانه منصتا •

وتذكر عمر دار سبيطار ، فتخيلها قاسية شريرة على عهده بها • انها ترتفع حوله فجأة فى هذه الحقول ، وتأخذ تبحث عنه بكل ما فيها من أيد ممدودة • ان الارواح الخبيثة التى تسكن الدار الكبيرة تحاصره من جميع الجهات ، وترسل الى قلبه نفثاتها المسمومة • دام ذلك لحظة قصيرة • لحظة تراءى له كل شىء فى أثنائها أسود قاتما •

ثم غاب الحلم الثقيل فى هواء الصباح العليل • آه •• يجب على عمر ان يشبع نفسه من هذه الحقول وهذه السماء ••

انه يعرف الآن أين تبدأ الاشياء على وجه الدقة ، يعرف الان أين يقع ذلك الخط الذى بعده لا يجوع الانسان ، والذى قبله يشعر بحرقة فى دمه وبشدة لا تفارقه • ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه فى آن واحد أمواج المزارع ، وأوراق الشجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط المراعى •

اشتد الحر فى الظهيرة • وحين عاد عمر الى البيت كانت المرأتان تعدان المائدة : انهما لا تنتظران الآن غيره • ان عمر ، وقد امتلأت جيوبه بالحجارة واللوز الاخضر والحشائش وتناثرت على شعره أوراق الاشجار ، كان يبدو أشبه بجنى صغير. ومضى عمر رأسا الى صحفة على المائدة فنقر منها بضع زيتونات سوداء طرية تلتمع بزيتها •

فلما انقضى الظهر مضى يلقى رفاقه • لم يكن أحد من رفاقه هؤلاء من سكان بنى بوبلان الاعلى ، وانما كانوا جميعا من بنى بوبلان الاخر ، بنى بوبلان العمال الزراعيين . انه يؤثر ان يتجول معهم فى تلك الاراضى التى تفوح منها رائحة دافئة ، يلاحقون الحيوانات التى تخاف ، ويرمون الكلاب بالحجارة فتهيج الكلاب ولكنها تتهيب القذائف المتساقطة فتظل بعيدة • وكان يحلو للصبيان أن يسمعوا من مسافة بعيدة شتائم هاشمى ، الراعى الذى يرعى ماعزه خلال الجبل ، تلك العزلة المتوحشة التى تزين على منطقه لالاستى • ان الصبيان لا يرونه ولكنه يستطيع من مكانه ذاك العالى ان يرقب كل شىء لكأن صوته فى هذه اللحظة ينبع من السماء •

ومضى الصبية يتجولون فى مكان آخر • قطفوا توتا من الاسيجة

الشائكة وأكلوه وهم يرتعشون فى ظل الحفر : ان هذه الثمار البرية تتقاطر على اللسان عصارة حامزة حريفة . وكان البرقوق الابيض ، والاحمر ، والضارب الى لون البنفسج ، يتساقط فى وفرة غزيرة تحمل على الزهد فيه، فكانوا يحملون مؤونتهم منه فى اوراق عريضة من أوراق شجر التين .

أما ثمار الكرز الرائعة التى كانت تنوء بحملها أغصان الاشجار فى بساتين المستوطنين ذات الاسيجة ، فقد أثارت شهوة الصبيان ، وأغرتهم بها ، فاقترح بعضهم أن يتجاوزوا الاسيجة ، ولـــكن عمر اعترض على ذلك . قال انه لا يسرق ، ويريد ألا يسرق فى يوم من الايام . وأكثر من ذلك أن هذه البساتين للاوربيين ، وهو يحب ان يستطيع النظر الى هؤلاء الاوربيين وجها لوجه ، لا يغض طرفه حين يراهم : لا شك أن الاوربيين يتمنون أن يعرفوا ان العرب لصوص يسرقون . كان عمر يحرص على أن يسلك سلوك الرجال وعلى أن يتكلم كما يتكلم الرجال .

وتدورت أعين الصبيان حين سمعوا هذا الكلام ، ثم ابتعدوا وهم يدمدمون .

ابتعدوا يثبون بعضهم على ظهور بعض ، وثبة بعد وثبة ، لاعبين لعبة « سبت سبوت » . ولكنهم انقطعوا عن اللعب انقطاعا تاما على حين غرة : ان لقلاقا يسير فى أحد الحقول باحثا عن ديدان أو ضفادع ، فما لبثوا أن انفجروا يصوتون جميعا فى آن واحد قائلين :

بيقق شق شق شق
فى البيادر هيا نلعب ،
يا طاحونة ،
قمحا وشعيرا أعطيك .
يا نحلة يا قيثار !

كان لعمر بين هذا الجمع صديق فى مثل سنه اسمه سعيد . انه صبى اسمر صاحب عبقرية مدهشة فى تسلق الاشجار . فما من غصن من الاغصان مهما يكن نحيلا الا ويبلغه فى وثبة . انه يثب وثبته فى مثل لمح البصر كالقرود ، وأصحابه من حوله قد تدورت أعينهم من فرط الدهشة . وما هى الا لحظة حتى يغيب بين الاوراق ، فما يسمع بعد ذلك الا رنين ضحكه ، ثم يرى قفاه يتأرجح فى أعلى الشجرة فى المكان الذى تتفرع فيه الاغصان . انه يرقص فى الهواء ، ثم اذا هو فى اللحظة التالية يهبط الى الارض .

كان عمر وسعيد على وفاق فى مشربيهما . فما أكثر ما رآهما الناس يظهران فى بنى بوبلان الهادئة صاخبين لا يستقران على حال . وحجرة الطين التى يسكنها اهل سعيد تقع فى أول الممر الذى يؤدى الى قرية الفلاحين ، فكانت خضرة ، أم سعيد ، تجلس امام باب هذا الكوخ ، وبين ساقيها المتباعدتين طاحونة ما تنفك تديرها . ان عمر لا يستطيع ان يتخيل هذه الام الا عاملة فى تدوير هذه الرحى الثقيلة بهذه الطواعية فى جسمها . كانت الام تظل طوال النهار تطحن شعيرا ، أو ذرة أو فلفلا أحمر جافا .

فحين وصلا اليها فى أصيل ذلك اليوم ، كانت ممسكة بالقبضة الخشبية المغروزة فى الرحى ، تديرها تارة بهذه اليد وتارة بتلك . نوثب سعيد على كتفيها ، فانحنت الى أمام ، دون أن تنقطع عن ادارة الرحى . وشد الصبى عنق أمه بذراعيه ، فلم تكف عن العمل وظل جسمها يتحرك مع يدها .

أخذ عمر ينظر فى عينيها الغائرتين ، وقسماتها النحيلة . كانت الرحى تطحن قوى هذه المرأة كما تطحن الحبوب التى تدس فيها . ولكن خضرة ، وهى تتأرجح تأرجحها ذاك ، لم تنس ان تدندن لابنها أغنية من أغنياتها ، بصوت مختنق ، بينما هو متشبث بظهرها كأنه لا يزال رضيعا .

فى حديقتى
بذرت بذور اليانسون ،
فاستهوى العصافير شذاها ،
فجاءت الى حديقتى .
هششت على العصافير أطردها
العصافير الحمر الحزينة
لن تهاجم بعد اليوم طفلى

وخارت قواها أخيرا ، فاستلقت على الارض ، فشعر عمر ، حين أراحت عظامها على هذا النحو ، شعر بحزن رهيب يملأ جوانب نفسه . خيل الى عمر ، حين رأى هذه المرأة التى يشيع فى وجهها الاسى ، والتى تستلقى على الارض مستسلمة هذا الاستسلام الكامل ، خيل اليه أنه يرى ميتة .

- ٣ -

كانت نار قريبة بيضاء تضىء الفضاء ، وكانت الحقول تتقبض ووثب حصان ضخم نحو السماء وجعل يصهل • وصمتت الارض القديمة • وانطفأت النار البيضاء •

الجداجد وحدها ما تنى تثقب النهار بمناقبها •

ـ هل رأيته ، الحصان الذى اجتاز السماء ؟

ـ لا يا كومندار • ما من حصان يمكن ان يطير • أنت تحلم • الشعل التى تتساقط من السماء ذهبت بلبك ، فتراءت لك أشياء •

ـ أنت لم تر شيئا • لذلك تقول هذا الكلام •

تمدد عمر فى الظل الممزق الذى تلقيه شجرة من أشجار الزيتون • لماذا لم ير شيئا ؟

قص عليه كومندار ما رآه الفلاحون ذات ليلة ، قال :

« كان قمر الصيف يزبد فوق الوهاد السوداء المنفغرة بين الجبال • لم يعد الوقت ليلا • وكان الجو والارض يتألقان ، وكان فى وسع المرء ان يستبين كل حزمة من عشب ، وكل مدرة من تراب • وكان الجو والارض والليل تتنفس لهاثا غير ملحوظ • وفجأة ترجعت فى الارجاء أصوات حوافر تقرع الارض • انتصب الفلاحون جميعا على اقفيتهم • ازداد اقتراب وقع الحوافر • انه كالرعد يتدحرج من أقصى المقاطعة الى اقصاها • لم تأخذ أحدا من الفلاحين سنة من النوم بعد ذلك • استقر بعضهم أمام آكواخهم • فرأوا تحت أسوار « المنصـــورة » حصانا أبيض بلا سرج ولا لجام ولا فارس ولا عدة ، يهتز عرفه بعدو جنونى •• حصان بلا لجام ولا سرج ، بهرهم بياضه • وغار الحصان العجيب فى الظلام •

« وما كادت تنقضى دقائق معدودات ، حتى دوى عدوه من جديد يطرق الليل ، عاد الحصان يظهر تحت أسوار « المنصـــورة » وعاد التطواف بالمدينة القديمة المندثرة • كانت الابراج الاســـلامية التى قاومت الفناء تلقى ظلالها الكثيفة فى الضوء المعتم •

« ودار الحصان بالمدينة القديمة مرة ثالثة • حتى اذا مر بالفلاحين احنوا رءوسهم جميعا ، وامتلأت قلوبهم اضطرابا وحلكة لكنهم لم

يرتجفوا هلعا .. فكروا فى النساء والاطفال . قالوا لانفسهم : « عدوا فى الليل يا حصان الشعب ، عدوا الى الشمس والى القمر ، فى ساعة النحس ونذير الشؤم » .

كان عمر راقدا على العشب الحار ، فأخذته سنة . فلما رآه كومندار غارقا فى نوم عميق ، صمت عن الكلام .

ودمدم يردد لنفسه وحدها تلك الفكرة التى تلح عليه : « ومنذ ذلك الحين ، أصبح الذين يلتمسون لانفسهم مخرجا ، الذين يبحثون عن أرضهم مترددين ، الذين يريدون ان يتحرروا وان يحرروا أرضهم ، أصبحوا يستيقظون كل ليلة ويمدون آذانهم منصتين . ان جنون الحرية قد صعد الى رءوسهم . من ذا يحركك يا جزائر ؟ ان شعبك يمشى فى الطرقات يبحث عنك » .

جرى الخروف « معشو » هنا وهناك ، فمن هنا عشبة ومن هناك زهرة . ثم اتجه نحو الصبى ، وأخذ يطوف عليه بمنخريه الاسودين الرطبين ، ثم قعد . ان رائحة دسمة قاتمة تنتشر من الخروف غطاء ثقيلا على المكان الذى قبع فيه الصبى والحيوان . وازداد الحر كثافة .

واستيقظ عمر . فاليك ما قاله له كومندار عن قرية بنى بوبلان وسكانها :

« قد لا تكون « بنى بوبلان » مكانا رائعا . ان سكان المدن لا يعرفون عنها شيئا ، رغم ما اشتهروا به من أنهم علماء بكل شيء . والحق ان علمهم ببنى بوبلان أقل من علمهم بما عداها ايضا . فى اقصى الشمال ، وفى أدنى الشرق ، وفى أى مكان من العالم لا يعرف الناس عن بنى بوبلان كبير شيء . من الذى يتكلم عن بنى بوبلان ؟ لا أحد . ذلك أن من يريد ان يتكلم عنها ، ينبغى له أن يعرفها . وكلما عرفها كلما تأملها ، لاح له أنها مكان يحلو العيش فيه ، ولا أقول انها مكان رائع . ان الانسان يتنسم هنا هواء الجبال . واذا شعرت هنا بالوحدة فهى وحدة غير التى تستولى عليك حين تعيش فى مدينة كبرى .

« هى وحدة أخرى .. وحدة الطرق المحصبة الغبراء التى تملأ البلاد . حقول الكرمة ، التى تحف بها الاسيجة ، تمتد امامك ههنا على مدى البصر . ومن مسافة الى مسافة ، يظهر كوخ بائس من اكواخ الفلاحين . هذه الاكواخ كلها متشابهة . يلوح لك فيها شيء من الحزن يلاحقك بغير انقطاع . ان الفلاحين لا يتركون بنى بوبلان أبدا . واذا تركوها لم يصلحوا بعدها لشيء . فى اصواتهم حنين رائع ، وتحيتهم تزخر بالحرارة . ولكن الاستعمار يجرح : عيونه خائفة لا سبيل الى

خلاصها من هذا الخوف ، وعيون الرجال قاسية لا سبيل الى خلاصها من هذه القسوة · ذلك ان المستعمر المستوطن يرى أن عمل الفلاح من حقه تماما ، بل انه ليريد ان يكون الناس أنفسهم له · ولـكن الفلاح ، رغم انه ملكه اسما ، هو في حقيقة الامر سيد الارض الخصبة البهائم والمحاصيل والحياة في كل مكان ، من انجـابه · الارض امرأة ·· سر الاخصاب واحد ، في أخاديد الارض وفي ارحام الامهات على السواء · والقوة التي تخرج من الارض ثمارا وسنابل هي بين يدي الفلاح ·

« قوي مخيف هو · لابد له يوما أن يحمي بالسلاح بيته وحقوله ·

« أما النساء في بني بوبلان فقد لوحتهن الشمس حتى صرن بلون العسل · انهن كالذهب · ومع ذلك لا شيء من هذا يدوم لهن طويلا· ان اللعنة القديمة تلاحقهن · فما أسرع ما تصبح أجسامهن أجسام حمالين ، وما أسرع ما تتحفر أقدامهن التي تطأ الارض ، فاذا هي ملأى بشقوق عميقة · جمالهن يذبل في مثل لمح البصر ، بطريقة أو بأخرى · ولا يبقى لهن من آثار الجمال الا صوتهن البطيء العـذب الرخيم · غير ان جوعا رهيبا يسكن نظراتهن ·

« وفي بني بوبلان يتفق للرجال ان يلتقوا جماعات صغيرة قرب القرية ، يتبادلون الاخبار بعد ان افتقدوا العمل بالمزارع · ان وجوههم تصبح صامتة خرساء · وهم في هذه اللحظات يبخلون جميعا بالكلام، ولا يديرون ألسنتهم الا بجملتين أو بثلاث :

« ـ نحن نعمل في الكروم ··

« ـ أنا أعمل في مزرعة ماركوس ··

« ـ لم يبق هنا عمل ·· لم يبق عمل ·

« يمكن الذهاب الى منطقة أخرى ·

« ـ من يدري ·· ربما كانت البطالة سائدة هنالك أيضا ··

« وهم يتجولون في دروب الريف التي تعمي الاعين ، يتجولون في بطء ، وأذرعهم تتوائب . انهم يتبادلون التحية في مودة .

هذا واحد يصيح :

« كيف حالك يا قدور ؟ لا شك أن هذا الحر شديد عليك ·

فيجيب الرجل المدعو باسم قدور ، يجيب وهو يهز رأسه :

ـ الحر خانق والبطن خاو ، هذه حالي .

فتدوي في الفضاء ضحكة غير مألوفة :

ـ والله صحيح ·· حلوة هذه ··

« ويضحك الرجل مرة أخرى بصوت أخفت . لم تعد أعينهم قادرة على أن تتلاقى ..

« وتمضى أيام . فتأتيهم الانباء فى ذات صباح قائلة ان اثنين منهم أو ثلاثة أو أربعة معا ، قد قتل بعضهم بعضا بالمطارق ، عند حافة طريق أو حول عين . ليس هذا بالغريب . هواء الجبل خفيف ودم الرجال حار . وتظل أعينهم مجنونة أياما برمتها . فكذلك تجرى الامور .

« ولست ترى على الجملة الا أناسا خضعا متواضعين ، لا ينزل أحد منهم نفسه فى غير منزلتها . ان تلمسان لا تنجب الآن الا تجارا . فما هو موقف هؤلاء التجار ؟ انهم لا ينفكون يباهون بعظمة ماضية. ولكن ما هم الان ؟ ان الفلاح يسعى الى شيء أقرب الى الجد والرصانة ليس يجدى المرء فى شيء أن يعرض على الناس مطامعه ودعاواه .

« اسمع مثلا ما تستطيع الخالة خدوجة أن ترويه لك عن الماضى ، بل اسمع ما ترويه الجدة أم الخير . ان حياة الجدة أم الخير يرجع عهدها الى تلك الايام المتوحشة ، أيام الحرية ، التى سبقت مجيء الفرنسيين. ان أم الخير عليمة بما كان عليه ماضينا . فاذا تكلمت امتلأ الهواء بأطياف لا ترى وبأصوات . فأنت يا من تسمع كلامها ، اعلم أن هذه الاصوات الاليفة هى اصوات ناس من عصر آخر .

ان ما تسيره اقوال ام الخير : التى تتردد فى الليل الواسع الهادىء، انما هو ماضى الفلاحين ، ولكنه أيضا ماضى الجزائر الذى كان ماضيك

« ستقول لك أم الخير ان جدها كان محاربا عظيما ، فارسا كبيرا ، حكيما أحكم من سائر الحكماء ، يعلو بعدله وخيره وبسالته خاصة على سائر رجال القبيلة .. غير ان هذا كله ليس شيئا ذا بال . لقد كان جدها اكثر من ذلك : كان انسانا ملكا .

«ذلك عن ماضى الفلاحين. غير ان الفلاحين لن يدعوا أنهم كانت لهم فى الماضى قيمة كبيرة . ان الفلاحين اناس صغار بسطاء .

« ذلك عن الماضى .. ولكن لنعد الى الحاضر .

هل « بنى بوبلان » أفضل ، لانها من الريف ! ان المرء لا يدرك أحيانا ان انتماءه الى المدينة خير من انتمـــائه الى الريف . والحق ان انعزال الانسان فى ريفه انعزالا تاما أمر لا قيمة له البتـــة . ولكن الاسراف فى الانحباس بين جدران مدينة من المدن ، ليس خيرا من ذلك فانما المهم ان يعرف المرء ماذا يريد . فاذا وجد فى الريف وفى المدينة على السواء ، رجال ينهضون ليشقوا الطريق الى حياة جديدة ، لم

يكن ثمة فرق بين المدينة والريف · ما ينبغي لاهل الريف أن يحترقوا وأن يجفوا على الاراضى ، وما ينبغي لاهل المدن ، سجناء الجدران ، أن يتفسخوا فى ميعة العمر .

« قد تكون «بنى بوبلان» أفضل ، ولكن أهلها لا يعرفون اليقين. لم يشعلوا النار في العالم بعد ، وليس في نيتهم أن يفعلوا · ولكنهم بدأوا يتكلمون عن وطأة المظالم ، وبدأوا يفهمون أن الأجور التى يدفعهالهم المستوطنون هى البؤس عينه . انهم يتحدثون عن هـــذا فى جميع المناسبات ، أثناء العمل وفى استراحة الظهر ، حين يلتقون فى الطرق، وحين يعودون الى بيوتهم وصفارهم عند المساء ، فى السوق يوم الاثنين ، وفى الايام الطويلة التي يقضونها بلا عمل مكرهين . والسخط يكبر شيئا بعد شيء . الريف كله يعيش فى جو لا يبشر بهدوء . ومن الناس من يحلف بأغلظ الأيمان أن السجن خير من هذه الحياة .

« ثم ان بنى بوبلان ليست بالشيء الذى تسر رؤيته الناظرين · انك لا ترى هنا الا أكواخا وخصاصا ، وعددا قليلا من بيوت الحجر يسكنها المزارعون ولا تكاد تختلف عن مساكن الفلاحين . ان النـاس لايحرصون أن يتكلموا عن ماضيهم . فى هذا المكان كانت تقوم فى الماضى مدينة « المنصورة » التى لاتزال نرى جدران سورها ، ولا تزال نرى برجها المغربى . صحيح ان تلمسان مدينـــة قديمـــة : فالبيوت فيها هرمة يرجع عهدها الى مئات السنين . ولكن الناس ايضا هرمون فى تلمسان . الوجوه فى بنى بوبلان بسيطة كل البساطة مألوفة كل الالفة . الفلاحون يمضون الى أعمالهم دون أن يطلب منهم ذلك . فلهذا خلقوا · وهم فى أذواقهم وميولهم اعفاء قانعون معتدلون. ولكن حذار ان تسألهم ان يحنوا ظهورهم صاغرين .. ان سكان بنى بوبلان اناس حليمون بسطاء بطيئوا الكلام ، ولكن كل كلمة فى افواههم موزونة . والعمل عندنا دائم ، والفراغ قليل . ان بنى بوبلان منطقة عادية ليس فيها ما يلفت النظر . قبضة من الناس لا يمتـازون بشيء خارق غير مألوف ، ولكنى أستطيع أن أقول على وجه التقريب أن كل ما يصنع الجزائر قائم فيهم » .

— ٤ —

كل شيء قد بدأ بذلك الاضراب الذى قام به العمال الزراعيون فى شهر شباط الماضى . كان المزارعون فى بنى بوبلان الأعلى يشاهدون الاحداث التى تقوم فى السهل كأنها لا تتصل بهم ولا تعنيهم . انهم هادئون صامتون لا يقولون شيئا . ألوف الهكتارات من الارض كانت تصير ملكا لمستوطن واحد من الفرنسيين . وهؤلاء المستوطنون جميعا سواء : لقد وصلوا الى هذه البلاد بأحذية مثقبة نعالها . ان الناس هناك لايزالون يذكرون الحالة التى كانوا عليها حين توافدوا الى هذه البلاد . وهاهم أولاء الان يملكون مساحات من الارض لا تعد ولا تحصى . وسكان بنى بوبلان فى اثناء ذلك تقطر اجسامهم عرقا ودما من اجل ان يزرعوا قطعة صغيرة من الارض ، جيلا بعد جيل . فهذا يملك حمارا أو حمارين ، وربما ملك بغلا ، وهذا يملك بقرة او بقرتين . ورب مزارع من المزارعين مثل « بن أيوب » يضم اسطبله بقرتين كبيرتين من الابقار النورمندية . ما من أحد من بنى بوبلان الاعلى كان يتصور أن هذه الحياة سيطرأ عليها تبدل .

ثم اذا بهذا العالم الصغير الراكن الساكن الهادىء يتحرك . لقد قام الفلاحون باضرابهم . ان البلاد تفيق ، تخرج عن ركودها ، فتسير فى أول الأمر سيرا بطيئا ، سير من صحا من نوم طويل ثقيل . انها تسير فى طريق الحياة .

كان بن أيوب فى بعض الايام ينظر طويلا الى الاعماق البعيدة من السهل ، فيدرك الحقيقة واضحة : يدرك ان الثروة الحقيقية تتجمع فى ايدى المستوطنين . اما هو فان ارضه لاتبدأ الا على الجنبات الوعرة من الجبل ، مثله فى ذلك مثل سائر المزارعين فى بنى بوبلان . ولقد كانت الارض تنتج ، ولكنها كالنساء الضاويات فى الاعالى ، لا تدر الا قليلا من اللبن . ان بنى بوبلان وحقولها المعلقة فوق مجارى السيول وحقولها الوعرة الملتصقة بالصخر ، تقع على عتبة الأراضى البور .

والمزارعون فى بنى بوبلان لا يكدسون شيئا من اوراق النقد التى يصدرها « مصرف الجزائر » ، لا ولا يجمعون ذهبا او فضة . انهم يقيمون أودهم لا اكثر من ذلك ولا اقل . لم يدخروا قرشا فى يوم من

الأيام ، وعليهم ان يعملوا عملا قاسيا مجهدا .

اما من اجل دفع الضرائب ، فلابد لأحدهم من ان يبيع حلى زوجته ، وان يضيف اليها ملابسه الشخصية ، وان ينتزع من الفراش صوفه ، وان يكمل المبلغ بثمن ما في بيته من جلود الخراف . كانوا يبيعون كل ما في وسعهم أن يبيعوه ، اللهم الا الارض .

واذا أستطاع احدهم الان ان يجنى ما يسد الرمق ، أن يكسب كسرة الخبز التى تقيم الأود ، فذلك كل ما يتمناه . وحتى في هذا كانوا يقتصدون بعض الاقتصاد .

ولكن الارض مع ذلك ليست عاقة . انهم هناك في الأعلى لا يضنون بالجهد ولا بعرق الجبين . واذا استطاع أحدهم أن يدخر بضعة قروش ، فانما هو يأخذها من طعامه ، يقتطعها من معدته . ولابد من هذا .. كذلك هم الآن ، فهل يجب ان يظلوا على هذه الحال مدى الحياة ؟ انهم منذ الان في عسر وضيق ، لا يكاد يستطيع احدهم ان يحرك كوعه قليلا . ان الحياة التى على هذا المنوال لا تستحق ان يحياها الانسان . متى احترمت الارض احترمتك . اعطها العمل، ترده لك اضعافا مضاعفة . أما كنز الذهب فأشبه بترك الفريسة والقبض على الظل . كيف تستطيع أن تضع خير جزء من دمك ، ومن قوتك التى لم تكف عن العمل يوما ، ومن أحلامك المضيئة ، كيف تستطيع ان تضع هذا في ركن مظلم وأن تدعه يتخمر هنالك ويفسد ؟ انك لو فعلت ذلك لتلطخت نفسك ببقعة لا تسمى باسم ، ولا تبرا ولا تشفى كمرض من أمراض البلاد الحارة . انظر امامك كيف يسيل الثراء الذى لا ينضب له معين ، على هذه الاراضى الشاسعة الخضراء .. صحيح ان الارض وما عليها من نبات وحيوان ، الارض الواسعة الرحبة ، هى ملك لله يعطيه من يشاء من عباده . ولكن الذى يملك قطعة صغيرة من ارض يكون قد حظى برضا الله ، فملك اليسر ورغد العيش والحرية . هناك انما يجد الاستقلال الحق .

بهذا كان مزارعو بنى بوبلان الاعلى يحدثون انفسهم ساعات طويلة ، وهم يبذرون بذورهم أو يقضبون الاشجار أو يعنون بالبهائم ، وحتى في اثناء النوم . كانت هذه الفكرة تنبض فيهم نبض الدم في الشرايين ، وكانت تغذى في نفوسهم رغبات بطيئة كثيفة ، وشهوات لا تخطر ببال . انهم يمضون من عمل الى عمل ، وقد لازمهم هذا الحنين الى الارض التى كانت تصبو اليها نفوسهم ، وتصور أمام أبصارهم سرابا يرونه كل يوم .

وفى هذا الوقت كان الفلاحون لايزالون يتحدثون عن الاضراب الذى قام فى شهر شباط ولم يدم مدة طويلة ، وانتهى الى نهاية محزنة . ان اثنين من ذويهم قد اعتقلا أيامئذ ولايزالان فى السجن دون محاكمة ولم تعتقل السلطات هذين الاثنين فحسب ، وانما أعتقلت كذلك رجالا آخرين من المراكز المجاورة .

***

ان معمر الهادى ، ذلك الرجل الوقور ، لا يزال فى هذا اليوم ايضا يسدى نصائح الاعتدال والهدوء الى الفلاحين الذين تجمعوا عند حدود القرية وكانوا مثله لا يعملون . قال معمر الهادى :

ـ ينبغى للانسان الا يتحول بفكره عن العمل ، وعن الجهاد فى سبيل المعيشة ، هذا الجهاد الذى يستنفد وحده كل ما يملك من قوى . يجب على الانسان الا يفكر فى مصيره وفى غده ، يجب عليه ان ينسى مصيره وغده ، فكذلك قال الاوائل بحق . هذان رجلان مناقد انتهيا الى السجن . لماذا ؟ لأنهما وضعا فى ذهنيهما آراء وافكارا .

أراد سيد على ان يعترض ، ولكنه تفكر فى الأمر ، فأحجم . انه لا يريد ان يقحم نفسه فى مشاجرة لا معنى لها . ثم انه يعرف عقم مثل هذه المناقشات .

ومع ذلك أجاب معمر بقوله :

ـ واذا لم يكن فى بيتك كسرة من خبز ، فهل المطالبة بهذه الكسرة من الخبز اشتغال بالسياسة أيضا ؟ كسرة خبز ، ماهى ، ما كسرة الخبز بالشيء الكثير ، ومع ذلك فان هذا الذى ليس بالشيء الكثير هو عندنا كل شيء . اذا قلت الخبز ، فقد قلت الحياة . من أجل ذلك كان الخبز كل شيء عند اناس مثلنا .

كان الآخرون مصيخين بأسماعهم .

فقال معمر :

ـ اذا كان هدفك ان تعيش فحسب ، فاخفض راسك واعمل . هذه هى الوسيلة التى لا وسيلة سواها .

وهنا صاح على بن رباح قائلا له :

ـ عفوك . عفوك .. اعتقد ان على أن اقول انى غير موافق على ما تقول . الناس فى هذه البلاد طينة كريمة . قلوبهم لا تزال سليمة لم تشبها شائبة . كل ما كابدنا من بؤس ومن شقاء لم يفسدنا . اننا لم نخفض رءوسنا فى يوم من الايام ، فلن نخفضها اليوم . كل رجل من هؤلاء الرجال الذين تراهم حولك هو الان اشبه بالبارود ، يكفى

ان تسقط عليه شرارة ..
قال بادعدوش العجوز :
ـ بارك الله فيك .
وتدخل سيد على قائلا :
ـ اننا نرى فى هذه الايام أمورا كثيرة خارقة . ولكن هذه الامور ليست بالامور التى يستحيل فهمها . انها مرتبطة أتم الارتباط بالمظالم القديمة والجديدة التى تقع على الفلاحين .
قال هذا الكلام وهو يحدق الى معمر ، مع اتجاهه بالحديث الى الآخرين .
ثم صاح يقول :
ـ ان لكم عيونا ترى ، فانظروا حولكم . انكم مازلتم شبابا . ولسوف تعلمكم الحياة أمورا كثيرة ، لسوف تدلكم على ما تغير فى هذه البلاد .
وفى هذه اللحظة ارتفع صوت بادعدوش ، وقال فى همهمة كأنها هدير حجارة تتلاطم :
ـ ان أمورا غريبة تحدث لدى الفلاحين . ان تبدلات تطرا . نحن القدامى نتذكر عهدا كان يستحيل فيه حتى أن نتصور ان شيئا من الاشياء يمكن ان يتغير . حين ينخفض بصر الشيخ العجوز ، فان دماغه يزداد نشاطا ، فيظهره على كل شيء .
قال عزوز على :
ـ ولكن اذا ظل صرح المظالم قائما فى مكانه ، فما من شيء يكون قد تغير .
فقال بادعدوش الشيخ الذى بدا انه لم يسمع كلام عزوز على ، قال متنهدا :
ـ آه .. ليت واحدا فقط يعرف كيف يقص على الناس قصة الحياة الحزينة الشقية التى يعيشها الفلاحون . الا ما اكثر ما يستطيع عندئذ أن يقوله . وليته بعد أن ينتهى من الكلام عن الفلاحين المساكين ، يتحدث عن حياة الأبهة التى يعيشها المستوطنون الفرنسيون ، ليسرى عن مستمعيه ويروح عنهم .
بالقرية جسر صغير كانت جماعة الرجال واقفة تحت افريزه . وكان عدد من النساء لا يزال الى هذه الساعة قرب العين ، ذلك ان الماء الساقط من العين فى الشتاء والصيف معا خيط نحيل ، فالفلاحات يتلبثن بالمكان هنالك وقتا لا نهاية له . فيثرثرن ويلقين

على الرجال نظرات سريعة مختلسة .

وهذا بعضهن عائد من العين . ان اجسامهن صلبة خشنة . انهن يرتدين ثيابا من القطن ؛ والمنديل الملون العريض الذى يحيط برءوسهن يحجب عن الناظر فروعهن . انهن يتقدمن بخطا بطيئة . ان القادوس الملآن الذى تشده كل واحدة منهن الى كتفيها بحبل ، يقصم ظهرها . انهن يخطرن واحدة بعد أخرى ، على صف واحد ، فى بطء وصمت ، ثم يغبن فى الطريق الوعر المؤدى الى القرية . الا أن احداهن انفصلت عن رفيقتها ، وتقدمت بضع خطوات نحو الرجال ، ثم وقفت على مسافة منهم دون أن تنبس بكلمة واحدة .

ـ ما من أخبار جديدة يا زهرة . عودى الى البيت .

ـ أعود الى البيت ؟

وكان واضحا أن الرجل أراد ان يقول لها شيئا آخر . وانتظرت المرأة . غير أن سيد على أشار بيده ، ولم يزد على ما قال كلمة واحدة . فابتعدت المرأة ، وادركت رفيقتها التى كانت تنتظرها على بعد ؛ واتجهت المرأتان كلتاهما نحو القرية بتلك الخطا الهادئة نفسها .

قال أحد الفلاحين :

ـ هنا ، فى هذا المكان نفسه ، اعتقل زوجها .

وقال جاره :

ـ شهدت ذلك انا أيضا .

وقال بادعدوش فى همهمة بحاء :

ـ ما كان ابشعه من مشهد !

وسأل عيساني عيسي :

ـ ما الذى تفعله الآن ؟ أريد ان اقول : كيف تعيش ؟

أن عيساني عيسي لا يسكن بنى بوبلان . وانما هو عامل مستقر فى مزرعة ماركوس ، فهو لا يعرف كيف كانت تسير الامور فى القرية.

فقال بن سالم عادة :

ـ انها لا تملك الا عينين تبكيان . كان زوجها يعمل ، فيكسب ما يكفل حياة الاسرة .. أما الآن ، بعد غياب زوجها ، فان .. فان الناس تساعدها ، هى وصالحة .. ان لكل منهما أطفالا ، ثلاثة أو أربعة . ولكنهما تعرفان كيف تصبران على المحنة .

وعاد فلاح يقول :

ـ كان هنالك كثير من الناس فى ذلك اليوم .

فأجاب جاره :

ـ وكان سكان بنى بوبلان يرون ما يجرى .

فقال الأول :

ـ جميع من حضروا شهدوا الأمر

فأجاب الثانى :

ـ رأينا كيف عذبوهما .

ـ لم يكن اعتقالا عاديا كاعتقال اللصوص أو القتلة .

الواقع أنه لم يكن اعتقالا عاديا . كانت النساء عائدات من العين بعد أن ملأن منها . وكان الرجال ذاهبين يسقون البهائم . وكان العمال يضعون اكواما من السماد على صفوف الدوالى فى كرم مسيو فيار . وفجأة رأوا ذينك الفلاحين بين جنود الدرك ، يسيرون بهما فى الطريق نحو المدينة .

تلفت النساء والرجال ليروا الجمع . قال عامل يسمى أحمد بن سماحة :

ـ غيبتهما طويلة .

وعاد الى عمله . انه بعد ان قال كلامه ذاك لا يريد ان ينظر الى السجينين ..

وقدر جميع العمال الزراعيين ما قدره احمد بن سماحة من ان هذين الفلاحين اللذين يسيران فى الطريق المغبرة ، سيغيبان غيبة طويلة .

وقد تجرأ احد الناس فوجه كلمة الى السجينين من بعيد ، على سبيل التحية . ولكن الناس كانوا يقدرون ان السلطات اصبحت فى هذه الأيام الأخيرة لا تنتظر منهم الا اشارة واحدة حتى تقبض عليهم . كان هذا واضحا كل الوضوح . كان يبقر الابصار . ان السلطات والشرطة والمستوطنين الفرنسيين لا يتمنون اكثر من أن يرفع أحد هؤلاء الفلاحين اصبعه بحركة يسيرة .. آ .. انهم لا يتمنون اكثر من هذا . أدرك الفلاحون ذلك وفهموه .

وظلوا هادئين لا يحركون ساكنا . ما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهم شيئا . ان الآخرين هم الذين يبحثون عنهم ، ويتحرشون بهم . كان الفلاحون يقولون بينهم وبين انفسهم : « لم نقل شيئا . هذه أفواهنا . ها نحن أولاء نضع أيدينا على أفواهنا فما تخرج منها كلمة واحدة . هذه ايدينا . هذه ايدينا مبسوطة . ليس فيها شىء . ايد مسالمة . اننا لا نطلب الا أجورا اعدل . هل من الشر ان يطالب الانسان بما يسد رمقه ، لا اكثر ؟ هل من الشر أن يطالب الانسان

لاطفاله بطعام يقيم أودهم فحسب ؟ هل ذنبنا أن أطفالنا يبكون كثيرا ؟ هل هذا ذنبنا ونحن نضع قوتنا تحت تصرف من يشاء ؟ أين الشر اذن ؟ من الذي يريد الشر ؟ من الذي يسعى الى الشر ؟ من الذي كان أول من أراد الشر ؟ هذه أفواهنا . اننا نضع عليها أيدينا »

وكان الفلاحون يعرفون ماذا يرون من رأى فى هذه الاحتفالات ، وما الذى ينبغى لهم أن يفعلوه فى مثل هذه الاحوال ؟ انهم لم يتحدثوا عن ذلك الى هذا اليوم ، ولكنهم يعرفونه كأنهم قد اجتمعوا قبل ذلك منذ مدة طويلة ، فانتبهوا اليه : وهو أن يكونوا يدا بيد . كلمة واحدة : الاتحاد .

لقد رأوا السجينين يذهبان ، فلم ينطقوا بحرف . ظلوا هادئين لا يحركون ساكنا ، وكانوا جميعا يعرفون ـ دون ان يقول أحد لأحد شيئا ـ ما الذى ينبغى لهم ان يفعلوه . بضع ثوان كانت كافية : لقنوا الدرس وحفظوه فى الصدور .

والسجينان لم يردا كذلك تحية الذى حياهما فى صداقة . يجب ان نفهم ماذا يعنى أن يكون المرء سجينا . لو كنا فى مكانيهما لما فعلنا غير ذلك . ان يسير المرء مكبل اليدين بقيد ، فذلك أمر لا يقع كل يوم لشرفاء الناس . لم يردا التحية . هذا أمر يقع لهما أول مرة . انهما لا يعرفان كيف يفكران ولا ماذا يفعلان . لا يمكن ان نقول انهما كانا يشعران بالخجل والعار ، ولا انهما يغضان الطرف حياء . وانما كانت بهما دهشة كبيرة . لاحظ ان السلطات شديدة السخط اذا سخطت ، انها أشد سخطا من كل ما يمكن أن يخطر لك ببال . لا يعرف المرء ماذا يمكن ان تفعل اذا هى تار حنقها . لذلك كان الافضل الا يردا التحية ، ولو استاء هؤلاء الاصدقاء . كان يكفى أن يتبادل رجلان كلمة مودة وصداقة حتى تهتاج السلطات سريعة التأذى .

كان السجينان يفهمان ذلك ، فذهبا دون أن يردا التحية . على أنهما كانا يحسان أثناء مرورهما بما يشعر به الناس نحوهما من حب وعطف . ان الفلاحين الذين لم يتحركوا كانوا يشعرون نحوهما بشعور الصداقة ، حتى لقد بدأوا يشدون على أسنانهم من الغضب . ليس على السجينين ان يظنا فيهم الجبن ، فلو ظنا ذلك لالحقا بهم اهانة فظيعة ، اهانة لا تمحى مدى الحياة .

أما رجال الدرك فكانوا يسيرون دون أن يلقوا نظرة واحدة على يمينهم أو شمالهم . كانوا يظنون أنهم يقودون رجلين الى مكان هم

السادة فيه . (ولكنهم فى الواقع على خطأ) . ان الحقول ، والقرية ، والمدينة ، وحتى السجن ، ان كل ذلك سواء . ان هذين الرجلين يظلان فى بلدهما . انهما ينقلان من مكان الى آخر ، ولكنهما يظلان فى بلدهما . واضح ان رجال الدرك كانوا لا يفهمون هذه الحقيقة . ذلك انهم ليسوا من هذا البلد .

وربما كان هذا هو السبب فى أنهم كانوا يحسون انهم مضطرون الى ان يسيروا على هذا النحو . لم يكونوا مزهوين . اليسوا هم أصحاب القوة ؟ ولكن يالها من قوة !

حين زج بالرجلين فى السجن ، كانت السلطات تشتبه فى جميع سكان بنى بوبلان . كانت السلطات تحس ، وهى على حق فى ذلك الاحساس ، ان هذين الرجلين لا يعملان ولا يعكران صفو الأمن العام وحدهما .

قال سيد على :

ـ طويل صبرنا .

فقال بادعدوش ايضا :

ـ لسوف تريكم الحياة ما تبدل من امرنا . اكنا نجىء الى هذا المكان نتحدث عن هذه الشئون كلها ، لولا ان شيئا قد تبدل ؟ قولوا ...

فقال معمر الهادى فى غيظ وحدة ، وهو ينظر الى العجوز بعينيه المغمضتين نصف اغماض من وهج الشمس :

ـ نحن أناس نجيد الكلام .. نحن جميعا نجيد الكلام ، حتى بادعدوش . ولكن .. يجب ان نكون على حذر ..

قال بن سالم عاده :

ـ طفح الكيل ، لذلك نحن نقول هذا الكلام . كلام كل واحد منا يخرج من اعماق قلبه ، ويعبر عن أصدق ما بنفسه .

قال معمر :

ـ نحن لا نعرف ما نقول . كلامنا لا يعبر عن أصدق ما بأنفسنا .. وانما نحن نتكلم ، ونتكلم . نحس ان الكلام يريحنا ، او نظن ذلك ..

قال عزوز على :

ـ هو كلام وكفى . كلام برىء . اغفروا لنا هذا العيب . نحن نود لو نعمل . اننا نرى الشر ايضا . مثلك . وربما أكثر . ذلك اننا ، جميعا فى المواقع الاولى ، نعرف كل ما تكابد من آلام . ولكننا نحب ان نتكلم . أهى جريمة أن نتكلم ؟ هو كلام وكفى . كلام برىء . سامحنا ..

ولكن ماذا نعلم نحن عن الخير والشر ، نحن الفلاحين ؟ نظن اننا نفعل شيئا ، وأن لنا قيمة . هه .. اننا نحب الخطب الجميلة ، نحب الكلام الجميل ، وخاصة حين نكون نحن الناطقين بهذه الخطب الجميلة وهذا الكلام الجميل . وهذا بعينه هو ما يفقدنا صوابنا ، ويطيش لبنا . مع اننا لم يكن لنا فى يوم من الايام اية قيمة ..

انتفض بادعدوش حين سمع هذه الكلمات ، وقطع حديث معمر بقوله :

ـ هذه هى العادة عندنا فى القرى : نزعم دائما انه ليس لنا قيمة ، وما نفتأ نردد ذلك : متى فرغ الفلاح من اعمال الحقول ، قعد ولم يفعل بعد ذلك شيئا ، الى ان يأتى الموسم الجديد . هذا ما نقوله دائما عن أنفسنا . ونقول أيضا ان الذنب فى هذا هو ذنبنا ، فنحن نكره العمل .

قال بادعدوش ذلك ثم التفت نحو الآخرين سائلا :

ـ اليس كذلك ؟

واذ لم يجبه أحد ، تابع كلامه :

ـ ما حياة الفلاح ؟ انه متى حل الشتاء ، اوى الى كوخه أو الى مغارة مظلمة ، يرتجف من البرد هو وذووه . وأظن أن الامر هو كذلك فى غير هذا المكان ، اظن انه كذلك حيثما يوجد فلاحون فقراء ، سواء فى الشمال أو فى الجنوب ، فى الشرق أو فى الغرب . وتقولون هذه قسمة الفلاح ، الا انكم لتهينون الحياة بهذا الكلام . ياأصحابى ، كفى اهانة للحياة .

وتنهد بادعدوش ثم صمت . انه يلقى على الناس حوله نظرات مهتاجة ، ولا يستطيع ان يكظم غيظه .

لم تبد على الفلاحين الآخرين رغبة فى الكلام ، ذلك لانهم ليس فى آذهانهم ما يقولونه ، أو لانهم كانوا يؤثرون الا يضيفوا الى ما قيل شيئا .

لاشك أن كل واحد من هؤلاء الرجال كان فى حاجة الى التقدير . انهم يطلبون هذا التقدير من انفسهم ، ولهم على ذويهم حق . كيف تريد من غريب ان يحترمك اذا كان اهلك لايحترمونك ؟

وقطع بادعدوش الصمت وعاد يقول :

ـ ما اكثر مايتجنون على هذا الفلاح . الفلاح تنبال كسلان . لكى يعمل يوما يجب أن يرتاح عشرة . متى كسب قوت ثلاثة أيام ترك العمل ، وراح يعيش كما يعيش الضب . الفلاح رائحته كريهة .

ما الفلاح الا بهيمة . الفلاح فظ غليظ . الفلاح كذا ، الفلاح كذا .. والفلاح راض عن حاله ، راض بما قسم له . فان اردت أن تستبدل بحياته حياة أخرى نيرة سعيدة محترمة رفض ذلك . كذلك هو الفلاح ، وكذلك سيظل . ثم ان كل مايمكن أن تنفحه به من أمور جميلة ، يتدهور بين يديه راسا ويصير على صورته . انه لايستطيع العلو فوق هذا المستوى الذى يعيش فيه . ولكن المصيبة أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام لايدعوننا أبدا نجرب تلك الحياة الجميلة . ذلك انهم يعيشون على ظهورنا كالقمل . هذا هو السبب . ان كان خبزنا أسود، ان كانت حياتنا سوداء، فاليهم يرجع السبب فى سواد خبزنا وسواد حياتنا جميعا . ولكن هذا القمل فى رأسه أفكار عظيمة . اظن انه فى جميع البلاد على هذه الشاكلة . لابد انه يقول فى كل بلد فيه فلاحون يخصبون الارض : الفلاح راض بما قسم له . أفنحن أمة على حدة أم جنس على حدة ؟ . الا أن هذا هو ماينبغى أن يعرف فاذا صح ان الفلاح راض عن حاله ، لم يكن علينا الا ان نسلم بذلك قائلين : تلك قسمة الفلاح ، سيظل طوال حياته يعيش على هذه الارض نفسها ، تحف به هذه السماء نفسها ، وتحد نشاطه هذه الجبال نفسها ، وتقوم أراضى المستوطن الفرنسي سورا من حوله لا مخرج له منه ، يعانى الفقر ويستقبل بجسده الامطار ، ويتحمل الحر المحرق ، ويكابد ألوان القلق والخوف ، فكل ذلك قسمته ، كل ذلك نصيبه الذى ورثه عن آبائه ، ولا سبيل له الى الخلاص منه بالعمل الشريف ولو استمات فيه . وهكذا تصبح المظالم طبيعية كالمطر والهواء والشمس ، سواء بسواء .

قال بادعدوش ذلك ، وقد أصبح صوته فى آخر كلامه يقرقع قرقعة قاتمة .

واستقبلت أقواله بصمت عام شامل . ولكن ماذا هنالك ؟ ها ... انه معمر الهادى .

قال معمر الهادى مدمدما :

— قد يتراءى لكم أننى سمحت لنفسى بأن أسىء القول فيكم . ولكن ليس هذا ما اردت . لا ، ليس هذا ما اردت . عفوكم ..

قال ذلك دون أن يزيد عليه شيئا ، ومضى . لقد أحسن صنعا . آن له أن يذهب .

***

— انهم على الاقل يعرفون ماذا يريدون ؟

كذلك سأل قره . ثم صمت . هذه عادته : يلقى اســــئلة ، ثم يعتصم بالصبر . لم يجبه المزارعان الآخران .

ان الذين يملكون فى اعلى بنى بوبلان بضعة فدادين من الارض كانوا يتناقشون على هذا النحو . وقد جاء قره على الى جيرانه يحدثهم وفى نفسه نيات معينة .

ـ يقولون ان اجورهم ضئيلة . فلنسلم بهذا . انا شخصيا ، كان يمكننى أن اوافقهم ، وكان يمكننى أن أعترف لهم بذلك لولا ...

وهنا توقف عن الـكلام ، ومد عنقه ، وقرب وجهه من وجهى الرجلين حتى كاد يلامسهما ، وامعن النظر فيهما موسعا حدقتيه . واردف يقول ، وهما ساكنان لايتحركان :

ـ ... لولا ان عدو الله هذا الذى يسمى حميد سراج يجر معه جميع فلاحينا . هذا هو الامر الخطير . لماذا تراهم متفقين جميعا ؟ لو كان كل مايريدونه هو المطالبة بزيادة قليلة فى الاجور لكان يمكن أن يكون ذلك حقا وعدلا ، ولما كان فى ذلك شر كبير . ولكنهم يتجمعون ويعتصبون ، فذلك هو مايجب أن نفكر فيه مليا ، ذلك هو الشىء الهام ، لا كونهم يطالبون بزيادة فرنك او فرنكين . وحميد سراج هو الذى القى فى روعهم فكرة التجمع ، ولولاه مادار فى خلدهم هذا ، ولا خطر لهم على بال . لولاه ما اتحدوا هذا الاتحاد الذى نراه الآن . ولكن ما الذى يؤملونه ؟

قال بن أيوب :

ـ عفوا اذا قاطعتك ، فانما اريد أن أقول كلمة واحدة ، واحدة لا اكثر . اذا كان العمال يطلبون زيادة فى الاجور ، افلا يكون امرا طبيعيا أن يتحدوا .

وقال بو شناق سائلا كذلك :

ـ فأى شر فى هذا ؟

فقال قره :

ـ أى شر ؟ اى شر ؟

حقا أى شر فى هذا ؟ اذا كان فى هذا شر فأين هو الشر ؟ لماذا يعد ذلك شرا ؟ وماذا يعرف ، هو قره ، عن هذا الشر ؟ كيف يعرف ماهو شر وما ليس بشر ؟

ذلك ماجاد فى خاطر الرجلين وهما صامتان .

ـ اى شر ؟ اتسألون : اى شر فى هذا ؟

اذا كان يعرف الضرر من هذا ، فليقله . ولكن اتراه يعرفه ؟

اهو يعرفه ؟ اذا كان يعرفه فليتكلم .

لاشك انه يرى شرا كثيرا حيثما اتجه ببصره . ولكن مابالة يظل صامتا كالاخرس لاينطق ؟ لقد كان يقلب فى رأسه طائفة من الافكار .

وقال اخيرا :

ـ اى شر فى هذا ؟ الشر فيه هو انه قد لاترضى عنه السلطات .

ها ... السلطات ...

وظل الرجلان محتفظين بملامحهما الهادئة .

ان سؤالا يقوم فى ذهن هذين الرجلين . وقد أوشكا أن يطرحاه عليه . ثم اكتشفا فجأة ان هذا السؤال لايطرح على قره ، بل يطرح عليهما . فقررا الا يطرحاه ، كأنهما من ذلك على اتفاق سابق .

وقال كل منهما بينه وبين نفسه :

ها ... اذن هى السلطات ؟

ـ والآن ماعساكما فاعلين اذا اضطررتما الى زيادة أجور عمالكما ؟

ـ نفعل مانقدر عليه لمساعدتهم ، ماهو فى وسعنا ، لا أكثر .

ـ فتزداد مطالبهم في المستقبل شططا ، ويكون الذنب فى ذلك ذنبكما . يكفى أن تزيدا الاجور شعرة واحدة ..

ـ ما تقوله لن يغير رأينا . وللمستوطنين الفرنسيين انما يجب أن يقال هذا الكلام . أما نحن فلسنا نملك لا مئات ولا ألوف الهكتارات من كروم العنب وحقول القمح . المستوطنون هم الذين يمكن أن يهمهم هذا الامر ، بل انه ليهمهم حتما . أما نحن ؟

ـ اذن أنتما مع الفلاحين ؟

ـ لسنا معهم

ـ ولستما ضدهم ؟

ـ ولسنا ضدهم فى الحقيقة .

ـ فكأنكما اذن معهم .

ـ قلنا اننا لسنا معهم ، ولا نحن ضدهم .

قال أحد المزارعين يسأل :

ـ ماهى الاساءة التى نالونا بها ؟

ان بوشناق هو الذى سأل هذا السؤال . كان الدور دوره فى هذه المرة . واضاف :

ـ يعملون عندنا يوما فندفع لهم اجرهم . واذا لم يعملوا لم ندفع . لانهم لايسيئون الينا البتة .

وتابع بن أيوب يقول :

– ولماذا ؟ أليسوا اخوتنا فى حقيقة الامر . من ذا الذى يتمنى الشر لاخيه .. من حفر حفرة لاخيه وقع فيها .

قال قره :

– ولكن ماداموا يتحدون هذا الاتحاد ، فمعنى ذلك أنهم يبيتون امرا . لا أعرف ماذا يبيتون ، ولكننا لانستطيع أن نقول انهم لايبيتون شيئا . انهم يريدون بنا شرا ، هذا كل ما اعرفه . انهم يريدون وقوع مكروه ، وسيقع هذا المكروه أخيرا . ولو كان هذا المكروه واقعا على رءوسهم وحدهم ، لهان الامر ، غير انه سيقع على اناس لاشأن لهم بهم ، سيقع على رءوسنا نحن .

ونظر كل من مزارعى بولان الاعلى الى صاحبه .

فتشجع قره ، وتابع يقول :

– ماذا يريد هؤلاء الافراد ؟ انهم ناقمون .. ناقمون على أحد ، بل ناقمون على الناس جميعا .. نعم ناقمون على الناس جميعا . انهم جميعا جياع .. فهل ندعهم يفعلون مايريدون على ما يشاء لهم هواهم ؟ لو تركناهم ، لاصبحنا فى مأزق لانعرف كيف نخرج منه .

وأحس قره بنشوة الظفر ، فأشرق وجهه ، وتابع يقول :

– نعم ، وليس هناك من سبيل الى حماية انفسنا من هؤلاء الا أن يعتقلوا .. أو أن يعتقل بعضهم على الاقل ، أعنى اصحاب الرءوس الصلبة ، الذين يدفعونهم ، الذين يقودونهم ، اما الباقون فهم قطيع يقاد وليس له رأى . خراف . وانما المجرم الاكبر ، المجرم الرئيسى ، هو حميد سراج . ان حميد سراج هو الذى ألقى فى رءوسهم هذه الامور . انهم أناس سذج أبرياء ، فلاحو بلادنا . لايمكن أن يخطر الشر ببالهم من تلقاء انفسهم . انهم حملان يقودها حميد سراج الى المسلخ . هذه هى النتيجة التى سيصلون اليها .

ومرة أخرى نظر الرجلان أحدهما الى الآخر ، بو شناق وبن أيوب ، فابتسما ، فلاحظهما قره فابتسم هو ايضا ، ثم قال مؤكدا :

– أناس مثله يجب اعتقالهم . حقا .. رجال مثله ، اذا لم يعتقلوا قام جياع المدينة يضعون ايديهم فى ايدى جياع القرى ، فاتحدوا . انى لاقول لكم ان هذا خطر علينا ، خطر كبير ، وما اراكم مدركين فداحة هذا الخطر . فمتى تستيقظون من نومكم ، متى تفيقون من اطمئنانكم ؟ انكم اذا لم تستيقظوا قبل فوات الاوان ، فستكون يقظتكم بعده اليمة موجعة . أنا قره ، اقول لكم هذا .

قال ذلك وحدق اليهم . ثم اردف :

– ثقوا انهم لن يتورعوا عن شيء . لن يتورعوا عن السرقة ، وهذا واضح لايحتاج الى دليل . لقد كانوا دائما لصـــوصا وسيظلون كذلك . تفو .. ولن يتورعوا عن استعمال المطرقة ، واستعمال غير المطرقة مما لا يعلمه الا الله ... لاشك أنهم سيقتلون ، ولا شك انهم سيرتكبون جرائم سياسية .

بهذا صاح قره أخيرا .

وتبادل المزارعان النظرات مرة اخرى .

لاحظ قره من ملامح وجهيهما انهما مستعدان للاستماع اليه . فاستمر يتكلم . أصبح الآن لايستطيع التوقف عن الكلام . اندفع يشرح مايعنيه بقوله : الجرائم السياسية . كان مزارعو بنى بوبلان الاعلى لايعرفون لهذا التعبير اى معنى ، بل كانوا يجهلون وجوده أصلا . ففهموا من قره الآن انه يعنى عدم احترام السلطة ، عدم اعتبارها .

ولاحظ قره تلك الابتسامة نفسها فى وجه الرجلين كليهما .

قال له اخيرا بن ايوب :

– أنت ما الذى يهمك من هذا كله ؟ ماشانك وشأن السلطة حتى تقلق عليها هذا القلق كله ؟

وابتسم الرجلان ، وتبادلا النظرات .

ولاحظ قره فى أعينهما أنهما راضيان ، وانهما من شدة الرضا فى انفعال . فعاد يردد اقواله بغير شراسة ، وفى حلقه غصة وانتحاب انه يتكلم الآن بصوت لا ينفك يزداد تملسا . ثم احتار وارتبك .

كان الرجال الثلاثة واقفين لايتحركون ، عند حافة حقل الطماطم الذى كان بن ايوب يرويه .

ان الماء ، الماء الذى من ذهب ، يسيل بين صفوف أشجار الزيتون بغير خرير . ومن مسافة الى مسافة ، ترى شجرة من أشجار الكرز فارشة أوراقها الخضراء الشاحبة ، أو سافرة عن خشبها الاملس اللماع . وهذه اصوات فى مربعات الحقل تعكر الصمت من حين الى حين . انها اصوات ضفادع تجذبها الرائحة التى تفـوح من الماء الطرى . وكلما تقدم الماء ، ترامت الى الآذان أصوات جافة يابسة لاتدرى اهى طقطقة حطب يشتعل ، أم هى خشخشة عشب تدب عليه هامة من الهوام . انها أصوات الارض الظمأى تشرب الماء فى شراهة . غير انك لاترى الماء نفسه ، الماء الرائق الشفاف ، انك لاترى الا سمطا واسعة من رطوبة سوداء .

ومن عدة جهات ، من أعلى الاراضى المزروعة ، ومن منحدرات السفح ، ومن الحقول الممتدة الى تحت ، كان المزارعون الآخرون من سكان بنى بوبلان يرون هؤلاء الثلاثة وقد اجتمعوا يتحدثون . كانوا يستطيعون ان يراقبوهم من مسافة بعيدة دون ان يتحركوا ودون ان يظهروا . قالوا يحدثون انفسهم : بوشناق ، قره على ، بن أيوب .. غريب انهم يتكلمون منذ ساعة على الاقل . فهل الامر الذى يتكلمون فيه جد . هل يتسع وقتهم للحديث هذه المدة الطويلة . وبن أيوب خاصة ، كيف يتسع وقته للكلام واليوم دوره فى السقاية . الآخران ، طبعا ... عجيب على كل حال . الامر غير مفهوم . وتوقف بابا عن حفر فدان الارض الذى كان يحفره بين الصخور . ان دوره فى السقاية يأتى بعد بن أيوب . قال يحدث نفسه : ليتنى أعرف ماذا يدور هنالك . لأذهبن اليهم .

وترك مكانه ، ومضى الى حيث الثلاثة يتحدثون .

ــ السلام عليكم يارجال . كيف الحال ، ان شاء الله بخير ؟ أهى دردشة ؟

ــ وعليكم السلام ورحمة الله .

هكذا رد الرجال الثلاثة التحية معا وهم ينظرون الى القادم الجديد واقترب منهم بابا .

ثم جاء دور عيسى .

ــ عافاكم الله .

ــ عافاك الله وبارك فى ابيك وامك .

وقال بن أيوب لمن انضم اليهم اخيرا :

ــ أهلا بالجار قدسى . أانت لاتزال على قيد الحياة ؟ اننا لم نرك منذ دهر ...

ــ هى زوبعة الحياة تجرفنا وندور معها .

ووصل ايضا مزارعان آخران . انهما الجاران بلقاسم نجار ومحمد . لقد التأم شمل سكان بنى بوبلان الاعلى جميعا .

مال بن أيوب فى هذه اللحظة على الارض ، وتناول قبضة من تراب احد الاخاديد ، ثم بسط راحة يده يرى الرجال الآخرين هذا التراب الاسمر ، بسطها وطاف بها على أبصارهم بحركة دائرة من يده ، وقال بصوت خافت ولهجة هادئة تفيض بالحزن :

ــ سيأتى وقت يحاسبنا فيه أولادنا حسابا عسيرا . سوف يلعنوننا . اننى لأنظر الى المستقبل فأرى احفادى غاضبين حانقين

يصبون على أجدادهم اللعنات . اننى لاراهم يتقدمون الى ، فماذا يقولون ؟ يارب ياقادر .

وبدا على الرجل الشيخ ان منظرا رهيبا قد تراءى له ، فهد نفسه هدا . عاد يقول بصوت أصم :

ــ اذا تركتم ارضكم ، فان اولادكم ، واحفادكم ، واولاد احفادكم ، الى آخر جيل من أجيال ذرياتكم ، سـوف يحاسبونكم حسـابا عسيرا . اذا تركتم أرضكم فلن تكونوا جديرين بهم ، ولن تكونوا جديرين بهذه البلاد ، ولن تكونوا جديرين بالمستقبل .

قال ذلك امام سائر مزارعى بنى بوبلان الاعلى مجتمعين .

ــ السنا كالاجانب فى بلادنا ؟ والله اننى ، ايها الجيران ، لا اقول الا ما افكر فيه واشعر به . كأننا نحن الاجانب ، وكأن الاجانب هم اهل هذه البلاد . انهم بعد أن ملكوا كل شىء ، يريدون ان يملكونا نحن ايضا دفعة واحدة . وانهم ، وقد أتخموا من ثروات ارضنا ، يرون أن من واجبهم ان يحملوا لنا البغض والكراهية . صحيح انهم يعرفون كيف يزرعون . لست امارى فى هذا . ولكن ذلك لاينفى أن هذه الاراضى اراضينا . لقد انتزعت منا سواء أكنا نفلحها بالمحراث ام كنا لانفلحها البتة . وهم الآن بعد أن استولوا على هذه الاراضى ، اراضينا ، يخنقوننا خنقا . الا تعتقدون اننا كمن ادخل الى سجن وامسك بخناقه ؟ اصبحنا لانسـتطيع أن نتنفس ، أيها الاخوة ، لانستطيع ان نتنفس .

الا ان بن ايوب لرجل . انه رجل حقا . هو الآن شيخ هرم ، ولكن ما من احد هنا يستطيع ان ينكر انه كان طوال حياته رجلا ، وانه لا يزال رجلا . انه رجل شهم شجاع ، صريح اللسان ،صادق القلب ، لايداهن ولا يداجى . انه قاس ، صلب . ان وجهه وجه مقاتل قوى الشكيمة . لا شك أنه كان محاربا . ان شاربيه الطويلين الابيضين يتهدلان على الجانبين تهدل جلد السوط . هـذا مقاتل اصبح فلاحا ، ولكنه اذا دعا الداعى يسترد كل ملامح المحارب ... كل ملامح المحارب الغافى تحت جلده .

لا يزال بن أيوب يعمل كثيرا . انه من أولئك الذين يضوون من فرط مايبذلون من جهد فى العمل . وما من احد يستطيع أن يمنعه من قول مايريد قوله . انه لايستطيع ان يسـكت عن الشر حين يرى شرا .

وانك لتعرفه من بعيد فى اى وقت من الاوقات حين تنظر الى

الحقول ، فترى الحزام العريض الاحمر الذى يتلفف به مزنرا اعلى سرواله ورفارف قفطانه الاشهب الضارب الى زرقة . انه لايكاد يرتاح من العمل الا بضع دقائق من يوم الجمعة عند صلاة الظهر .

ونظر بن أيوب الى جيرانه واحدا بعد آخر . انهم صامتون . ان عينيه لاتشتملان الآن على تلك الضحكة التى كانت تلتمع فيهما منذ قليل شرارات متوهجة .

– الذى لايزال يستطيع أن يتنفس هنا منكم ، فليسمعنى صوته . من منكم يستطيع ان يتنفس ؟

قال ذلك وهو يطوف بنظره مع سؤاله على الحضور . لم ينبس أحد منهم بكلمة . واظلم وجه بن أيوب ، وقال :

– فى كل يوم ينتزعون قطعة من لحم أجسادنا ، فما يبقى فى مكان اللحم المنتزع الا جـرح عميق تنزف منه حيـاتنا . انهم يميتوننا ببطء ، يفصدوننا عرقا عرقا . أيها الجيران ، لأن تموتوا خير من أن تتنازلوا عن أراضيكم ، لأن تموتوا خير من أن تتركوا شبرا من هذه الاراضى . اذا تركتم أرضـكم تركتكم فعشتم أنتم وابنـاؤكم بؤساء الى آخر الحياة .

كذلك قال بن أيوب فى نهاية ذلك النهار . وتفرق المزارعون وفى قلوبهم قلق وجزع .

ولم تفت قره كلمة واحدة من هذا الكلام .

— ٥ —

وفيما كان كل منهم عائدا الى ارضه وحيدا مع نفسه ، كان يقلب في فكره الاقوال التي سمعها من بن ايوب . وتذكروا عندئذ ماسبق أن قاله لهم اخيرا .

« حياتنا هذه ليست حياة . حياتنا التي نعيشها من اقدم أسلافنا ليست الآن حياة . اننا نعيش في ملل وضجر ، فاقدين القدرة على الحياة . آباؤنا وأجدادنا وآباء اجدادنا كانت عليهم جميعا واجبات . كانت الحياة عندهم لاتخلو يوما من الواجبات . يدفعني الى قول هذا الكلام ماتعرفه عنهم ، وما ترامى الينا من اخبار زمانهم ، وماكانوا يرونه من راى في الحياة . وشعورهم بتلك الواجبات هو الذي جعل منهم رجالا . اما نحن فاننا لم نجد خيرا من التحلل من واجباتنا : نأكل كالبهائم ، ولا نفكر في شيء البتة . لم يبق ثمة واجبات . نحن اناس اصبحوا بغير اعباء ينهضون بها . فالحياة تبدو لنا عقيما غير ذات جدوى وأعمالنا تبدو لنا عقيما غير ذات جدوى . نحن انفسنا نسير على هذه الارض بغير جدوى . أصبحنا لانجد في الاعمال التي نقوم بها أى فرح . اصبحت اعمالنا قديمة بالية . واصبحنا لانجد في صداقاتنا أى فرح كذلك . لا ولا فرح فيما يتبادله بعضنا مع بعض من كلام ، ولا في رؤية أولادنا يكبرون ، ولا في النظر الى الارض التي نملكها وهي تثمر وتعطي خيراتها . ذلك كله دليل على أننا في حاجة الى اعباء جديدة . اننا لانعيش ولا نعمل الا بحكم الضرورة ، من أجل ألا تنطفيء الشعلة ، منتظرين أن تقبل أيام أفضل من هذه الايام . أما الفرح ، فلا . . وستعود الينا الحياة بفرحها متى اكتشفنا أعمالا جديدة نقوم بها » .

هل الجار بن ايوب على صواب ؟ هل هو على خطأ ؟

ستبدى الايام لنا ذلك .

هذا ماكان مزارعو بني بوبلان يقلبونه في اذهانهم في ذلك المساء الهادىء .

وانقضت بضـــعة أيام . وفرغ صبر عيسى وبوشناق ومحمـد ونجار ، فمضوا مجتمعين الى بن ايوب .

قالوا له :
ــ اذكر لنا ولو عملا واحــدا من الاعمال الجــديدة التى طالما حدثتنا عنها .
ــ خذوا هذا المثــال . ان معظم فلاحينا يحــرثون الارض عمق ابهام . وينبغى لهم الآن ان يحرثوها عمق ذراع .
قال بن ايوب ذلك ، وحدق الى الرجال الاربعة .
ــ هل تفهموننى الآن ؟
ــ طيب طيب ، وغير ذلك ؟
ــ هذا كل شيء . .
فصاح محمد :
ــ آ . . . نعم
وقال بوشناق :
ــ ماتقوله يدور فى ذهنى .
ــ أما أنا فاقوله لجميع الناس ، لجميع الناس .
ــ هو اذن كذلك . . يجب أن ناخذ جميعــا فى حــرث الارض عمق ذراع .
ــ نعم : نحفر أخاديد عمقها ذراع .
وعاد بوشناق يقول :
ــ ذلك عمل يحتاج الى رجال جدد .
ووافقه نجار بقوله :
ــ لن يفهم هذا الا رجال جدد والحق يقال . .
وقال عيسى سائلا ، بعد أن لم ينطق بحرف :
ــ هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟ قل لى : هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟
فأسرع بن أيوب يقول :
ــ قد يكونون عندنا ، وقد لايكونون . أنظرت حقا فيما حولك لترى أليس عندنا هؤلاء الرجال ؟
ــ نظرت حولى ؟
ــ يجب أن ننظر الى أنفسنا ، وان ننظر حولنا . فلاشك أننا واجدون رجالا سيدهشون العالم ، وسيدهشوننا .
قال بن أيوب ذلك ، وفكر لحظة ثم أردف :
ــ من أجل هذا قلت : ينبغى لنا بعد الآن ان نحفر أخاديد عمقها ذراع .

وعندئذ أخذ بوشناق يقول :

ـ حياتنا تفتننى يوما بعد يوم بأحداث شتى غير مألوفة . اننا نشهد عصرا جديدا . ولعلنا لانشهد هذه الاحداث فحسب ، بل نسهم كذلك اسهاما كبيرا فى صنعها . نحن .. والعالم اخيرا . النتيجة واحدة على كل حال .

قال محمد معلقا :

ـ انسان هذه الايام يفكر أكثر مما يحسن التعبير . الانسان الجزائرى يفكر الان كثيرا . أرجو ألا يخرج من هذا الاخير .

فأجاب بن أيوب :

ـ لن يخرج منه الا خير ، أيها الجار محمد . لن يخرج منه الا خيرا . صدقنى .

فقال محمد مؤكدا :

ـ أخذت الروح العظيمة تهتز فى ارضنا .

- ٦ -

ـ ليس فى الدنيا بلد كبلدنا .

قال يا دعدوش ذلك وجسـمه يهتز من أمام الى وراء . ولم يجب الفلاح الشاب عن كلامه بشىء .

ـ اذهب حيث شئت ، فاذا وجدت بلدا كبلدنا قل لى أى بلد هو .

لا ، لا اظن أنك واجد بلدا كهذا البلد . .

كان فى الاراضى العليا . حجارة عارية . حجارة وريح . وذلك الظهر الاصيل من شهر آب ما ينفك يزداد حدة على الجنبات البيض من الشاطىء الصخرى .

وراح هاشمى يشتم ويجدف غضبا .

ثم انطفأ الصوت الابح فى حلقه .

ذلك كل شىء .

كان الشيخ الهرم جالسا على صخرة كبيرة ككيس من القمح ،مائلا بجذعه الى الامام . وكان هاشمى ينظر اليه : انه طويل ، محترق .

ـ نعم ليس فى الدنيا بلد يشبه بلدنا .

فصاح الفلاح الشاب فجأة :

ـ يا دعدوش !

كان الفلاح الشاب يبدو مهتاجا أشد الاهتياج .

ـ أود لو أوافقك على رأيك ! لم لا ؟ هل زرت بلادا أخرى !

ـ لاقول ليس فى الدنيا بلد يشبه بلدنا ؟ لا ، لم اذهب الى أى بلد آخر ، ولكننى اعلم علم اليقين أنه ليس فى الدنيا بلد كهذا البلد.

كان الرجلان قد استندا بظهريهما الى صخرة من الصخور .هى صخرة بيضاء من جانب ، سوداء من جانب آخر ، تطل على الطريق. ان الفلاح العجوز والفلاح الشاب محتميان بجانبها الاسود . الريح تهب على جبال أخرى قائمة عند الافق . والرجلان يتفرسـان فى الصخر وفى القرية المنكوبة تحت ، وفى السهل العالى المتكاس فوق.

ابتسم هاشمى .

كان وجهه لايزال يحتفظ بما يعبر عنه من جد كجد الاطفال .

قال الشيخ :

ـ الذين زاروا جميع البلاد حدثوني : ليس في الدنيا بلد كبلدنا.

بانت أسنان الفتى ، الصغيرة المصفوفة . وهطلت اشعة الشمس كأنها الكلس الحي . ووضع الحر الشديد في الافواه مذاق هواء ساخن ممتزج بحجارة .

وعاد با دعدوش يقول :

ـ لا ، لا ، ليس في الدنيا بلد واحد مثل بلدنا .

كانا يستنشقان رائحة السعتر التي تحملها الريح ، ويستنشقان خاصة تلك الرائحة التي تخرج من الحجارة .

ـ اذن كذلك ، يابا دعدوش ؟

طرح الفتى هذا السؤال على الشيخ .

هاشمي أسمر ، ولكنه ليس اشد سمرة من بادعدوش . بادعدوش اشد سمرة منه . با دعدوش يشبه أن يكون أسود . وجه الفلاح الشاب يكاد يبدو الى جانب وجهه أبيض . وهو كذلك أقرب الى الوداعة والرقة .

ـ هل ذهبت الى بلاد أخرى يابا دعدوش ؟

ـ لا ، ولكنني طوفت في أرجاء بلادنا طولا وعرضا ، في جميع الاتجاهات عظيمة بلادنا . رايت انواعا من الناس ، رايت جميع أنواع الناس ، رجالا ونساء . رايت فيها أشياء كثيرة ، بلادنا لاتقاس بها بلاد أخرى .

ـ ولكنك عدت الى بني بوبلان .

ـ أجاب العجوز :

ـ لم لا ؟

ـ لا استغرب أن تعود ، فهنا ولدت وهنا نشأت وترعرعت .

قال هاشمي ذلك وهو يشير بيده الى السهل الممتد أمامهما .

ـ لم لا ؟

ـ وهأنت ذا الآن عجوز ، تعود الى أرض آبائك واجدادك ، ولا تنوي أن تتركها .

ـ علام أتركها أيها الشاب ؟

ـ آثرت اذن أرض ابائك وأجدادك على سائر البلاد ؟

ـ لم لا ؟

ـ أنت اذن تؤثر مكانا على آخر ؟

ـ لم لا ؟ هي بلادي أينما ذهبت

هز هاشمي كتفيه ولزم الصمت .

كانت مدرة كبيرة من التراب الاحمر متكومة عند قدميه ، وكان هو يتربع على حدبة الصخرة القائمة عند هذا المستوى نفسه . فمال الى أمام ، وشد بيده الكبيرة السمراء كثة من العشب النابت في الارض ، وهش بها على العنيزة الحمراء ، فظلت العنيزة متمددة على الارض لم تتحرك . ثم راح يداعبها فمد الشكة الى منخريها المبتلين ، ففتحت شفتيها ومدتهما الى أمام وقبضت بهما على العشب. ثم اغمضت عينيها ، وظلت تمضغ لقمتها فيما يشبه النوم مدة طويلة ان حر هذا الظهر جاف جفاف الحجارة .

رفع هاشمي رأسه ، ولاحظ با دعدوش . ثم قال :

— قد لا يكون في الدنيا بلد كبلدنا .. ولكنك لاتستطيع أن تدعى أن المرء يجد في هذا البلد عملا .

كان سطوع النهار يدخل راسى الرجلين كانه اجزاء حجارة . وكانت نظراتهما تثبت في عناد على انصهار السمط الشهباء في السهل ، في عبوس وكآبة .

انعكاس ضوء المساحات الشاسعة يغسل النهار . البياض يطالعك حيثما توجهت ببصرك . الشمس نفسها تفنىء وتنتشر في الفضاء .

وارتعش شيء ما في وجه با دعدوش العجوز .

اختلج وجهه اختلاجات صماء .

وبحث الفتى عن عشب لعنيزته . مال مرة اخرى الى الامام ، حتى اوشك أن يركع .. وانتصب با دعدوش بجذعه الطويل ..

قال هاشمي :

— في هذه البلاد التي لا نظير لها لا تجد من تعمل عنده .

فبب الرجل العجوز صدره .

— وانت رجل عجوز وليس لك احد يعينك .

وجمد بادعدوش ، المنتصب الجذع ، على هذا الوضع : يداه موضوعتان على الركبتين ، وجسمه الطويل ضاو ، محروق بالشمس ، حزين ، وقميصه ملتصق بصدره من هبوب الريح .

وكان اناس سود يمرون على الطريق في ذلك الوقت من العصر .

قال با دعدوش بصوت متوجع :

— هاشمي .

نداء لا يعرف له سبب . ونظر الشاب الى بادعدوش . ان نوعا من الانين قد خرج من صدر الشيخ . وانه ليكاد يكون قائما من شدة انتصاب جذعه . ويداه قلقتان كأنهما تحاولان أن تتشبثا بالريح

ـ انا لا اجد عملا . ربما . انا عجوز ، وليس لي احد يعينني . جائز . ولكنني أعتقد أنه ليس في الدنيا بلد مثل بلدنا .

كان الشيخ يتكلم بحزن شديد .

ـ ستجيء ايام سود .. ولكن ستجيء أيضا أيام بيض .

كان في هذه اللحظة رقيقا عذبا ، بينما هو يبتلع الريح في حزن. وكان ينعطف شيئا بعد شيء . وقد أطلق هذه الكلمات الاخيرة في الهواء بلهجة حادة .

قال الفلاح الشاب :

ـ ستجيء ايضا أيام سود .

ونظر الى با دعدوش الشيخ ، وقد لاح وجهه في الظل أسود تماما . كان الشيخ العجوز ينظر الى بعيد يلاحظ هذا البلد .

ثم قال مسلما ، بلهجة تشبه أن تكون عاطفية :

ـ نعم هكذا نعيش في بلادنا يا بني !

ـ فسأله الشاب :

ـ ماذا تقول ؟ كيف نعيش في بلادنا ؟

ـ لا نفتني فيها .

ـ ولكن ليس هذا هو الموضوع . ان في وسع المرء ان يعيش دون ان يفتني ، وربما كان ذلك أفضل . وانما المهم أن نعمل ، انما المهم ان نجد عملا ..

فحول بادعدوش راسه ، وقال :

ـ يجبأن أذهب يابني . انهمينتظرونني تحت . هم فيحاجةالي.

اخذت الحجارة تهتز تحت اقدامهما بقرقعة تترجع على طول المنحدرالوعر . انهاشمي وبا دعدوش يثبان من صخرة الىصخرة. كانت الشمس تصلب الجبل كقرص من فطير .

صاح العجوز وهو يغالب بصوته الريح :

ـ ها هاى .. ليس يهمني أن أكون عاطلا عن العمل ! ..

ثم أصبحت المناقشة مستحيلة . ان الريح ترد الكلمات الى الافواه . ولولا ذلك لاضاف با دعدوش الى جوابه قوله : اذا كان لا يعمل الان كثيرا فانه يعرف اناسا لم يعملوا طوال حياتهمتقريبا .. لانهم لم يستطيعوا أن يجدوا عملا .. وان حياة الناس تنقضي على هذا النحو .. وان الامر هو كذلك في البلاد كلها .. ولكن با دعدوش أصبح لا يستطيع الكلام بسبب الريح . ومهما يكنمن أمر فان الذين كان يريد أن يتكلم عنهم خاصة ، ليسوا أولئك الذين

لم يعملوا مرة واحدة .

ذلك أنه ، هو با دعدوش ، قد حمل المعول طوال حياته . وهاهو ذا الان شيخ هرم . صحيح أنه لم يشارف على نهايته . ولكنه كان يحس أنه قد بلغ من الشيخوخة حدا بعيدا . لم يعد صالحا للعمل كما كان فى ماضي ايامه . وأصحاب المزارع يعرفون ذلك .

وهتف يقول :

ـ ليست البطالة شر ما فى الامر ، ليست البطالة .. أنا لم أكن عاطلا عن العمل دائما . ولئن طفت الجزائر من أقصاها الى أقصاها، فما ذلك الا حرصا منى على أن لا يقال ..

وانقطعت انفاسه فتوقف عن الكلام . كان لا بد له من أن يبلغ ما هم ان يقوله .

فلما استطاع أن يعود الى الكلام قال :

ـ ان الكروم والمزارع تتطلب عملا مرهقا .. ذلك شر مافى الامر حين نعمل .

قال ذلك وهو يشير الى البلد بحركة من يده . ثم أردف :

ـ هل بسبب البطالة دب الى الهرم أنا الماثل الآن امامـــك ؟ واصبحت بلا معين يعيننى ؟ ولا شيء أدخره للايام التى بقيت لى من عمرى ؟

ـ طبعا لا .

ـ انك لترى أننى أجهدت نفسى فى العمل طوال حياتى ، ثم هأنذا الآن شيخ هرم .

لعله أراد أن يقول : لقد دب اليه الهرم بعد أن ظل يعمل طوال حياته ، وها هو ذا لا يملك قرشا واحدا .

وصاح يقول أيضا :

ـ كذلك جميع الذين يعملون ؟ جميع أولئك ..

ونظر الى الكروم والمزارع الكبرى المنبسطة تحت .

ـ هل تعرف باهاشمى .

ـ ماذا يا با دعدوش؟

ـ ان المستوطنين الفرنسيين أشقياء ..

هـــل ..

وهبت ريح شديدة فذهبت بالسؤال .

قال الفلاح العجوز :

ـ لقد عملت طوال حياتى كما يعمل عبد من العبيد .. أجهدت

نفسي في العمل بأراضيهم كما لم يجهد نفسه احد . ولم اخف منهم.
- انت على حق ، على حق تماما .
- بل لقد كنت لا اعبأ بهم البتة ، هل تعلم ذلك ؟ وانما الذى يخنقني انهم يستولون على كل شيء ..
فقال هاشمي :
- صحيح . انهم يستولون على كل شيء ..
- كانت لي أرضي. هي قطعة صغيرة من الارض. انت لاتتذكرها طبعا
- لا اتذكرها ، ولكن لابد انها كانت قطعة صغيرة جدا من الارض..
- ولكنها كانت أرضي أنا ، وكانت لي بهائمي ، وكان لي بذاري .. وكانت لي بقرة صغيرة من أبقار هذه البلاد ..
- صحيح ؟ كان لك بقرة ؟
- كان لي بيت صغير أيضا . وكنت أعيش حياة سعيدة مع زوجتي وابنتي الصغيرة ريم .. انك لاتتذكر هذه الاشياء .. فلم تكن قد ولدت بعد .
- أنا اعرفك منذ ازمان .. لعلني كنت في تلك الايام صبيا صغيرا ولكني اتذكر ابنتك الصغيرة . كانت لطيفة .
- ثم اخذ مني الفرنسيون كل شيء .
- آه من هؤلاء الفرنسيين .
وتوقف الفلاحان واخذا ينظران الى الافق . انهما الان يفكران في شيء آخر .
استدار الشاب حتى قابل بوجهه الشمس ، فظهرت البقع السوداء التي تحت عينيه . كانت الملاريا تنهشه نهشا . ان نظرته متقدة محمومة . وبدا وجهه الذي اخذت تنبت عليه لحية جعداء ، بدا أصفر ضاربا الى خضرة بلون الزيتون .
- كنت شابا قويا مثلك ياهاشمي . ولقد عملت كثيرا كما يعمل عبد من العبيد .
- طبعا يا با دعدوش .
- هم الذين يدخرون مالا .
- طبعا ..
- وما ينفكون يتضخمون حتى ليتساءل المرء أين تراهم يتوقفون عن هذا التضخم .
- هؤلاء الاشقياء ..
- انهم يسممون حياة الذين يعملون من اجلهم .

ـ انهم لاشقياء حقا يا بادعدوش .
ـ وبينهم من هم أصدقاء لنا !
ـ أصحيح ؟
ـ بينهم من يقولون انهم اصدقؤنا الوحيدون .
ـ أصحيح أن بينهم من يقولون هذا الكلام ؟
ـ انهم لأشقياء حقا .
ـ صحيح . وهم يجمعون جبالا من المال .
ـ هو ماقلت .
ـ هل صحيح أنهم رموك كما ترمى الكلاب ؟
ـ ذلك مافعلوه . كنا لانريد ان نذهب ، فطردونا بالقوة . نعم رمونا رميا .
ـ آه .
ـ هذا ماحدث .
ـ يا لهؤلاء المستوطنين الفرنسيين !
ـ نعم .
ـ يفعلون مايريدون .
ـ ستجيء أيضا أيام سود .
ـ أصبحت شيخا هرما ، فقالوا انك أصبحت لاتنفع فى شىء ، وما من داع الى اعالة احد ، اليس كذلك ؟
ـ هو كذلك .
ـ اما انا . فما زلت شابا ، وما زلت أصلح لشىء ، أليس كذلك يا بادعدوش ؟
ـ انت شاب ، وتصلح ...
ـ ولكن المستعمرين أناس ..
ـ نعم . والفلاحون اناس سعداء .. فيجب عليهم أن يساعدوا هؤلاء المستعمرين الاشقياء .

ونظر الرجلان احدهما الى الاخر متغامزين . وفى الطريق كان بعض الناس يتجمعون ، فما لبثوا ان صاروا اشبه ببقعة سوداء فى الضياء الساطع .

قال الشيخ :

ـ أسرع يابنى .

واستمرا بهبطان .

ـ ولكن المال .. يا بادعدوش .. لعن الله المال .. لعن الله المال

الى آخر الدهر . ان المال يجعل القلب قاسيا حتى لكأنه قطعة من عظم

– آه .. المال .

– طبعا .

– وهؤلاء أصدقاء قدماء . أخذوا ارضى ، وبيتى . اخذوا كل شىء . اننا نتكلم فى أشيـاء لا نفهمها . المال يجعل الناس أشقياء .

– هيه .

– أشقياء كثيرا .

وصمت الشيخ . لكأنه كان يفكر ايضا فى شىء آخر . يمينا انه كان يفكر فى شىء آخر . فى هذه اللحظة ايضا ، كان يفكر فى شىء آخر وتنهد اخيرا يقول :

– يالهم من تعساء .. حين لايبقى هنالك مستعمرون ، فسيكونون حقا تعساء .

وكان الشيخ بادعدوش يبدو جائعا جوعا قويا ، الى شـعوره بالحر الشديد . لحيته أشبه بكشة من الشوك . ومن عنقه المغضن يتهدل قميص وسخ ذو قب مقور .

كان هاشمى قد جعل ظهره للريح ، واستند بيده الى عصا غرزها فى الارض ، وثنى ظهره ، فهو ينظر الى الماعز الذى يتشمم الحجارة فوق ، وينظر الى العجوز وهو يتكلم . انه ، وقد التفت نحو الظل، يبدو أسمر الوجه . وكان يبتسم وهو يصغى . وكان الشيخ العجوز يتكلم دون ابتسام .

وفى الطريق ، تحت ، لم تكن جماعة الرجال السود قد تحركت من مكانها .

قال بادعدوش للشاب :

– وداعا .

ومضى الى اولئك الرجال الذين اصطفوا فى ظل الاشجار .

فشيعه هاشمى بقوله :

– صحبتك السلامة .

وعاد الفلاح الشاب يصعد فى ذلك الطريق نفسه الى الجبل الذى تفرق فيه ماعزه . النهار الان فى أشد ساعاته سطوعا وتوهجا .

***

الشيخ بادعدوش يسير فى الطريق وحيدا وهو يقفز ويتواثب . ان حركته الخفيفة لاتنبىء عن تقدم هذا الرجل الطيب فى السن . لكأنه واحد من أولئك الرعاة الشبان الذين يضربون فى أرض هذه البلاد

اقترب يا دعدوش من الرجال وكأنه وثب اليهم وثبة واحدة .
ها هو ذا الآن امامهم . ذلك هو بادعدوش حقا . آ .. يا دعدوش ياله من رجل ! كان أهل البلد اذا رأوه صاحوا : آ .. جاء الماكر .
والحق أن المرء حين يراه أول مرة لايسعه الا أن يقدر انه كذلك .
ان له أنفا دقيقا . والحق انه ما من شاردة ولا واردة مما يجرى فى الحقول ، تغفل عنها عيناه اللتان تشبهان عينى قط . ووقف يا دعدوش أمام جمع الفلاحين متلففا بقميصه الواسع الاكمام وسرواليه العريضين المتقمين المصنوعين من نسيج الكتان .
ــ ما كنتم تتوقعون أن تروني . ولكن هانذا امامكم مع ذلك !
ــ آ ... يا دعدوش ؟ كيف الحال . أهلا وسهلا . تعال ، اقترب، اذا لم تكن خائفا منا .
هكذا صاح به على بن رباح . فاضحكت هذه المزحة البريئة جميع الرجال . واردف على بن رباح يقول :
ــ فى امكانك أن تقترب من اخوتك . انت ايضا انما ولدتك الارض انت فلاح ، بل ان فى وسعى أن اقول انك فلاح اكثر منا جميعا .
وما من فلاح يخشى الاتصال بأهله .
جثا بادعدوش فوق الارض الجافة بعيدا عنهم بعض البعد ، وهو يلتفت الى جانب ، ويحدج الجمع بطرف عينيه ، ويغرز فى التراب أصابع قدميه التى يرتكز عليها جسمه .
ما اشد مايظهر فى هذا الوجه الازغب من حيوية يضاف اليها تعبير عن رهافة آسيوية .
كان بادعدوش جالسا جلسة من هو فى صحبة سادة من سكان المدن
اكان يريد اذن أن يظل بعيدا عنهم ؟ انهم لم يسيئوا استقباله ولا آذوه بكلام . فما الذى به اذن ؟
يجب على المرء ان يحترس من روح السخر اللاذعة التى يتصف بها هذا الشيخ العجوز . اتراه يعد الآن مزحة من مزحاته تلك التى تشبه الشوك ؟ كذلك هو العم بادعدوش : حينما ترتسم فى وجهه علائم الجد ، يجب الاحتراس منه .
وظل بادعدوش بعيدا عنهم على وضع من الامتثال والاذعان .
والآخرون يشعرون بالخجل ، ولكنهم مع ذلك يضحكون .
لماذا يظل ساكنا لايتحرك ولا ينبس بكلمة ؟ ماذا هنالك ؟ ما الذى جرى ؟
لعله لم يكن يقصد أى خبث . ان كل مايبدو من هيئته انه يريد

القول لهم ان من الخطل ، ومن اكبر الخطل ، ان يظنوا انه لم يعد يصلح لشيء . قال :

– انا الرجل الوحيد الذى يعرف كل شيء فى هذا البلد : البهائم والحجارة والرجال . اناق هذا البلد اول الناس طرا .

فقال بن سالم عادة معترفا :

– ما فى ذلك شك .

آ .. ان الشيخوخة تفهم امورا كثيرة . وان شق عليها فى بعض الاحيان ان تعزم أمرها . ثم انه ليس بالشيخ الهرم .. أمثله بعد شيخا هرما ؟

– اقترب اذن ! ما بقاؤك هنالك وحدك ؟

فابتسم بادعدوش وقال :

– لا داعى الى هذا . تخطئون اذا نسيتمونا نسيانا تاما لاننـا أصبحنا شيوخا .. اظن أننا لانزال قادرين على أن نفعل شيئا ما . بل اننى لعلى يقين من ذلك . ما زلنا قادرين على فعل أشياء كثيرة . سيثبت لكم صدق ما اقول فى يوم من الايام .

قال با دعدوش هذه العبارة الاخيرة مدمدما . كان لا يريد ان يلح، ولم تزحزحه توسلات الفلاحين عن مكانه .

وتابع يقول :

– نعم ، لقد جئت لاننى شعرت أن من واجبى أن اكون بين رجال تعيش قلوبهم وتتالم . نعم جئت لاننى اعتقدت أن من واجبى......

ذلك ما كان يريد أن يقوله لهؤلاء الرجال . وأضاف أنه امرؤ له عزته وله كبرياؤه .. وانه لايحتمل ولن يحتمل ... وان شخصا مثل با دعدوش لا يجوز تجاهله . وانه جاء لأن هذا واجب ... متى شاخ الرجل ، لم لا يهتم به احد ؟

– حقا انه لمن الخطأ اننا لم نبلغك . ولكن لن يعقد اليوم اجتماع .

مسكين بادعدوش . لم يكن الفلاحون فى ذلك اليـــوم عاقدين اجتماعا . كل ما فى الامر انهم قرروا أن يلتقوا ليتفقوا على موعـد لاجتماع ضخم .

كان بادعدوش ، كسائر الرجال هنا ، يكابد تلك النار التى تسكن الصدور . كانت الرغبة فى القيام بعمل ما تثوى فى اعماق خواطره، وتوجه جميع أعماله على غير شعور منه . ما قيمة ان نحيا اذا كانت الحياة لا تنفع فى شيء ؟ ان فى كل صدر كلمة احتجاج ، كلمـــة واحدة ، حية قوية .

- ٧ -

كانوا قد التقوا منذ قليل ، يتحدثون ويتناقشون ، حين وفد عليهم قره . ما من احد هنا لا يعرف قره على .

اتجه قره على الى بن سالم عاده ، فساله :

ـ هل تعرف من هو حميد سراج ؟

فود الفلاحون جميعا ان يجيبوه بقولهم :

ـ فيم هذا السؤال ؟

لقد قذف قره على بسؤاله كما يقذف بحجر ، دون ان يعبأ بما كانوا يقولونه ، ودون أن يعنيه هل كان هؤلاء الرجال يتناقشون في أمور تهمهم .

لم يتحرج اى تحرج ، وطرح سؤاله ذاك كأنما هو حق من حقوقه. كان فكره يردد على مسامعه أن هذا حق من حقوقه ، وأن على الفلاحين أن يجيبوا عن السؤال .

وعندئذ وقع مالم يكن في الحسبان . ان على بن رباح تولى الجواب عن بن سالم عاده فقال :

ـ ليس عندنا يا سي قره اى جواب عن سؤالك !

قال ذلك بلهجة هى عند من لا يرى فيها شيئا من مكر ، لهجة امتثال واذعان .

ولكن المجنون الذي علق برقبته جرس ، المجنون الذي في راس قره على ، اهتاج اهتياجا شديدا ، فخاطب عليا بينه وبين نفسه بقوله أترد علي بلهجة باردة خشنة أيها الوقح ؟ لا يزال بين أسنانك لبن امك ، وقال يخاطبه ايضا بينه وبين نفسه : « لا أعرف من هي الأنثى التي ولدتك ، لكنني أعرف اباك : هو شخص حقير . وانا اعرف اذن ان امك قاذورة من القاذورات . واخت ابيك واخت امك هما أيضا من القاذورات . صنف دنىء ، كلكم » .

ان قره يريد أن يوقفهم عند حدهم . هؤلاء الفلاحون ، اذا انت تنازلت لهم عن شبر ، اخذوا عشرة . ولكن حذار ، ان قره ليس ممن يمكن التمادي عليهم . صحيح انه قروى ، ولكنه ليس قروى الاصل والمنبت ، وانما جاء الى القرية من المدينة كسائر مزارعى بنى بوبلان

الاعلى ، « فى حين ان هؤلاء العرب الجبليين أصلهم من الصحراء أو من الشياطين . انهم يستنجون بالحجارة بدلا من الاستنجاء بالمـاء كما يليق بالمسلمين الاشراف » .

بهذه كان قره على يحدث نفسه .

والحق أن هؤلاء الرجال الذين يراهم أمامه ، لهم كل ما للارض التى انبتتهم من مظهر ولون وحتى رائحة . انهم من قمة رءوسهم ذات العمائم الى اخمص اقدامهم التى تنتعل البوابيج ، ليس فيهم شىء صاف رائق الا هذه الاعين التى مثلها كمثل الينابيع ، لا اعمار لها .

ولم يحرصوا على الاسراع فى اغضابه ، لان الحـديث الذى كان يدور بينهم يهمهم أمره .

قال على بن رباح مرة أخرى بصوت عال واضح مفهوم :

ـ لسنا مضطرين الى الاجابة عن سؤالك ياسى قره .

فأجابه :

ـ اذن انت تعلم شيئا .

ثم تنهد قره على ، رجل بنى بوبلان الاعلى ، واردف يقول :

ـ نعم ، لابد انك تعرف شيئا . انه يجىء الى هذا المكان فى كثير من الاحيان .

ولم يبادله الكلام أحد .

ـ أنت ، بل انتم جميعا ، تحومون حوله كالذباب حين يجىء . لقد رأوكم . انتم جميعا . وفى بيوتكم أيضا .

فقال على بن رباح :

ـ هبنا نعرف ، فما انت من نقول له .

ان فى هذه المناقشة التى بدأت بدءا سيئا ، شيئا غريبـا مثيرا لا يفسر .

ـ أانت يا ابن رباح ، تواجهنى بهذه الوقاحة ؟

لقد دهش قره أشد الدهشة من أن صبيا ـ صبيا فيما يرى ـ يقول له هذا الكلام ، والصبى فوق ذلك من الفلاحين ..

ـ انت . لا تعرف من هو حميد سراج .. ثم تتكلم كأنك رجل من الرجال .

قال على بن رباح :

ـ أنا ابن رباح . ولست أريد طبعا أن أخل بواجب احترامك .

ثم اضاف :

ـ ولكن اذا علمنا شيئا ، فما أنت بالذى نسعى اليه من أجل ...

وسلم قره على مرة أخرى بأن الفلاحين ليســوا الا حميرا . قال لنفسه « بل انه ليس من المؤكد ان لهم أرواحا » .

كان الفلاحون يصغون الى هذه المناقشة محملقين . وهذا واحـد منهم يضغط منخريه بين ابهامه وسبابته ، وينفخ نفخا قويا عـــدة مرات ، فيخرج من أنفه صوت كأنه صوت بوق ، ثم يهز أصابعه ويمسحها بزغب جلبابه .

ماهكذا يعامل قره على . ان على بن رباح يعرف ذلك ، والاخرون يعرفونه أيضا . انهم جميعا يعرفون ذلك حق المعرفة . انهم لا يريدون ولا يستطيعون ان يهينوه عامدين . وكان هو يستفيد من هـذا ليفرض نفسه .

ـ ان شاربه .. ان وجهه هو الذى .. كيف أقول ؟ هو الـــذى كان يحمل الفلاحين ، بما فيه من وقار كوقار قاض من القضـــــاة ، على أن يحترموه بغريزتهم .

كان على بن رباح يود من صميم قلبه لو يكلمه بلطف ومودة ، لولا ما كان يضمره قره من نية الشر . ما من أحد هنا الا ادرك المعـركة التى تنشب على حدود هذا الصمت . لقد أحس الفلاحون بتهـديد يسلط على رءوسهم . وكان فى ذلك من قوة المفاجأة والعنف أن كلا منهم أسرع فى القاء نظرة قلقة على وجه صاحبه وكأنما هو يقول له :

« انظر أمامك .. هذا هو ابليس » . وراحوا يرددون بينهم وبين أنفسهم : « ليتك تموت ايها الرجل الخبيث . ليتك تسقط فى قدر تغلى . ليتك تقع فى مرحاض ، ايها الكافر . ليت شاربيك يحترقان فى جهنم شعرة شعرة » .

وظل الجمع هادئا مع ذلك . واحتقن قلب قره غيظا . انهم جميعا صامتون . وقلب قره يفور ويغلى حنقا .

وظهرت لابصارهم فى تلك اللحظة عربة كبيرة . لم يجب قره بكلمة واحدة . وهاهو ذا يمضى بخطا واسعة .

لم يفهم الفلاحون شيئا من هذه المناقشة . كان يبدو لهم أن جميع الناس ، وقره أيضا ، يعرفون حميد سراج .

فلما تركهم تذكروا أنه لم يلق عليهم السلام حين وصل . وكذلك حين ذهب . اللهم انهم لا يحرصون على أن يظهر احترامه لهم ، معاذ الله . ارض الله واسعة .

ولكن هؤلاء الرجال جميعا كانوا فى اشد الظمأ الى الحب الاخوى.

وما ان ذهب قره حتى عادت اليهم شجاعتهم ، وحتى اتخذت الحياة مرة أخرى معنى واضحا في انظارهم . ان الخبز ، حتى يكون نيئا او محروقا ، يبدو لامثال هؤلاء الظماى طيبا لذيذا .

ولكن من اى خبز هو هذا الرجل ، قره ؟

وغاب قره وراء منعطف من الارض . وابطأ سيره . ان اضواء ساطعة تتموج في الطريق . ورأى قره اقتراب العربة الضخمة الهائلة الطويلة المبنية على عجلات كبيرة ، مع حمولتها من الزبل . انها تبدو عالية علو ثلاثة بيوت يركب بعضها فوق بعض . وعلى القمة كان خادمان من خدم المزارع واقفين وفي يد كل منهما مجرفة . فلما مرا بالفلاحين القيا عليهم السلام في فرح ظاهر . كانت العربة تنشر رائحة حارة .

قال أحد العاملين الزراعيين صائحا :

ــ انتم يا اولاد امكم . فيم تضيعون اوقاتكم هنا ؟ ليخرب الله بيت اجدادكم .

سمع قره هذا الكلام وهو يمشي في الطريق الضيق المؤدي الى بني بوبلان الاعلى . كانت العربة تسير وسط ضوضاء كأنها ضوضاء طاحون . وعرف قره هذين الرجلين المتسنمين ذروة الزبل .

حدث قره نفسه قائلا : « شعب عظيم . ما أعظم رجال هذه البلاد الذين لا يجيدون الا الشتائم ! » .

وانطلقت ضحكات من الجهتين ، من قمة العربة ، ومن الجمع الواقف في الطريق .

قال العاملان يمزحان :

ــ هل تنتظرون أن يزهر الملح .

انهما شابان فارعا القامة ، قويا الجسم ، يرتديان لباسا واحدا هو سروال منتفخ يصل الى المابض ، وقميص على الصدر متسخ بالتراب ، وقبعتان صغيرتان فوق الراس .

أجابهما الاخرون :

ــ ليتكما تختنقان ، أيها السافلان .

وصبوا عليهما سيلامنهمرا من الشتائم المنتقاة ، وهم يغمزونهما. وانفجر ضحك عام شامل وسع الصدور . لم يفهم اللذان يعملان في مزرعة ماركوس ان الفلاحين كانوا يطلبون منهما شيئا من التحفظ والتستر .

قال قره لنفسه :

« ليتني أعرف حقيقة الامر .. اني مستعد لان ادفع ثمن ذلك

غاليا جدا .. و .. و .. ليتنى أملك عربة كهذه العربة .. مع كل ما عليها . يا لهؤلاء الفلاحين ما ادناهم ! لقد اصبحوا لا يحترمون من هم أعلى منهم مقاما ، وارفع شأنا . اصبحوا يسمحون لانفسهم بكل شيء . ولماذا ؟ لانهم وجدوا مستوطنين فرنسيين يستطيعون ان يكسبوا من العمل فى مزارعهم مالا .. مالا لا يعرفون ماذا يصنعون به . اصبحنا لا نستطيع السيطرة عليهم . اصبحنا لا نستطيع ان نكلفهم . انهم يكسبون من المال ما يشاءون ، وهذا ما يجعلهم وقحين » .

واصاخ قره بسمعه ، آملا ان يلتقط كلمات أخرى « يظنون ان كل شيء مباح لهم ، هؤلاء النتنون . كيف ينسون بسرعة انهم فلاحون ابناء فلاحين ، لا يعرفون الا البؤس . انظر الى هذين الحقيرين النجسين . انظر كيف يقفان فوق هذه العربة كأنهما صاحباها . »

وكان المزارع لا يرى الدرب رؤية واضحة ، فقد كانت تحجبه الاشجار . فتوقف عن سيره ، وسمع القهقهات . ان عاصفة من اللعنات والشتائم تنفجر . وظل قره واقفا وقد نفد صبره واشتد حنقه .

« انظر .. انظر كيف يلعنون ويسبون ، ثم لا تقطع السنتهم جزاء هذا الكفر . يا لهم من فجرة ! اننى لاراهن على قطع رأسى انهم يفعلون عامدين . لا شك أن هناك أمرا يخفونه » .

صعدت العربة طريق سبدو ، ثم انعطفت الى الشمال فلم يسمع قره بعد ذلك شيئا . غير أن فكره ظل يسير . لقد لاحظ قرة حركات الفلاحين فى المنطقة ، ولاحظ الاجتماعات التى كانوا يعقدونها . ولم يخطيء ظنه فى حميد سراج الذى كان يراه يتردد على الفلاحين احيانا كثيرة . ان البلد كله يتهامس فى السر . وكان مزارع بنى بوبلان الأعلى يعرف ما الذى يجب عليه ان يعمله .

- ٨ -

قال كومندار : الحياة قصيرة . أسال الله ان يمـــد فى عمرنا . فلسوف نرى أمورا جديدة كثيرة . أنا كومندار أقول لك هذا الكلام . ان شيئا ما قد تغير فى هذا العـــــالم . لك أن تصـــدقنى ولك الا تصدق . لقد رأينا ما حدث وما لن يحدث بعد الان . أنا لم أطف فى الجزائر كلها ، أنا لم أطأ ارض وطننا كله حين كنت لا أزال قادرا على ذلك . ولن استطيع ان افعل ذلك . ولكن قلبى يحدثنى بكل شىء . لقد زار قلبى جميع أرجاء البلاد ، زار جميع المدن وجميـــع القرى ، وعاد من زيارته يبلغنى ان ثمة شيئا جديدا . الا ما أطـــول ما صبرنا !

هكذا تحدث كومندار .

ــ تقول لنفسك : ما قيمة عشرة أكواخ . فاعلم اذن انه بنى بوبلان الادنى كله ! منذ مائة سنة (ربما اكثر من ذلك وربما اقل) لم يكن أحد هنا البتة ، ذلك ان بنى بوبلان لم يكن له وجود . اسال شيوخ القرية يقولون لك انهم جاءوا الى هذا المكان يستقرون فيه واحدا بعد واحد . اما قبل ذلك فكان للفلاحين حقول شعير ، وبســــاتين تين ، وغياض ذرة ، وجنــائن خضر ، وكروم زيتون ، ثم انتزع منهم هذا كله . منذ تلك اللحظة أصبح يقال عن الفلاح أنه كســـول وانه يترك الارض للقصب والعناب ونخيل المقل ، وانه عاجز عن صنع أى شىء نظيف منتج ! وهذه مزايا الحضارة يابنى ! آه ما كان احـــذقهم فى تجريد هؤلاء الفلاحين من كل شىء فى سبيل مصـــالحتهم وفى سبيل الحضارة ! كان هناك غول شره لا تراه الاعين ، ما ينفك يبتلع بين فكيه الفاغرين أشلاء كبيرة من هذه الارض التى سقوها بعرقهم وبدمائهم ، يبتلعها على ذهول منهم وغفلة ، من حيث لا يحتسبون . انه « القانون » . اينما توجهوا صفعهم « القانون » . وهم دائمـــا مذنبون فى نظر « القانون » . لوائح « القـــانون » تحاصرهم من كل جهة ، وتعترضهم فى كل مناسبة . « القانون » يشق طريقا يقطـــع مزارعهم كما يقطع الدولاب اجسامهم . القانون يحرم عليهم امتلاك أراضيهم . القانون تبدل ، هكذا يقولون لهم ، هناك قانون جديد .

الغيت سندات التمليك القديمة . لايرث أحد ارضا عن اسلافه . الحبس صودرت . وكذلك أراضى المشاع . ثم قالوا للفلاحين : من كانت له شكوى ، فليراجع المحاكم . هناك محاكم . المحاكم تنصفكم . يكفى أن ترفعوا قضية . القانون يحمى حقوقكم اذا كانت لكم حقوق . القانون الجديد الذى صدر بالعدل والمساواة بين الجميع يدافع عنكم اذا اقتضى الامر ذلك . واجاب أولئك الرجال الطيبون : ولكن كيف نلجأ الى القانون ، والقانون هو الذى يجردنا من أملاكنا ؟ ان الذين صدقوا ذلك الكلام عانوا من الشقاء ما لا يوصف ولا يحد . فقدوا البقية الباقية من أملاكهم ، وبعضهم فقد عقله كذلك . واصبح يكفيهم الان ان يجدوا مكانا يستلقون فيه على مقربة من السهول الخصبة المروية . فاذا وجدوا هذا المكان ، تلبثوا فيه ولم يمضوا الى ابعد من ذلك . والذين يستطيعون أن يعملوا فى أقرب مزرعة من مزارع المستوطنين الفرنسيين ، يشغلون المغاور القديمة التى فى الجبل ؛ بينما الطامحون منهم يبنون لانفسهم اكواخا من طين وقش . وهذا هو « بنى بوبلان » الاعلى . هكذا تكون ، يابنى . وهكذا حل فى الارض ناس محل ناس ، هكذا طرد اصحاب هذه الارض من ارضهم واصبحوا غرباء عنها . وثمة فلاحون آخرون اقصوا مع سكان بنى بوبلان فى وقت واحد ، ولا يزالون الى الان يسيرون . وهناك آخرون اقتربوا من المدن . ما من يوم يمر الا وترى اسرة من الاسر تقترب من المدينة ، الاب يحمل على كتفيه صرة ، والام تشد الى ظهرها رضيعا . غير انهم سيصبحون قوة رهيبة . انهم الان يؤجرون انفسهم لاولئك الذين جردوهم من أرضهم ، ويقولون : « كذلك كانت مشيئة الله . ولكن الله سيهدينا الى الطريق القويم » لم تع ذاكرة الانسان لعنة أشد نكرا من هذه اللعنة .

هكذا تحدث كومندار .

وكان عمر ينظر الى الشيخ العجوز ، فيحس من حوله تلك الحشود من الناس وتلك البلاد التى نوديت من بعيد . ان هؤلاء الرجال المنتشرين فى كل اتجاه يوحون اليه بالصداقة . انهم الآن صامتون . انهم يسمعون كلام كومندار ويفهمونه . ولكن طاقتهم الرهيبة تحملهم على الصمت ، انهم يعيشون حول كومندار ، والامل يستحثهم من كل جانب .

— ٩ —

بعد انقضاء مدة من الزمان على ذلك ، كان على بن رباح وسليمان مسكين جالسين يدخنان على الاكمة التى علقت بها القرية . وكان بادعدوش قد تركهما منذ قليل ومضى الى المزارع المجاورة عساه يجد فيها عملا ، رغم ان الامل فى ذلك ضعيف . وفى تلك اللحظة نفسها كان قره على يرقى اليهما مصعدا فى طريق سبدو . فما ان راى الفلاحان هذا المزارع حتى نهضا ، وأخذ احدهما وهو على بن رباح . يلقى نظرات على جهة الرجل ، ثم قال :

— الى اللقاء يا سليمان . الم تشم رائحة ما ؟ ان رائحة كريهة قد زكمت أنفى منذ لحظة وحبست انفاسى .

فأخذ سليمان مسكين يضحك . وذهب على بن رباح . فلما وصل قره على فصار أمام سليمان ، كان لايزال يضحك وحيدا . قال المزارع :

— سليمان ، سليمان ، لقد سبق أن قالوا انك امرؤ معتوه ، فلم أصدق ، اما وأننى أراك تضحك وحيدا ، فهاندا اكاد أصدق .

— لا شيء يا مسيو قره ، لا شيء ، صدقنى . هو فلاح كان معى وذهب منذ لحظة ، لانه شم على حين فجاة رائحة كريهة .

قال سليمان مسكين ذلك وانفجر يقهقه من جديد .

— رائحة كريهة ؟ شم رائحة كريهة ؟

ألقى الرجل الضخم هذا السؤال وهو يتشمم فيما حـوله ، ثم أضاف قوله :

— لم اشم شيئا .

— كيف يا مسيو قره ؟

ان ضحكا لا سبيل الى قطعه آخذ بخناق سليمان مسكين . فنشق المزارع بمنخريه الواسعين نشقة كان لها صوت كانه صوت قصبة . ثم أخذ ينظر الى سليمان مسكين بعينين قلقتين ، فقال سليمان ملحا باخـلاص ساذج :

— شم ، شم ، فستجد ان ثمة رائحة كريهة .

وكانت نظرته ملتمعة ببريق اخضر .

– نعم نعم ؛ هى قذارة ما تركها هؤلاء الفلاحون المناحيس فى هذا المكان . ان الفلاحين لم يوجدوا على هذه الارض الا ليوسخوا كل شيء . ولو ذهبوا الى الجنة لملأوها ببرازهم .

فرفع سليمان مسكين ذراعيه وقال :

– انظر يا مسيو قره الى جنائن الزيتون ، والمراعى الخضراء ، وكروم العنب ، الا ترى انها جميلة ؟ اننى لأنظر اليها فاحس بقلبى ينفتح ويتسع . أحس بسهل فسيح من الرضا ، بأقيانوس من السرور بجبل من الكبرياء . نعم أحس بكبرياء عظيمة . فمن أين يخرج هذا كله ؟ من اذرع الفلاحين . هل هذا كله ثمرة أناس خلقوا ليوسخوا الارض كما تقول ؟ انهم فى الحق يجملون الارض ويزينونها . ويمكن القول ان وجودهم يجعل من الارض جنة .

وأنهى كلامه بصوت قوى يقول :

– ولكنهم مبعدون من هذه الجنة التى يخلقونها .

فصاح قره على يقول معولا :

– كل هذا كلام . ما اكثر الكلام ! فكر فيما تقوله ياسليمان . ماذا تعرف أنت يا آخر فلاح من الفلاحين . هذه كلها اراض كانت فى الماضى قفرا خاويا . نعم كذلك كانت : أدغال عوسج ، ودوم .. ولم تكن تنبت فيها بطاطسة واحدة .

ثم عمل فيها رجال .

– صحيح . ولكن بفضل من ؟ بفضل الفرنسيين . الفرنسى انسان عظيم ، انسان عاقل حكيم . لكأنه واحد من الأوائل .. فهو الذى انشأ أول مزرعة ، وغرس أول كرم . كان الفرنسى يعرف ماذا يعمل .

– وبلغ من حسن معرفته بما يعمل انه لم ينشيء مزرعة واحدة وكرما واحدا ، بل سرعان ما انشأ عشر مزارع ، فمائة ، فالفا ،وغرس مثل هذا العدد من الكروم أيضا ..

– هذه الكهوف التى يعصرون فيها العنب ، وهذه العنابر التى يخزنون فيها القمح والشعير ، لاشك ان اجدادك لم يتصوروا مثلها . لم يكن هناك رجال يعملون فى ذلك الزمان . كان قد نالهم الصدأ والفساد جميعا

– أجانب يملكون البلاد .

– أليس السكان سعداء ؟

– لا أدرى ؟

ـ هناك عمل لجميع الناس . ترى ما الذى كان يمكن ان يصير اليه الفلاحون بدون ذلك ؟ هه ؟

ـ لا اعرف ما الذى كان يمكن ان يصيروا اليه . ولكننى على يقين من أن حالهم كانت ستفضل الحال التى هم عليها الآن .

ـ اعترف بالحقيقة يا رجل .

ـ الحقيقة ؟ من الذى يعرف شيئا عن الحقيقة ؟ انت ؟ انت تعرف ماهو حقيقة وما ليس بحقيقة ؟ الحقيقة . لسوف تعرف ماهى . انظر الى هؤلاء الرجال الذين كنت تسميهم منذ قليل قملا . الم تكن تسميهم قملا ؟ اذن فاعلم أنهم هم الحقيقة نعم ، هؤلاء الرجال الذين لايملكون شبرا من الارض هم الحقيقة .

فرفع المزارع الضخم يده ، وكاد يضعها على كتف سليمان مسكين ، ولكن حركته مالبثت أن اضطربت كأنما هو هم أن يلمس نارا تحرق على أن هذه الحركة الاخوية التى لم يكملها قد قربته مع ذلك من سليمان ، وقال :

ـ تكلم ، تكلم ، ايها الفلاح الحاذق فى الكلام . لقد قسم الله لكم هذا الحظ .

كان مسيو قره قشف الوجه كسيدة متقدمة فى السن . وكانت ملابسه المبرقشة الحائلة تدل على انه ميسور الحال بغير رخاء أو رفاه . وكان له شاربان ضخمان يمتدان على وجهه . وكان وقاره هو سلاحه ودرعه ضد سكان بنى بوبلان الادنى . وكان يحس أن الفلاحين الذين يعدهم فى اسفل السلم ، لا يبذلون له كل ما يستحق من احترام .

ان زاويتى فمه تتهدلان فى احتقار وازدراء تحت خديه الثقيلين المحشوين بشعر اشقر .

ثبت سليمان مسكين وقفته على كعبيه .

وقال المزارع متابعا كلامه :

ـ وكان ثمة نزاع كثير فى عهد القبائل ، وكانت ثمة عصابات من اللصوص فى الجبال والروابى .

ـ زمان العصابات من اللصوص انما هو هذا الزمان ، مسيو قره . كيف لا يعرف هذا رجل مثلك يا مسيو قره ؟ ولكن لا ، انك لا تستطيع أن تعرفه .

ـ ولماذا ترى ان زمان عصابات اللصوص هو هذا الزمان ؟

ـ لان المستوطنين الفرنسيين لصوص ، ولان القائد لص ، ولان

رجال الدرك لصوص ، ولان المدير لص ، ولان مسيو قره ..
ـ مسيو قــره ماذا ؟
ـ لص ايضا . جميع هؤلاء لصوص ، وليس بهم حياء ولا خجل.
فلما سمع قره على هذا الكلام اظلم وجهه ، وقال :
ـ انت لا تتكلم الا لتبرهن على ان لك شأنا وقيمة .
ـ ابدا ، وانما أقول الحقيقة . ان كل واحد منكم يريد ان يلقننا دروسا ، وان يعطينا نصائح ، كل واحد منكم يتدخل فى حياتنا ، وينزل نفسه منزلة القاضى الذى يفصل فى الامور ، وانتم جميعـا لصــوص .
ضاق قره ذرعا بهذا الكلام ، فأشاح بوجهه عن محدثه . ان عينى سليمان تطرفان قليلا ، وتلتمعان . واردف يتابع كلامه مستندا الى المنحدر ، بصوت يبلغ الآن من الخفوت ان قره على لم يدرك فى اول الامر ما يقول :
ـ لا يا عزيزى مسيو قره ، لا ياعزيزى مسيو قره ، ليس صحيحا ماقلته عن الازمان السالفة . لم يكن كل شىء فى تلك الازمان سيئا ربما كان فى تلك الازمان أمور سيئة ، ولكن لم تكن كل الامور سيئة. واليوم ماذا نرى ؟ لكأن يوم الساعة يوشك ان يأزف ، هذه الازمان طيبة للاغنياء والاجانب .. لخمس أسر او ست .. او لعشرة فى اكثر تقدير . أما الفقراء ؟ آه ماأكثر الفقراء !.. نحن لم نكن ، انا وابى وأمى واخواى ، الا فلاحين . وفجأة جاء هؤلاء فأخذوا أبى . لعل ذلك لم يكن الا خطأ . لقد كان أبى رجلا مسالما طوال حياته ولكنك تعرفهم ، تعرف هؤلاء الجنود والحرس والدرك والضباط .. لعنهم الله جميعــا .
ـ هوه ..
ـ هوه ؟ قد تكون أنت خيرا منهم ، أو لا تكون كذلك .
ـ ها .. هوه .. كيف تجرؤ على قول هذا الكلام ؟
قال المزارع ذلك ، ورمى الفلاح بنظرة حانقة . ولم يكن فى الحقول أحد البتة ، فما زاد على ذلك شيئا .
ـ أنا لا اجرؤ ابدا يا مسيو قره . وما كان لى ان اسمح لنفسى بشىء . ولكننى ســأقول لك ما بنفسى ، ما دام الله قد أرسلك الى . وستصغى الى كلامى .
ـ طيب ، بسرعة ، بسرعة ، لان ورائى ..
ـ ربما كان سبب ذلك هو الحصان الذى اراد القائد ان يأخذه.

انا لم اعرف حقيقة السبب الى الآن . وانما المهم انهم اخذوا ابى . وقد اخذوا مع ابى عددا كبيرا من الناس ، بعضهم شيوخ وبعضهم شباب . وكان بعض هؤلاء مجرمين حقا ، ارتكبوا ذنوبا جديدة فأرجعوهم الى السجن .. ولكن الاخرين ، ومنهم ابى ، كانوا أناسا أبرياء لم يقارفوا جرما . ومع ذلك اخذوهم . من أجل ذلك الحصان اخذوا ابى . لقد رفض ابى أن يهدى الحصان الى القائد . هل القائد نفسه كان يريد الحصول على هذا الحصان لان حاكما آخر اقوى منه كان يطمع فيه ؟ لا ادرى .. المهم ان ابى قد انتزع من اسرته بسبب حصان شقى . ارسلوا ابى يكسر الحجارة على طريق كابين .. ثم اذا بامرأته ، أمى ، تصبح اما بلا رجل ، واذا بنا نحن ، أبناءها ، نصبح يتامى بلا اب . لماذا ؟ هل تستطيع ان تقول لى لماذا ؟ الحصان هو السبب . كان الحصان كل ما يملكه أبى فى فقره وبؤسه . كان هذا الحصان كثيرا على فلاح . كان ثروة ينوء بحملها الظهر . كان كثيرا على فلاح . وقد قال سكان القرية ذلك لابى ، قالوا له : « ياأحمد ، ان حصانك اجمل من ان تملكه أنت . لن تلبث السلطات أن تنظر اليك شزرا بسبب هذا الحصان» . وذلك ماوقع . وقد حذروه ايضا بقولهم : « لايعلم احد ما الذى سينتج عن هذا» . ثم علموا ما الذى نتج عنه . لقد اخذ ابى . ولم تره بعد ذلك امرأته ولا أولاده ولا القرية . واصبحت أمى لا تستطيع أن تأكل ولا أن تنام وهى تفكر فينا نحن أولادها . وكانت تتوقع كل يوم أن يعود . وقلت أنا لامى العجوز : « هيا بنا نجمع عفشنا وامتعتنا ، ونرحل . ان الله لم يشأ ان نبقى فى هذا البلد » . وتركنا القرية . لم نكن نملك بالقرية لا حجرا ولا شجرة . فرحلنا غير آسفين على شىء . أرض الله واسعة . ولكننا حملنا معنا محبة هذه القرية . لقد كتب علينا ان نرحل ، فكان لابد ان نرحل . مشينا بضعة أيام . الشرب لم يكن أمره صعبا . كنا نشرب من ماء الينابيع . ولكن الحصول على الطعام لم يكن بهذه السهولة . لم ندع شيئا الا اكلنا منه . اكلنا من كل شىء : جذور التاجودة ، توت الفرصاد .. واكلنا خبزا كان يتصدق علينا به اناس تاخذهم بنا شفقة . واكلنا من أوراق شجر الخطم ، ولوزا اخضر وثمار رمان . وطلبنا الصدقة . ورأينا فقراء أفقر منا . وكان اخواى يسقطان على الارض من التعب . وكنت أنا احس فى كل يوم اننى أوشك ان اموت ، من فرط ما أعانى . قضينا سنين نضرب فى الارض ، ونجوب الطرق . وكنا نلجأ الى

اكواخ القش نبيت فيها اذا سمح لنا بذلك . ولكن لم يكن يسمح لنا بالمبيت فيها مدة طويلة . وماذا كان في وسعنا ان نعمل ؟ ان الذين يطردوننا يجيئون الينا مع كلابهم وخدمهم وبنادقهم . فما نلبث ان نستأنف المسير ، لاننا اصطدمنا بالسلطات . كبيرة امنا الجزائر . ذهبنا الى كل مكان . ومات الولدان . دفنا احدهما في موضع ، والآخر في موضع ثان . فلما اصبحت وحدي مع امي ، لم استطع ان ارى ما تكابده من آلام . كان خليقا بالصخر ان يبكي حين يشاهد مابها . ينبغي لك ان تصدق ما اقول . كنا نسير على الاقدام في الصحراء . ذهبنا الى الشرق والى جبل التل . وسكنا في البراكات التي تحيط بالمدن الكبرى . وحرثت الارض ، وعملت في جني الزيتون والبرتقال وقطف العنب .

وبعد تلك السنين كلها من الطواف في الارض على غير هدى ، اشتد بنا الحنين الى البلد . فعدنا سائرين على الاقدام انا وامي . واذكر اننا كنا ذات مرة على ابواب احدى المدن . كانت امي المسكينة هزيلة ضاوية متسخة ممزقة الاسمال . اغمضت عينيها ، واسلمت روحها اللطيفة لبارئها . دفنت امي ، وعدت الى القرية . اود لو أعيش اربعين سنة اخرى . صحيح ان الاعمار بيد الله ، وما من احد يستطيع ان يتحكم فيها . ولكنني اود لو اعيش اربعين سنة اخرى . هكذا كانت كلمة واحدة كافية لانتزاع ابي منها ، وتشريدنا في أقاصي الدنيا . هل كنا نعرف سبب ذلك؟ أبدا .. والان اصبحنا نعرف . فانظر مقدار الاذى الذي الحقه بنا اصدقاؤك . ولكنني لا اهابهم ولا اخشاهم ، اذ لم يبق لي شيء اخاف ضياعه . وكبيرة امنا الجزائر . قد تقول لي عد الى بيتك فلا اعود ، اولا : لانني ليس لي بيت ، وثانيا : لانه ما من احد يستطيع أن يمنعني من التسول واستجداء قطعة من الخبز آكلها ، اذا انا اردت ذلك . لاتستطيع انت ان تمنعني من ذلك . وعلام يمنعني اشباهك ؟ هل من الواجب بعد كل مامضى ان تمنع حتى من التسول ؟ اذهب الى السلطات فقل لها على لساني هذا الكلام كله . فلست أعبأ بذلك . انني مستعد للذهاب الى المعتقل اذا لزم الامر . لست اخاف أن يقال عني انني كيت وكيت . انت تطلب مني ان اعود الى بيتي ، لا داعي الى ذلك . وانت تظن انني اهذر . حين تمتلىء اعين الشرفاء من الناس بالدموع يصبح قلب امثالك من حجر .

قال قره وقد سئم من حكايات الفلاح :

ـ القدر هو الذى اراد ذلك .
ـ اى قـــدر ؟ اى قدر ؟
ـ على أنا اعرف ؟ القدر .. اعنى ما يسمى بالقدر .
ـ أنا لا افهم هذا الكلام .. ولكننى اسألك هل الذى قصصته عليك حـــدث أم لم يحدث ؟
ـ لنفرض انه حـــدث .
قال قره ذلك وهو يرفع صوته .
أراد المزارع ان يقرع سليمان مسكين وان يؤنبه على هذه الثرثرات. فأصغى سليمان الى كلامه وهو يصطنع هيئة النادم ، كما يليق ذلك بفلاح يمثل امام شخص خطير الشأن رفيع المقام . وكان هناك فلاحون آخرون اجتذبهم وجود قره ، فأخذوا يشهدون هذا المشهد من وراء سطوح القصب وجذوع الاشجار .
قال سليمان مسكين يرد على هذه المواعظ :
ـ اسمع يامسيو . دعك من التدخل فى شئون غيرك ، والا نتفت لك شـــعر شاربيك .
ثم رفع يده فشد أحد شاربى المزارع وهو يفرق على نحو بذىء ، ثم شد الشارب الثانى شدا أقوى من ذلك أيضا ، ودار حول الرجل الضخم . ظل قره على حيث هو مشدوها فاغر الفم . ثم حاول ان يفرض احترامه على هذا الفلاح الوقح ، فأهاب به ان يكف ، ولكن سلطته لم تجد نفعا ولم تسفر عن نتيجة . اراد ان يضربه . هيهات. وكان الفلاحون قد اخذوا يتلوون ويتعقفون .
كان ســـليمان يصيح :
ـ يا له من شعر اشهب جميل . شعر اشهب جميل . هأنـــذا أنتفه .
وانفجر ضاحكا ضحكة طويلة ألقت الذعر فى وجه قره على . كان الفلاحون يحرصون على أن يظلوا مختبئين . وهرع بعضهم الى القرية يشد على خاصرتيه من فرط الضحك ليذيع النبأ فى الناس .
ولم يستطع المزارع ان يهرب الا بعد لاى . ولولا انه هرب لنتف سليمان جميع شـــعر شاربيه .
صاح به سليمان بعد ان ولى الادبار يقول :
ـ عليك بالاهتمام بشئونك وحدها اذا كنت لاتريد ان ترى ذقنك تشوى فى يوم من الايام .
وكان المزارع قد نسى كل ما يجب لشخصه الـــكريم من احترام

وتوقير ، فجعل يعدو عدوا سريعا ، وغاب وسرواله الكبير المنفوخ يهتز ذات اليمين وذات الشمال .

والتشر الخبر بمثل سرعة البرق . ما عسى الناس يظنون بعد ذلك؟ لقد ضحكوا ملء أشداقهم . ومنذ ذلك اليوم أصبحوا كلما صادفوا صديقا من أصدقاء السلطة ، يقولون لانفسهم وهم يقرعون الركب :

ـ دعه .. لا بد انه ملاق سليمانه المسكين .

أو يقولون :

ـ المهم ان لا يقع بين يدى سليمان مسكين . والا فلن يتخابث ولن يصطنع المكر بعد ان يلقاه .

حاول قره على عدة مرات أن يظهر للناس بعد ذلك اليوم . الا انه كان كلما ظهر انهمر على ظهره وابل من الضحك ، حتى اذا التفت الى وراء لم يسمع شيئا ، ولم ير أحدا . لكان ارواحا من الجن هى التى تلاحقه بسخرياتها . وكان ينظر الى الناس مستفهما مستطلعا ، فيقترب الفلاحون منه ، ويتفرسون فى عينيه وينتهى الامر بأن يفقد قره على ، صبره فيدمدم ويسعل : احم .. احم .. ولكن نوبات السعال هذه لم تكن تجديه نفعا . وها هم الفلاحون يشيحون بوجوههم عنه ، ويولونه ظهورهم .

وصرح لهم قره على عندئذ انه يرى ان كل فلاح يصل اسبابه بأسباب سليمان مسكين فهو عدو للحكومة وعدو للاسلام .

فعقب أهل بنى بوبلان على هذا بقولهم :

ـ معنى ذلك ان الناس جميعا هم فى رأيه كذلك .. القرية كلها .. أليس صحيحا ؟ اما ان كل من يصل اسبابه باسباب سليمان مسكين فهو عدو للحكومة فى نظره ، فله ان يقول ذلك .. واما انه عدو للاسلام ، فاللهم كلا ثم كلا ..

لقد قال كومندار ان على عمر ان يعرف هذه الامور كلها . ان عمر
راقد الآن تحت شجرة البطم الكبيرة ، على حافة حقل قره . لكأن
هذا العصر من شهر آب وقف عند الزمان الازلي مليئا مثقلا مشحونا .
النعناع البرى والنباتات ذات الرائحة العبقة تجف وتيبس . لا شك
أن هذا العصر ليس له نهاية ولا بداية ... ان الفتى قد أضاع منذ
مدة طويلة كل ذكرى عن الوقت . كل شجرة ، وكل حجر ، وكل حنية
من حنايا الريف ، قد انصبت فى مادة ساكنة لا تتحرك . وفى قرارة
هذا الخدر الذى لا يوصف ولا يحد كان يسير النهار بغير قياس .
وفى ظل شجرة البطم الكبيرة هذه ، فى ظلها الخفيف ، كانت نظرات
الصبى ترصد حضور الموت صامتا اخرس .

هل كان عمر يعرف هذه الامور حقا ؟

ان الاطفال يتظاهرون أحيانا بأنهم لا يعرفون عنها شيئا البتة .

وانتزع الصبى كشة من العشب وهو منصرف الى تأملاته . ونظر
الى الحشائش التى قطفها ، ثم اخذ يمضغها فى رضا وارتياح . انه
يعرف الامور . واخذ ينكش بأصابع قدمه العارية التراب الطرى الندى
من ذلك المكان . انه يتعرف شجرة البطم . هاهو ذا يمد ذراعه
ويلمس الشجرة : انه يتعرف القشرة التى تنمو حول الشجرة ويشد
براحة يده شدا قويا على جذعها ، فتسقط منه قطعة خشنة : انه يفهم
هذا أيضا .. وانت الريح فى أذنيه أنينا خافتا . ان أوراق الاشجار
قد استدارت تصارع الريح العنيفة . وسمع عمر همهمتها .

قال كومندار : « حين صارت الشمس فوق رءوس الحصادين
توقفوا عن العمل . فلما انتصبوا قائمين سقط ظلهم على اقدامهم .
كانوا جميعا سودا . تركوا الحقول ومضوا يجلسون تحت الأشجار .
وانتظر آخرون قليلا : تركوا الالة الكبيرة وحيدة وسط جداول النار
التى تتكون فى حقول الحصاد : ان الآلة الكبيرة تتحدى كل شىء .
فكأنها بأجزائها الكثيرة التى من حديد ومن خشب ، المشابهة لأذرع
عفريت هبط من السماء ، تبدو نائمة فى الحقول هى أيضا . هذه
القضبان الحمراء القانى لونها ، وهذه الأسنان الجديدة القاسية التى
من فولاذ ، وهذا العرى وهذه الدمامة كلها ، هذه العطالة وهذه القوة ،

كل هذا الذى اجتمع فى كائن من معدن لا وجه له ، ولكن له أذرعا ومخالب وأفكاكا ، هذا كله كان يلوح أن وجوده هنا انما يرجع الى مصادفة لا يدرك كهنها ولا يفهم سرها .

ووراءها ، من بعيد ، تقريبا على الحدود التى ترى من مـزارع القمح الممتدة ، كان حقل المستوطن الفرنسى ماركوس ، وبيته العتيق الذى بناه جده ، وظاهر هذا البيت المتشابه ، وافريزه وفتحاته ولون آجره القديم الوردى الحائل ، وسقفه القرميـدى المغطى بطبقـة من الطحلب ، كان كل ذلك يبدو أنه هو الوجه الحقيقى للجزائر ، ولكنه ليس الا السطح الظاهر ... وللجزائر مليون وجه آخر »

هذا ايضا ، يفهمه عمر . كان عمر ينظر الى هذه المزارع التى تمتد أمامه ملتوية تلوى تضاريس هذه البلاد ، فيرى القش المشوى الميت يزفر زفير اللهب وهو يتأرجح مع هبات الريح ، ويرى أكوام العشب المحمرة تبدو تارة كالذهب حين يأخذ فى الانصهار ، وتارة كالشعر تهزه الارض على كتفيها فى استرخاء وهى متهالكة على نفسها من شدة الحر ، وبينما كان جريان الزمان يمضى فى طريقه من قلب الصبى ، ويثير فى نغمته الودود الاسيانة ، كانت الآكام تنتصب فى المغـرب شهباء مبقعة بألوان كألوان البنفسج ، مـع ماعهد فيها من عـداوة وبغضاء

قال الرجل العجوز كومندار : « كذلك تجرى أمور العالم فى كثير من الاحيان . »

اصبح عمر لا يدرى أهو فى البلد الذى تراه عيناه أم فى بلد القمح الذى كان يصنعه له كومندار .

ان لعمر ذهنا يقظا وجسما سليما . وهو الآن سائر فى السنة الحادية عشرة من عمره . ليس وجهه بالجميل جمالا خاصا ، غير أن فيه نعومة ورقة توشكان أن تبلغا أقصى ما يمكن أن تبلغه النعـومة والرقة فى وجه من الوجوه . وكان عمر يملك غريزة عجيبة لاتخطىء . وفى هذه اللحظة ، بينما كان كومندار يتكلم ، كانت رائحة حديدالآلة تغزو منخريه . انه الآن متمدد على العشب يفكر : هكذا تجرى الامور . حقول القمح ذهبية شقراء ، بلون الخبز المجمر ، وفيهـا منـذ الآن سنابل محترقة . وهذا هو بيت الفرنسيين ، بيت المستعمرين الذين يملكون كل شىء ، الارض وبيادر الحصاد ، والاشـجار ، والهـواء ، والرجال فوق ذلك كله ، وكذلك الطيور ، وربما كانوا يملكوننى انا أيضا . كل شىء فى هذا الكون راسخ متين ثابت مستقر ، كل شىء

يبدو قائما في مكانه من هذا الوجود الرحب الساطع الكبير ، الارض وهذه المزرعة ، هذه السماء المهتزة وهؤلاء العمال الذين يذهبون ثم يعودون الان لان عليهم ان يستأنفوا العمل ، هذه الآلة وتلك الروابى العارية وهذه الانفاس التى تخرج من صدرى ، كل شىء فى هذا العالم يبدو مرتبطا منظما .

جمد النهار على تأمل الفتى : الطيور بين أوراق الاشجار ، الركون والدعة ، دقات تسمع من بعيد ، همهمة رتيبة : ساعة من العصر فى الفضاء الساكن الحميم .

قال كومندار : « وما حدث بعد ذلك تصعب متابعته . ان صوتا معولا رهيبا قد انطلق يشق الهواء الهادىء ، ويملأ الحقل بحنق ضخم . كانت الآلة تهز مفاصلها الفولاذية الكبيرة فى وحشية أن رجلا قد انطوى فيها فهو يتحرك محاولا ان يتملص منها ، ولكنه يظل معلقا بها وقد انغرزت أسنانها فى جسمه .

وأخذت قطرات ضخمة من الدم تنهمر ببطء على السنابل التى حلقت منذ لحظة . ثم نزلت النهاية نزول الصاعقة . ان هذا الجهاز المعقد من الاذرع والروافع قد تفضض دفعة واحدة وهو يقرقع قرقعة شديدة : فانخبط العامل على الارض وانسحقت عظامه . انه لم يعد انسانا بل أشلاء سوداء . وهرع كلب كبير وهو يوعوع ، وتجمد أمام الجثة فى دهشة . ثم اخذ ينبح نباحا طويلا . وما هى الا لحظات حتى امتلأت الحقول بالناس ، على هدوئها فى تلك الساعة ، كأنما الامر سحر . نبع عمال من كل جهة من الجهات ، فزاد بهم عدد الذين كانوا يعملون هناك ، واخذوا يتزاحمون فى دائرة مضطربة مهتاجة يحاولون ان يتكلموا جميعا فى آن واحد . ان كلا منهم يروى الآن قصته التى وقعت له ، ويناقش ويشرح » .

كان عمر يرى هو أيضا هذا الحشد ، ويرى جثمان الرجل فى وسط الدائرة باردا كل البرود . لقد فات الاوان . أوان ماذا ؟ العامل مات منذ الضربة الاولى ، منذ اللحظة التى ارتطم فيها بالارض .

قال كومندار : « تحطمت كليتاه ، وتهشمت عظامه كلها تقريبا . كان الدم يرشح من جسمه بغير انقطاع ، فيسقى الارض ببقع حمراء لامعة » .

التفت عمر نحو الأرض لاهثا .

وأستأنف كومندار حديثه :

« وظل الكلب الاسود الكبير هناك . كان يهتز ويلهث كقاطرة ، وكان لسانه الكبير يتهدل من فمه بطوله كله . كان يمد رأســـه الضخم ، فيرى ارتعاش فمه الكثيف ، واضطراب عضلات رقبتـــه القوية . وطفق عدد من الفلاحين يحاول طرد الكلب . ان صـــاحب الكلب هو صاحب المزرعة .

قالوا :

ـ اذهب يا كلب النحس . ملعون انت وأصحابك .

رأى عمر الكلب وهو يبتعد ثم يتوقف ثم يتقدم نحو الجميع براسه الضخم ويهمهم واقفا على قوائمه المتباعدة ممتلئا بحرارة جهنمية .

قال كومندار : « وخرج مسيو أوجوست وهو رجل فى الخمسين من عمره ، خرج من بيته راكضا . وهاهم أولاء يرونه واصلا اليهم بخطا سريعة بعد أن أغلق الباب الكبير . ان وجهه وهو وجه رجـل شبعان ، يلتمع التماع شعره الوردى . وعلى ساقيه القويتين يجثم جذع عريض . ان كرشه يطفح فوق حزامه .

فلما صار أمام الجمع اقترب منه الكلب الأسود الكبير .

« قال بعض الفلاحين :

« ـ مساء الخير ، مسيو أوجوست .

« ـ وقع شيء رهيب يا مسيو أوجوست . تعال انظر .

« فامسك مسيو أوجوست بطوق الكلب بحركة آلية ، فجعل الكلب يشد الرجل شدا قويا وهو ينبح نباحا مســعورا . لم يظهر الفلاحون أية علامة من علامات نفاد الصبر أو علامات العداوة ، فهم لا يزيدون على ان ينظروا باعينهم منتظرين ما ســيفعله الفرنسى . واخذ مسيو أوجوست يطلق الشتائم واللعنات وهو ممسك بكلبه

قال كومندار :

« وفى تلك اللحظة وصل فرنسى آخر يترنح على ساقين قصيرتين عجيبتين . انه مسيو ماركوس نفســه ، الرجل الذى كان الفلاحـون لا يلمحونه الا لماما . وارتفع صوت مسيو ماركوس ، المرتج ، ارتفع واضحا صارما ، فسرعان ما سيطر على صيحات الوكيل ، الذى صمت أخيرا .

« ـ لا يلمســه احد . هلموا انتم . الى العمل جميعا . أسرعوا ..

اصدر مسيو ماركوس أوامره هذه كلها باللغة العربية . ولاح على الرجال انهم لا يستطيعون تحويل ابصارهم عن هذه الجثة الممزقة ، عن هذا الجثمان الساكن . ومع ذلك تفرقوا شيئا فشيئا . وقــال مسيو ماركوس بالفرنسية فى هذه المرة ، متجها بالكلام الى وكيله :

« ـ هاتوا غطاء من البيت ، والقوه عليه ، الى ان يصل رجـال الدرك . ولن يتأخروا عن الوصول . اما هؤلاء فيجب ان يعودوا جميعا الى أعمالهم . استبق واحدا أو اثنين منهم للاجـراءات . ولا تدعهم يتكلمون كثيرا . سأتولى شرح الامر لرجال الدرك بنفسى ، فيفهمون أن الحادث يرجع الى طيش الفلاح .

ثم التفت الى العمال قائلا :

ـ الى العمل ، الى العمل ، والا حسمت اجور الساعات الضائعة .

كان الاضطراب الذى يهزه يشعل بالحمرة خديه الصغيرين .

ـ شىء مزعج والله . كنت أنوى أن أكون فى المدينة فى الساعة الثالثة .. ومر الفلاحون أمامه بوقار وامتثال . وحياه كل منهم بوضع يده على جهة القلب من صدره . فكانت التحية تعبر عن اللبـاقة والاحترام . ولكن مسيو ماركوس لم يحفل بهذه المظاهر كلها . ان مسيو ماركوس سيد من كبار السادة ، فهو سليل أسرة من المستعمرين ، عظيم نبيل . انه بالدم والثراء ابن عم عدد من السادة المشهورين هم اصحاب مساحات شاسعة من الاراضى وورثتها .

كان عمر يعرف مسيو ماركوس . لقد حاول ذات يوم ان يدخل اراضيه من أحد الاسيجة ، فوقعت عليه نظرته الشاحبة حادة كأنها شفرة سكين ، وبدت للصبى مثقلة بالقسوة . ففهم عمر ان عليه أن يسارع الى الهرب . ولكن النظرة التى وقعت عليه كانت تطوف فى غير هذا المكان . ان مسيو ماركوس لم يره . لقد كان يحلم .

روع عمر اذ تصور أن هذا الرجل يملك آلة مثل هذه الآلة . فكر فى الموت الذى تسببه . تخيل اضطراب العمال والانفعال الرهيب الذى هز نفوسهم فى ذلك الظهر الهادىء الذى كان يخيم على البلد كله بلا حركة ولا رعشة . ان الوعيد الذى حلق عندئذ فى الهواء ، مسلط فوق الرءوس كقبضة عمياء ، كلعنة .

كان على الصبى ان يفهم هذه الامور كلها ، لذلك كان يفكر ويطيل التفكير ، وهو مستلق على العشب يصغى الى كلام كومندار الذى كان يتحدث عن حياة الفلاحين المقضى عليها بالهلاك . كان عمر يعرف هذه الأمور حقا ، دون ان تكون به حاجة الى التفكير فى كل منها على انفراد . لقد سبق أن ادرك عقله العلاقة بين هـذا الموت وبين ذلك التعب الشقى الفقير الذى تعانيه امه ، وادرك العلاقة بين حيـاة الفلاحين وبين جوع دار سبيطار . وها هو ذا يتخيل رجال الشرطة وهم يدخلون ذات صباح الى دار سبيطار .

قال كومندار :

« الذى مات مات ، وعرف مم مات » .

قال عمر بينه وبين نفسه : أما كل ماعدا ذلك فلايزال كما كان من قبل . لم يتبدل شيء ، الا أن عاملا زراعيا قد غاب ، فنقص عدد العمال واحداً . هذا هو الموت . وهذا هو سببه : سببه هؤلاء الناس الذين يعيشون فى بلادنا مستعمرين . ما موت فلاح ؟ تمزق وحشى سريع .. ثم لا شيء بعد ذلك . وتسير الامور كما كانت تسير . ترى ما الذى سيصير اليه هذا كله : حياة أهل بنى بوبلان ودار سبيطار ، وهؤلاء الفرنسيون ، وهذا الموت ؟ ..

ترك عمر لفكره أن يسترسل غائصا فى حلم الموت ، وهو متمدد على العشب . وقال يخاطب نفسه : اللهم يا قادر ، يامن يحيط بعلمه كل شيء ، أنا أيضا أعلم وارى ، فافهم كيف تجرى الأمور ، افهم انها غريبة بسيطة وفظيعة ، جميلة ورهيبة ، وانها واضحة ومألوفة . ولكن ما الذى سيحدث بعد ؟

وفيما كان الصبى يحدث نفسه بهذا الكلام ، سمع ساعة المنصورة تدق الثالثة فتساءل : ترى هل استطاع مسيو ماركوس أن يكون بالمدينة فى الساعة الثالثة من ذلك النهار بعد وقوع الحادث .

قال كومندار :

« ما أكثر ما نحب ان نعرض بؤسنا . أليس هذا ما يقوله عنا أولئك الذين يحرصون على ألا يتغير شيء ؟ نعم .. يكفى أن يتغير أى شيء يسير مما هو قائم ، حتى يداخل نفوسهم الخوف .

نظر عمر الى كومندار ، وتساءل عن هذا العجوز المشدود الى هذه الارض بلا ساقين ، ألا يشعر فى بعض الاحيان بضجر مهلك لا خلاص منه .

***

ثمانية او عشرة جالسون تحت شجرة قديمة من اشجار التوت . ثمانية او عشرة من رجال القرية ، ومعهم مزارع نزل من بنى بوبلان الأعلى . ان انحدار الوادى يبلغ الظل الساقط من الشجرة . النهار متعب والسماء صافية بلا غيوم ، والحر شديد يفرغ الفضاء . هى الساعة الثالثة بعد الظهر .

الطريق يتثنى ، تحت ، ويتلوى ، ثم يغيب فى الافق البعيد الذى يتهزز فى خلال ضباب ساخن . صمت الريف المقفر يسطع سطوعا قويا . وفى الحقول الحجيرة التى يملكها مزارعون من أهل البـلاد

تنتصب سوق القمح قصيرة هزيلة .
قال سيد علي وهو يشير بيده الى سوق القمح :
ــ لقد امتصت كل شيء ، امتصت كل ما في هذه الارض ، ولن تزداد علوا .
كان بن ايوب احد افراد الجمع . انه هو المزارع الذي نزل من بني بوبلان الاعلى . واليه انما اتجه سيد علي بالكلام . كان الفلاحون يقدرون مشاعر الصداقة التي يحملها لهم بن أيوب . لقد جاء يشارك في اجتماعهم . انه لن يتردد عن تلبية طلبهم حين ذهبوا يدعونه الى المشاركة في هذا الاجتماع ، بل قال على الفور :
ــ « طبعا » ومضى يتبعهم تاركا العمل لأولاده .
وفي أثناء الطريق أبلغه الفلاحون أن حميد سراج هو الآن في بني بوبلان .
فقال المزارع :
ــ اننا نحن أبناء القرى ، نقدر الرجال بعلمهم وعقلهم . فاذا كان من اهل العلم والعقل فأهلا به وسهلا . سنظل دائما في حاجة الى رجال من امثاله الى جانبنا .
فلما وصل بن أيوب الى مكان الاجتماع حياه الحاضرون في ادب. وأعجب حميد سراج بما يلوح في وجه هذا الرجل العجــــوز ، الذي لا يعرفه ، من امارات النبل والشهامة .
قال حميد سراج بينه وبين نفسه :
ان به ما بأصائل الخيل من قوة وصلابة . على ان مســـحة من الحزن كانت تغشى نظرة الرجل العجوز ، عجب لها حميد سراج .
قال بن أيوب :
ــ سيسمق قمحنا متى تحررت أرضنا .
فأخذوا جميعا يتكلمون . آن بادعدوش يتنهد من حين الى حين وعلي بن رباح يتدخل بكلمة بين الفينة والفينة .
قال بادعدوش فجأة :
ــ ما اشد ما كانت تشعر به هذه الأرض من آلام ، لو كانت حية. قال ذلك وطاف ببصره على الحقول الذاوية ، المجرودة ، هنـــا وهناك .
فقال بن أيوب وهو يهز رأسه :
ــ آ ... نعم ، لشد ما كانت تكابد من آلام ..
فسأل سليمان مسكين :

ـ عن اى شيء يتكلمون ؟
فصمتوا جميعا .
وابتسم بادعدوش ابتسامة طيبة ، غير ان الحاضرين ادركوا انه حزين يائس ، ولاح عليه انه لم يسمع السؤال . قال :
ـ لا شك انها حية . ولاشك أنها تعانى آلاما شديدة .
قال بادعدوش ذلك وهو يتحرك ويهز فى الهواء ذراعيه الطويلتين اليابستين . وأضاف وهو يشمر كميه الواسعين الى كتفيه :
ـ اسمحوا لى . انا رجل عجوز ، ومن حقى أن اقول ، كل شيء . لذلك يجب عليكم أن تغفروا لى كلامى . هاكم ما أريد أن أقوله : رغم اننا قرويون واننا بذلك نستحق شيئا من العطف فان تكبر سكان المدن أقوى من أن يشجعنا على الدخول فى باب الصداقة .
ـ يالها من بداية . وتساءل الحضور ما عسى ان يكون الختام بعد استهلال كهذا الاستهلال .
ان بادعدوش لايستعمل الالفاظ النادرة الالماما فى ظروف نادرة . والفلاحون يحملقون من الدهشة حين يسمعون منه مثـــل تلك الكلمات .
وتساءل الفلاحون عن بادعدوش : أين تعلم هذه الالفاظ ؟ قال احدهم يخاطبه :
ـ تكلم يا بادعدوش كما يتكلم سائر بنى آدم . فما انت الا فلاح !
ان (بن سالم عادة) هو الذى قطع عليه الكلام محاولا منعه من التأثير فيهم . وتابع بادعدوش يقول فى فخامة وهو يلتفت الى حميد سراج :
ـ ان هذا السيد الحاضر هنا رجل من اهل المدن ، لانشك فى انه عالم ومتبحر فى جميع العلوم .. هذا لا نشك فيه ، انه رجل عظيم من سكان المدن ..
صاح بن رباح :
ـ ما هذا يا بادعدوش .. انت مخطيء . لقد انحرفت عن جادة الصواب ، اذا جاز لى أن استعمل هذا التعبير . حميد هو أخونا جميعا .
فأجاب بادعدوش ؟
ـ طبعا . وهذا يشرفنا كثيرا . وأنا أعترف بأن من الممكن ان يكون ابنى ، بل انه ليطيب لى أن اسميه ابنى ، مع أجزل الاحترام الذى يجب له على . أنا لا أريد أن اقول ما قلت للاســاءة اليه ،

صدقوني ، ان شعوري لصادق ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من اهل المدن ، درس كثيرا ، ولا شك انه قرأ كتبا كبيرة . واذا جاء الينا نحن الفقراء ، نحن البؤساء ، نحن الفلاحين ، بعد أن حصل ذلك العلم كله ، فلأن في تلك الكتب التي قرأها شيئا قاده الينا .

ابتسم حميد ابتسامة ضعيفة . وكان الجميع يتفرسون في تلك التعابير الغريبة التي تظهر في وجه بادعدوش . وكان بادعدوش ما ينفك يرسم بذراعيه في الهواء حركات عريضة بطيئة .

كان الفلاحون ينظرون مقطبين . لقد أذعنوا لارادته ، فليقل ما يريد ان يقول ..

— ... واذا كانت العلوم التي اخذها من الكتب، واذا كانت المعارف العميقة التي اطلعته عليها الكتب ، قد فتحت له الطريق الينا نحن المساكين الذين لا نساوي شيئا ، اذا كانت تلك العلوم وتلك المعارف قد قالت له اننا خير من بعر البقر ، فلا شك أننا نستطيع ان نثق به وأن نطمئن اليه . ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من اهل المدن . فيجب علينا أن نشرح له ، يجب عليه أن يعلم أن ...

وشعر الفلاحون بالقلق .

وتابع بادعدوش يعبر عن فكرته في عناد قائلا :

— يجب على هذا السيد الحاضر هنا أن يعلم مع انه ما من شيء جديد قد حصل الى الآن في هذا العالم يمكننا نحن الفلاحين ان نتحسر على جهلنا به رغم أننا لا نساوي شيئا .

فما ان قال بادعدوش هذا الكلام حتى انطلقت الضحكات من كل جهة . اما هو ، بادعدوش ، فقد ظل محافظا على وقاره . الحق أن قلبه ما كان يشتهي أن يضحك . وكان وجهه المشدود يعبر عن حزن قاتل .

— ولكن السيد الحاضر هنا رجل عظيم من اهل المدن ..

وصعق الفلاحون ، واصبحت وجوههم الآن حزينة مظلمة . كيف السبيل الى وقف بادعدوش .

— ... هلا شرح لنا كيف يقبل سكان المدينة الاتفاق مع الفلاحين ؟

طرح بادعدوش هذا السؤال ثم صاح : ؟ .. وملأ الضحك عندئذ كل تجاعيد وجهه . وتابع يقول :

ـ انهم يقترحون علينا أن نتحد ، وان نؤلف حركة واحدة من اجل أن نهز عن اجسامنا الحشرات التى تأكلها . وانا اقول انه من الممكن ان يبرأ العالم من الداء الذي به . والجديد يطرد القديم ما فى ذلك شك . ولكن كيف يمكن ان يتفق سكان المدن مع الفلاحين؟ لعل السيد الحاضر هنا يستطيع أن يشرح لنا هذا الامر ..

قال حميد سراج :

ـ انما نحن اجتمعنا لنتناقش معا فى هـــذه المسائل . فليس الغرض من هذا الاجتماع أن يلقى واحد منا خطبا طويلة وأن ينصت له الآخرون . يجب أن يشارك كل واحد فى المناقشة وأن يبدى رأيه ..

صــاح با دعدوش :

ـ هــذه فكرة عظيمة . ولــكن هل فى وسع الجميع ان يعبروا عن راى ؟ اذا كنت تقصد الشيوخ ، فنعم ، ذلك ان الشيوخ حكمة وتجربة . اما الآخرون ، الآخرون ، فهل هم كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك وقطب حاجبيه تحديا وهو يطوف بنظراته على الحضور ..

قال بعضهم :

ـ فلنبدأ المناقشة . لقد تأخرنا كثيرا .

فقال با دعدوش ، مصرا على تجاهل ما قيل :

ـ هأنذا ابدى اذن رايى . اذا أمكن ان يتحد الفلاحون وسكان المدن ، أمكن الانتقال الى عالم اسهل . ولكن ذلك لا ســـبيل الى تحقيقه . اننا نعرف ماذا ينتظر منا (صاح يقول ذلك فى حدة) اننا نحن الذين سنحيى هذه الارض ، نحن الذين سنبعثها . ان هاتفا خفيا يقول لى اننا مدعوون الى تحقيق هذا الهدف ..

وصمت با دعدوش فجأة ، وغرق فى تفكير عميق .

قال سليمان مسكين بصوت رقيق :

ـ هل لى أن أطرح سؤالا ؟

كان سليمان قد التزم حتى تلك اللحظة موقفا مليئا بالتحفظ .

ـ ساكون سعيدا ، ساكون سعيدا جدا اذا عرفت هل نحن فى اجتماع ؟ أو ان الامر لا يعدو أن يكون لقاء بين فلاحين جاءوا الى هذا المكان ليتحدثوا فيما هب ودب من أمور . أرجو ان تلاحظوا أننى أطرح سؤالا لا اكثر . ولست بالمتنطع الذى يومىء الى شىء أو يعرض بأحد .

جاء هذا الكلام وسط الصمت الذى اعقب كلام با دعدوش ، فكان بما فيه من براعة ومكر اشبه بماء بارد انصب على أجسام هؤلاء الفلاحين . اراد كل واحد منهم أن يرى ما عسى أن يقوله جاره أو يفعله ، وتجمع الانتباه كله حول سليمان مسكين . فالتفت سليمان الى حميد سراج ، فقال حميد سراج :

— أقترح افتتاح جلسة الاجتماع .

فصاح عزوز على :

— بل ينبغى أن نعدها مفتتحة .

فقال عدد من الحضور :

— نعم ، نعم ..

وقال المزارع موافقا :

— ان ذلك يجنبنا كثيرا من الكلام الذى لا طائل تحته ، وانما ينبغى أن تجرى الامور ببساطة وفى غير تعقيد .

قال حميد سراج :

— فى هذه الحالة يجب أن يكون للجلسة رئيس يديرها ، فيعطى الدور فى الكلام لمن يرى منا أن فى ذهنه شيئا يريد أن يعرب عنه .

فقال أحدهم :

— رئيس ؟ ما شان الرئيس فى اجتماع فلاحين ؟

— لم نفهم .. نعم ، ما هو الرئيس ؟

— ما هو الرئيس ؟ ألم يقل لك منذ لحظة ، أيها الجاهل ، ان الرئيس هو الذى يعطى الدور فى الكلام لمن يريد ان يتكلم اثناء الاجتماع ؟

فاعترض با دعدوش قائلا :

— غير اننى لا احتاج الى رئيس من اجل أن أتولى الكلام . اننى أتولاه وحدى .

فقال على بن رباح :

— قيل لك ان الغرض من ذلك هو تجنب الفوضى . وستسرى هذه القاعدة على الحضور جميعا ، لا يستثنى منها أحد ولا تستثنى منها أنت .

فقال أحد الفلاحين معلقا :

— كذلك نحن معشر الفلاحين . نرغب صادقين فى تحسين احوالنا بل وفى تبديل العالم ، ثم نعجز عن عقد اجتماع من الاجتماعات فى هدوء .

ـ اشرح لنا .. لمـــاذا ..
فأجاب حميـــد سراج :
ـ ســأقول لك ..
فانطلقت اصوات تطلب الصمت :
ـ صـــه .. صـــه ..
ـ لقد اجتمعنـــا هنا لنتناقش فى أمور تهمنا . ومعنى ذلك ان كثيرين منا سيريدون أن يتكلموا ، فاذا تكلمنا جميعا فى آن واحـد عجز من فى الشرق عن سماع كلام من فى الغرب ، واســـتولى الاضطراب والاختلاط على أقوالنا رغم ما تحمله من حسن النية . لذلك لا بد من رئيس يرأس الجلسة اذا كانت الامور التى نريد ان نتناقش فيها تهمنا ، فهذا الرئيس هو الذى يســـمح بالكلام لمن يطلب الكلام ، وهو الذى يسهر على ألا يشوش اجتماعنا مشـــوش
ـ كلامك صحيح أيها الاخ ..
ـ الله يرحم أجدادك .
ـ رئيس ، رئيس ، من يكون الرئيس ؟
ـ بن أيوب ..
ـ سيد على .
ـ لا ، يا دعدوش .
وضحك الجميع .
ـ سيد على ، سيد على .
وردد عدة أشخاص يقولون :
ـ سيد على ، سيد على ..
فسأل حميد سراج :
ـ هل يوافق الجميع على أن يكون سيد على رئيس الجلسة ؟ وهل سيد على موافق على ذلك ايضا ؟ اذن انتهينا . سيد على هو رئيس الجلسة .
قال على بن رباح :
ـ سيكون أمرا مؤسفا حقا ألا نستطيع تسيير الامـــور الآن كما ينبغى أن تسير .. ها .. عفوا .. انا لم أطلب الـكلام .. هـــل يسمح لى الرئيس بالكلام ؟ أقول : سيكون أمرا مؤســـفا حقا ألا نستطيع الوصول الى جوهر الموضوع من جانب أو من آخر .
قال سليمان :
ـ ليس هناك الا أن نعرف فورا ما الذى يجب علينا أن نقوم به من عمل . ؟

فقال علي بن رباح :

- ابدا .. وانما يجب أولا وقبل كل شيء ان نتفق . يجب أن يفكر كل واحد منا بكل حرية ، وأن يعرب عن رأيه . ولن ننتهي الى تقرير ما يجب علينا أن نقوم به من عمل الا بعد ذلك . والا لم تجر الامور على ما نحب .

قال با دعدوش مستاء :

- ما هـذا الـكلام أيها الشبان ؟ حقا ان الشبان شبان في كل زمان ومكان . طبعا أنا موافق . موافق وموافق . والا لم تروني في هذا المـكان .

قال المزارع الذي لم يكن قد فتح فمه بكلمة منذ مدة :

- كذلك نحن معشر القرويين ، كذلك نحن من زمان طويل : اذا طلب الينا أن نقوم بعمل من الاعمال ، أخذنا نتناقش ، ونتحرى جميع الاسباب والحجج التي تعفينا من العمل . نكتشف العقبات والحواجز في كل مكان ، ونبحث عن الاعتراضات على كل شيء ، ونلتمس جميع الادلة التي تبرهن لنا على انه ما من سبيل الى فعل اي شيء من الاشياء ، وانه ما من وسيلة الى التحرر من حالة السكون ، سكون الصخر ، التي صرنا اليها . حتى لـكأن لسان حالنا يقول : فليبق كل شيء على ما هو عليه ابد الدهر . فاذا رأينا امرا معوجا ، اذا رأينا أمرا لا يسير على ما نحب ونرضى ، قلنا هي مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته . حتى اذا فرغنا من مثل هذه الاقوال الجميلة ، رضينا عن انفسنـــا وخلدنا الى الراحة ! كذلك نحن معشر القرويين .. قولوا لي من فضلـكم : ما هو العمل الذي نكون قد قمنا به حتى نخلد بعده الى الراحة ؟ اننا نحس اننا حققنا ما علينا ، وان الواجبات قد سقطت عنا . والحق اننا لا نبالي شيئا ولا نكترث بشيء ، لا نبالي حتى بحياتنا ، رغم انه قيل : اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا .

قال المزارع هـذا الـكلام وهو ينظر الى الفلاحين واحدا بعد واحد ، وفي عينيه نوع من رجاء صامت أو ضراعة خرساء ، فاذا بجميع هؤلاء الرجال يصبحون على حين فجأة مهمومين مغمومين . والتفت المزارع الى حميد سراج واردف يتابع كلامه :

- أرجو ألا يجعلك هذا الكلام تسيء الظن بنا ، فتخاف أو تتثبط عزيمتك . وأرجو الا تستاء .

ثم أضاف يخاطب الفلاحين :

ـ اننا فى حقيقة الامر متفقون . متفقون خاصة على أن نعمل ، ولكننا درجنا على ان نتكلم كثيرا قبل ان نعمل اى شىء . نحن اناس نحب الكلام . أرجو خاصة ألا تستاءوا مما أقول :

وكان يبدو على با دعدوش العجوز انه حانق تقريبا ، ولكن عينيه الصافيتين ظلتا فرحتين .

وختم المزارع كلامه بقوله :

ـ نحن اناس حزانى ، والحق يقال .

ـ فقال له بادعدوش وهو ينظر اليه بعينيه الجذلتين اليائستين معا :

ـ حزانى ؟

فاجاب المزارع يردد فى هدوء وحلم :

ـ حزانى جدا ... اننا مستعدون دائما لان نرى كل شىء من جانبه المظلم السيىء ...

فتلقى العجوز هذه الكلمات بوجهه دون أن يجيب عنها بشىء .

وأردف القولوغلى الكبير يتابع كلامه بقوله :

ـ نحن ما ننفك ننتظر شيئا جديدا ، ثم ما ننفك نيأس من الحصول عليه ..

قال با دعدوش مرتبكا ، وقد اخذ ينظر فى يديه على حين فجاة :

ـ هذا صحيح .

فاضاف المزارع يقول دون أن يحول بصره عن العجوز :

ـ قد يكون صحيحا ، ولكن ما معناه ؟

فقال با دعدوش دون أن يرفع راسه :

ـ ها . . . . نعم ..

ـ وهذه هى النقطة الهامة ، هل فهمت ؟

قال القولوغلى الكبير هذا الكلام ، وهو يطوف ببصره على الفلاحين :

ـ النقطة الهامة هى ان هناك شيئا يؤلمنا . هذا ما اعتقده . قد لا استطيع أن اشرحه ولكننى أعتقده . ما الذى نفعله حين نذعن ونعد كل شىء ضائعا ؟ نفعل الشىء الذى نكرهه اشد الكره .. يخيل الى ان هذا هو الامر . وذلك بعينه هو ما يجعلنا حزانى جدا .. الا انه لأمر واضح مفهوم .. ولكن من قال ان كل شىء قد ضاع ؟

ونظر حميد سراج الى المزارع الذى صمت .

وراح المزارع يتأمل الحقول الحزينة التى تختنق بين الصخور . هذا شبح الجزائر ... هذا هو الواقع ، واقعه . اما الاراضى الغنية الثقيلة المتعبة بالزراعة فانها تبدو لعينيه حلما من الاحلام . وفى هذه اللحظة أصبحت نظرته رقيقة ، حانية ، فارغة ، تائهة .. واكاد أقول مؤثرة .

وتابع المزارع :

ـ اننا نراقب أنفسنا ، فنقول : كذلك هو شعبنا . أليس صحيحا ؟ أليس هذا ما نقوله ؟

قال المزارع ذلك وضحك على مضض ، وايدالآخرون كلامه وهم ينتظرون تتمته :

ـ يخطر ببالي واحد من الناس ليس الا مزارعا هو قره ، فأقول لنفسى أحيانا : الا اننا لشعب حزين ، فلولا اننا شعب حزين أكنا نقول : كذلك هو شعبنا ، مشيرين الى رجل واحد هو قره ؟ أكنا نقول ذلك ؟ والآخرون الذين ليسوا مثل قره ، أهم جميعا أصفار ؟

ثم قال القولوغلى الكبير بقوة :

ـ ما أظن ان فى الدنيا مكانا يحتقر فيه هذا الجنس من الناس كما يحتقر عندنا .. صحيح أن عددهم كبير ...

شعر جميع الفلاحين بغضب وحزن ، وشعروا بقلق .

واضاف القولوغلى الكبير يقول :

ـ فاذا كان هؤلاء محتقرين ، اذا كانوا يحتقرون فى هذا البلد اكثر مما يحتقرون فى اى بلد آخر ... اذا كنا ننغص عليهم حياتهم ، فلماذا نقول اننا شعب حزين ؟

لاشك ان المزارع قد قال هذه الكلمات فى سبيل مصلحتهم جميعا ، ولكنها أيقظت فى قلوبهم حزنا كبيرا وغضبا كبيرا . فكانوا ينظرون اليه مهتاجين .

ثم راح المزارع يتحدث عن نفسه . قال انه ولد فى تلمسان ، حيث ولد أبوه ، وولد جده ، وولد أبو جده ، وان ماضى أسرته فى تلمسان قديم قدم تلمسان نفسها ، وان هذه السلالة الطويلة من كبار القولوغلى ، قد زرعت الارض السخية فى السهول ، وان أملاكها تحت الشمس كانت تعد فى الماضى بالفدادين . ثم ها هو ذا ينتهى به الامر ، هو القولوغلى الكبير ، الى ألا يملك الا هذا الجزء الصغير من الارض فى الجبل . نعم ، قطعة صغيرة من الارض ، وفى بنى بوبلان الاعلى . انه مزارع ، مع انه ولد بمدينة

تلمسان ، مع انه من تلمسان . طيب . وعلى كل حال فهو يقيم الآن فى بنى بوبلان بين جبل عطار وطريق سبدو ويملك أرضا ليس لها شأن يذكر ، ولا تكاد تكون شيئا . وهو أب لثلاثة أولاد كبار . وحين يطوف فى أرضه يشعر رغم كل شىء بالزهو . فهو يقول لنفسه عندئذ ، من فرط شعوره بالزهو ، انه ملك . وهو يسمى أولاده تارة باقات الزهر ، وتارة أسود الفلاة . غير انه لا يحس ان هذا كل شىء ، ولا يبدو له انه يكفى المرء أن يحسب نفسه ملكا وأن يكون له ثلاثة أولاد هم أشبه بباقات الزهر أو بالاسود . انه يحس بشىء حزين فى نفسه ، لا بشىء حزين ، بل بشىء جديد . ويحس أيضا بانه غير راض عن حاله ، ويحس بالكثير من خيبة الامل . انه يحس ، نعم هذا هو احساسه ، بانه مختلف عن مزارعى بنى بوبلان الاعلى ، ويود لو يرتاح ضميره بأى ثمن .

ــ يخيل الى ان ضميرى لن يهدأ ابدا .

قال ذلك وصمت دون أن يتم كلامه .

ثم قال :

ــ وقد اشتد هذا فى نفسى منذ رأيت سلوك قره . يخيل الى ان راحة ضميرى ما انفكت تقل منذ ذلك اليوم .

قال بادعدوش :

ــ صحيح كلامك ايها السيد .

فنظر اليه القولوغلى الكبير من قمة الراس الى اخمص القدمين ، ومن أطراف يديه الضخمتين الى شعر حاجبيه الكبيرين .

وعاد الفلاح العجوز يقول له :

ــ اعتقد انك على حق فيما تقول .

فقال القولوغلى الكبير عندئذ انه يود أن تهب على الناس روح جديدة فتحملهم على القيام بأعمال تبعث على الدهشة ، بأعمال جديدة ايضا ، بأعمال ليست من تلك الاعمال المألوفة ، بل هى احدث جدة وأخطر شأنا . وانه يتمنى فى هذا اليوم ، لنفسه وللآخرين ، روحا وثابة وأهدافا عليا . اذا كان الناس حزانى فلأنهم تعوزهم روح جديدة واعمال كبيرة . ان العالم لا يطلب الا تحقيق أعمال كبرى . فلا عجب اذن أن يحس ، هو القولوغلى الكبير ، بانه وحيد مع حزنه : ذلك لأنه لا يحقق أى عمل من تلك الاعمال التى تبدل العالم . الاعمال الكبيرة والنفس الجديدة . هذا ما يتمناه .

بهذا ختم الرجل كلامه .
ثم ما لبث ان اردف يقول :
— ان العالم يتحمل مظالم كثيرة . آه ما أكثر ما يتحمل هـذا العالم من اذى ايها الاخوة . انني اتألم ايها الاخوة ، انني اتألم ايها الاخوة .
فقال سليمان مسكين :
— انت تأخذ على الناس اذن انهم لا يعرفون كيف يعيشون .
فأجابه القولوغلى الكبير :
— هو ما تقول .

— ولكن قبل ان يعرف اخوانك كيف يعيشون ، يجب ان يتمكنوا من ان يعيشوا . ما رايك ؟
— صحيح ، صحيح .
— فهل نحن نعيش ؟ نحن والاخرون.. من نعرفهم ومن لا نعرفهم وهم السواد الاعظم ؟ هل نحن نملك حرية الحياة ؟
— لا نملكها .
— نحن لا نملك اذن حرية العيش كما نريد .
— اسمح لى : لو امتد عمرى مائة سنة فساظل اقول ما قلت .
— حسن أن تقوله . قل ما تشاء أن تقول . ولكننى واثق اننا لا نستطيع أن نلوم أحدا على انه يعيش كما نعيش ، الا اذا كان حرا.
— انا من جهتى مستقل بشخصى . انا حر حين اريد .
— قد تظن انك حر بشخصك . ولكن شعبك ليس حرا ، وانت اذن غير حر أيضا . ذلك انه لا وجود لك الا فى شعبك . هل فى وسع ذراعى هذه ان تعيش بغير جسمى ؟ ابدا . ومع ذلك قد نتوهم حين نرى حركتها انها مستقلة ، او قد نتوهم ان هـذه اليد مستقلة عن الذراع ، او قد نتوهم ان هذه الاصابع التى تقبض على ماتريد القبض عليه ، قد نتوهم انها مستقلة . كذلك شانك انت بين اخوانك .

— على كل حال سوف يسعدنى كثيرا ، سوف يسعدنى كثيرا جدا ان ارى جميع الناس كالباقات .. ولكننى ارى باننتظار ذلك اننا نهين الحياة .
فقال عيسانى عيسى :
— انما اجتمعنا اليوم هنا من أجل ان نخلص العالم من الاهانة .
كان ذلك أول اجتماع . وكان حميد سراج يفهم ان عليه ان يصغى

الى كلام هؤلاء الرجال . ليس بالضائع هذا الوقت الذى ينفق فى هذا الـكلام ! اليس لهذا الحديث صلة كبيرة بموضوع الاجتماع ؟ طبعا .. وان حميد سراج ليتعلم من هذه الاحاديث أشياء كثيرة . كان يدرك ان الفلاحين يتكلمون بصراحة ، دون تحرج ولا خوف ، وانهم يعبرون عن طريقتهم الحق فى النظر الى الاشياء . وهذا هو الامر الاساسى .

ولـكن بينما كان الحضور يتســاءلون عن هــذه المناقشة بين الرجلين هل تطول ، اذا بن سالم عاده يرفع صوته قائلا :

ـ لماذا لا تتكلمون عن المستوطنين الفرنسيين ؟ كل ما تقولونه سليم حكيم . ولـكن ما فائدة هذا كله ؟ انكم لم تقولوا حرفا واحدا عن هؤلاء الذين نشقى بسببهم . انهم هم مصدر بلائنا كله . فاذا تحدثتم عن الشقاء الذى نعانيه دون ان تقولوا شيئا عن المسئولين عنه فأنتم تتعبون السنتكم سدى . نحن اناس حزانى ، هذا كلام صحيح ، وأنا أقوله لنفسى ، واقلبه فى راسى . وذلك لاننا نفكر فى شقائنا ولا نفكر فى مصدره ، وانما ينبغى لنا ان نتحدث عن اولئك الذين هم أصل البلاء . معذرة أيها الاخوة جميعا .. اذا قلت ما قلت فلأن هذا هو ما يجب فى رأيى أن يقال .

لفظ بن سالم عاده هذه الـكلمات بلهجة مفاجئة عنيفة . وكان وجهه الناتئة عظامه يعبر عن كل شقاء الجزائرى الذى سلب رزقه ، ولـكن احدا من الرجال لم يرفع صوته بكلمة .

ان بن سالم عاده فلاح فى دمه حرارة . يجب ألا يؤاخذ كثيرا انه لا يحقد على أحد .

ولكن ها هوذا السؤال قد طرح . امر غريب : لكأن احدا ما كان يتوقع ذلك .

دهش الرجال جميعا . وليس فيهم الان ما كان فيهم منذ قليـل من هياج . لا . وانما اصبحوا على حين فجأة اكثر وجوما وتفكيرا .

استرد حميد سراج ثقته وطمأنينته . لقد طرحت المشكلة حيث ينبغى ان تطرح . واراد سراج أن يجيب بن سالم عاده اول المجيبين، ولكن سيد على كان قد شرع فى الكلام :

يقينى انه ما من بلد من بلاد الدنيا أحيط فيــــه اناس بالمودة والعاطفة مثلما احيط بهما الفرنســـيون فى بلادنا . فكيف رد الفرنسيون على هذه الصداقة التى كانت ـ واقسم على ذلك بهذه الارض التى تضمنا الان ـ صادقة مخلصة ؟ كيف رد الفرنســيون

على هذه الصداقة ؟ ردوا عليها بالاستخفاف بنا ، والازدراء لنـــا .
لم يشاءوا أن يعاملونا معاملة الند للند ، بل عاملونا في احتقــار .
نحن اناس نقيم وزنا للصداقة التي نمحضها خالصـــة ، لذلك لم
نساوم ، بل أعطينا أنفسنا في غير تحفظ . ولمن اعطينا انفســنا ؟
لأناس برهنت الايام على انهم ليسوا أهلا للصداقة ، فهم يدوسونها
بالاقدام . لقد نصبوا أنفسهم آلهة وأربابا وأرادوا ان نتجـه اليهم
بالعبادة . رحم الله اجدادك يا بن سالم ، فقد أتحت لى فرصــة
الافصاح عما بنفسي .

ليس سيد على الا فلاحا ، ولكن تلك هي الكلمات التي قالها :
اناس يدوسون الصداقة بالاقدام .

كان سيد على رجلا يحترمه أهل المنطقة ويقدرونه . كان ، كمدد آخر من الفلاحين ، يفصل في شئون الناس ، يصلح بين زوج وزوجة يسوى ما يقوم بينهم من خلاف . وأكثر الامور التي كان يتـولى الفصل فيها أمور تتصل بالشرف . وكانت آراؤه ناضجة واعية ، فكان الناس يأخذون بها عامة . ويحمدون الله على انه رزقهم رجلا مثله يرشدونهم الى جادة الصواب .

وطلب سيد على الكلام مرة أخرى ، وقال :

ـ كان من حقنا نحن أن نقبل صداقتهم أو ان نرفضها . فاذا هم يقلبون الآية . لماذا؟ لاننا محضناهم صداقتنا في غير تحفظ . والحق انهم يظلون هم المدينين ، ونظل نحن الدائنين ، ان لنا في اعناقهم دينا . فكيف ترونهم يردون الدين ؟ انهم في خير الاحوال يراعـون جانبنا قليلا ، أما الصداقة فلا مجال للحديث عنها ، انهم يتصدقون عليناتصدقا ، وذلك اقسى على النفس من الاحتقار . ورب قائل يقول: دعك من هذا الكلام ، أفليس بينهم أناس شرفاء صادقون ؟ فاجيب : بل ان بينهم أناسا كذلك . ولكن هؤلاء لايبالون شيئا، وذلك يقتلهم . المسلمون : جنس آخر من الناس ، انهم ليسوا بشرا . والنتيجة هي انهم يطلقون أيدى الآخرين تفعل ما تشاء ، يطلقون أيدى هؤلاء الناس الذين لم تحمل الارض من هم أشد شراهة منهم ولا أضعف ضميرا . وهم بذلك شركاء لهؤلاء الناس ، يتحملون مثل الذى يتحملون من تبعات كبار ، سواء بسواء . أفليس طبيعيا والحالة هذه أن نهب الان فندافع عن أنفسنا ؟ حتى اولئك الذين يقارفون أعمالا هي من أعمال قطاع الطرق قد استطاعوا ، وليسوا بالاغبياء ، أن يلقوا على ظهر فرنسا هذه الاعمال التي يقارفونها ، ولكنهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك

لولا أن الجميع لا يبالون • هذه الآثام الحقيرة التي ترتكب على ارضنا اليست ترتكب باسم فرنسا ؟ الا يتم سلب الناس ارزاقهم باسم فرنسا ؟ الا يودع الابرياء في السجون باسم فرنسا ؟ الا يجوع الناس باسم فرنسا ؟ الا ترتكب جرائم القتل باسم فرنسا ؟ لقد اقترن اسم فرنسا بأعمال حقيرة . ولن يستطيع أحد بعد الان ان ينتزع من رءوسنا ان هذه الجرائم يجب أن تعزى الى فرنسا في آخر تحليل • ماذا يهمنا نحن ان تكون فرنسا عظيمة مجيدة أو الا تكون كذلك • نحن نتساءل : وهي راضية عن هذا أم غير راضية؟ فان كان هناك أناس غير راضين فليرفعوا صوتهم . اننا نحب ان نسمعهم قليلا

قال الفلاح هذه الكلمات الاخيرة بصوت قاس وهو يتجه بها الى خارج الحلقة . ثم اردف يقول في رصانة :

لم يستطع الاضطهاد في يوم من الايام ان ينتصر على الشعوب .

فقال حميد سراج :

ان اتحاد الشعوب سيمزق هذا الاضطهاد في جميع البلاد .

ـ أصبح شعبنا منذ مدة طويلة لا ينتظر شيئا من فرنسا وما يريده الان انما يطالب به نفسه ، يطالب به ذاته .

قال حميد سراج مقاطعا :

ـ طبعا . ولكنني أعتقد أنك تنسى شيئا . ان عندهم ، هم أيضا ، رجالا كثيرين مثلنا ، في بلادهم نفسها . هل تعرف ماذا يقولون ؟ انهم ضد سلطاتهم .

فقال سيد علي دهشا :

ـ ماذا . . ماذا تقول ؟ لا ، انني لا اصدق هذا الكلام .

ـ الأمر بسيط : ان عددا كبيرا من الناس في بلادهم يعملون بأجر زهيد لا يذكر ، فهم جياع ، وهم يلاحقون ويعتقلون . . في فرنسا .

قال علي بن رباح بصوت عال :

ـ هل هم سكان أصليون ؟

ـ ان شئته . وهم مثلنا تقريبا . لقد سكنت أنا هنـاك ، ورأيت بعيني . هناك بين الفرنسيين اناس فقراء . . صدقني .

فلم يسع سيد علي الا ان يقول :

ـ كلامك هذا يدهشنا ويحيرنا يا حميد .

وغرس الفلاحون نظراتهم في عيني حميد سراج ، وانتظروا .

ـ هذا هو الواقع . . اقسم لكم بحق هذه النعمة .

قال حميد سراج ذلك وهو يرفع ابهام يده في الهواء مشيرا الى

الحقول المتدرجة على الروابي . ثم اضاف :
ــ اقسم لكم بحق هذه النعمة القريبة منا .. اقسم لكم .
واطرق الفلاحون يفكرون . ان هؤلاء الفلاحين رجال لا يسبر لهم قرار . انهم ليسوا من صخر بارد . انظر الى كل مايحيط بهم : الحقول المبعثرة ، الشمس والامطار ، البذور التي في التراب ، الماء الذي يسقي الارض ، السحب التي تتحرك في السماء ، الاشـــجار التي تتلقى هبوب الريح .
قال سيد علي :
ــ أعد ماقلته . اولئك السكان الاصليون في تلك البلاد ، ماذا يقولون ؟
ــ ما ذكرته لكم منذ لحظة : انهم ناقمون على سلطاتهم ، يريدون التخلص منها . انها توقع فيهم مظالم كثيرة .
قال بن أيوب :
ــ السلطات التي تحكم هنا وهناك واحدة ؟
ــ نعم ، هي سلطات واحدة تظلم هنا وهناك في آن واحد . فصاح بادعدوش يقول :
ــ اذن ففي جميع البلاد سكان أصليون ارقاء .. انني لا استطيع ان اصدق هذا الكلام . هل كل بلد من البلاد له سكانه المملوكون كالعبيد الارقاء ؟
فقال حميد سراج مؤكدا :
ــ ان التضامن مع الذين يعملون ويتألمون ويناضلون واجب . ثم ان هذا التضامن قائم فعلا .
وفي هذه اللحظة بدا على سيد علي ان فكرة مفاجئة قد اشرقت في ذهنه ، فصاح يقول بلهجة مظفرة :
ــ ولكن السلطات التي تحكم هناك هي سلطاتهم هم ، اما هنا .. فالذين يحكمون اجانب .
ــ فقال حميد سراج :
ــ صحيح . ولكنهم يقولون عن سلطاتهم هناك انها أشبه بالاجانب.
ــ غريب .
قال سليمان مسكين :
ــ ... لا مانع ابدا ان يقوم اتفاق بيننا وبين الســكان الاصليين هنالك .. مادام رأيهم ورأينا في السلطة واحدا .
واضطرب الهواء في أصيل ذلك اليوم . واهتزت اوراق شجرة

التوت اهتزازا قويا كانها ايد مفتوحة تستقبل الريح . وكان بن ايوب ما ينفك ينظر الى حميد سراج أثناء الاحاديث . انه لم يفهم نوع هذا الانسان كل الفهم . غير ان شيئا من مودة رصينة خفية قامت فى نفسه ازاءه . ثم جاءت لحظة انفضاض الاجتماع ، ونهض الرجال .

تلك أول مرة يتناقش فيها الفلاحون على هذا النحو . ان عاطفة ممتعة قد نشأت فى نفوسهم . هم يشعرون الان بالدهشة . ويحسون أنهم غسلوا وتطهروا ، وأصبحوا خفافا . كانوا حتى ذلك الحين لا يلتقون الا للكلام فى واجبات صغيرة ، واعمال قديمة ، وعادات عتيقة . لقد قال بن ايوب : نحن فى حاجة الى روح جديدة. الا انها روح جديدة هذه التى يحسون تدفقها فيهم الان . وهذا دعاء أعتراف بالجميل يقوم فى قلوبهم . انهم يحملون جميعا مشاعر الشكران لحميد سراج .

قال الرجل العجوز الذى ابتعد بعد انفضاض الاجتماع فى صحبة بن أيوب يسأل رفيقه :

ــ هل أنت طالب علم ؟

فهتف القولوغلى الكبير :

ــ انا ؟ طالب ؟

ــ لاحظ أن من الممكن أن يكون المرء طالبا ومزارعا فى آن واحد . أليس كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك معترضا بغية اقناع صاحبه .

فاذا هو يسمع القولوغلى الكبير الذى يسير بجانبه يضحك : ان ضحكته أشبه بصوت احتراق القش .

وكانت عيناه النافذتان تلتمعان فرحا .

قال له با دعدوش وهو يلتفت اليه :

ــ لا داعى الى الضحك .

وعاد القولوغلى الكبير يتحدث عن نفسه من جديد ، فقال مرة أخرى انه ولد بمدينة تلمسان كآبائه وأجداده ، وتحدث عن ارضه فى بنى بوبلان الاعلى ، وعن ابنائه الثلاثة الذين يسر جمالهم الابصار ، والذين هم باقات زهر واسود فى آن واحد ، وتحدث عن نفسه . كان فى هذه المرة يضحك ضحكا عاليا وهو يعيد هذا الحديث . وردد القول ، وهو يقهقه ، بأن ذلك كله لايعنى انه لايشعر بالعظمة والزهو حين يطوف فى ارضه ، رغم أن ضميره غير مرتاح واضاف الى ذلك وهو لايزال يضحك انه لابد من وعى جديد .

قال القولوغلى الكبير ، وهو فيما يشبه التفكير .

ـ نعم ، أعتقد ذلك .

ثم تحدث بعدئذ عن العالم بوجه عام .

ـ أصبحنا ونحن نقوم بواجباتنا لا نشعر بلذة وارتيـاح . وانى لاعتقد صادقا أن حياتنا فقدت معناها . اننا لانعرف الا الواجبات القديمة .

ـ أحقا أنك لست طالب علم ؟

كان بادعدوش يريد أن يعرف هذا الامر .

وكمن يتوقع جوابا ينكأ له جرحه ، صمت ولم يقل بعد ذلك شيئا، وظل صابرا حزينا كبهيمة عجوز . ونظر فى الوقت نفسه الى يديه الضخمتين . غير أنه أضاف يقول بنوع من التوسل لشدة رغبته فى سماع الجواب :

ـ اذا كنت طالبا حقا ، فلا شيء يمنعك من ان تقول ذلك .

فأجابه بن أيوب :

ـ هل سيمائى طالب علم ؟ لست بالجاهل طبعا ، فأنا استطيع ان اقرأ مكتوبا . ولكننى لست طالبا . لقد تعلمت فى الكتاب حين كنت صبيا غير انى لست طالبا .. حقا لست بطالب .

- ١١ -

سطوع شهر آب ينصب فى جميع الجهات جدرانا مخلعة تبهر الاعين ، فالحياة كلها هنا مسجونة بين هذه الحيطان . جناح الحرارة الثقيل يخفق وضياء الظهر المتلألىء يهز هذا الغناء الاحمر الى غير نهاية أمام الابصار .

ان عمر ينتظر منذ خمس دقائق طوال . لم يكن فى ذهنه الا فكرة واحدة ، رسخت فيه واستقرت . لم يعد يتحرك . ان فى وجهه حرونا غامضا . وفى قسماته المتفخة ، كقسمات الطفل ، ما يشبه النوم . ان لطخات من الشمس تخترق ، فى المكان الذى هو فيه ، أغصان أشجار التين المورقة التى تتكاثف وسط الحقل ، وتشكل قبة فوق النبع .

والارض المتوهجة تلهث من حوله فى كل صوب . وتلك الحقول تنتهى هناك ، عند الافق ، على جبال شاحبة .

كانت فكرة عمر تطارده . ثم توقف مجرى تفكيره فجأة ، واخذ ينتظر فى غير مبالاة . لا جدوى من التفكير . على انه لا يعرف مع ذلك ما الذى يوقفه . ماء النبع يغور أمامه فى كتلة كبيرة من الانعكاسات ويستحيل فجأة الى زبد مدوخ عندما تحرك نسمات الريح أوراق الاشجار فوقه ، فاذا بأشجار التين تحك الهواء بحليبها المر وتنشر رائحة حادة .

كان الصبى مثبتا نظراته على (زهور) الواقفة فى وسط النبع ، وقد شمرت ثوبها وراحت تصب على ساقيها الماء براحة يدها . كانت زهور منحنية ، لاتشعر بوجود عمر بين أشجار التين الساكنة ، ولا يبدو عليها أنها ترى هذا الماء ، ولا الرمل والحصى والحجارة فى قاعه . وكانت ربلتا ساقيها تشتدان كلما ازداد جذعها انحناء ، وكان بدنها يزداد بياضا بمقدار علوه فوق الساقين نحو الفخذين .

ان عمر يحتذى خفين ملطخين بطين جاف ، وقد ثقب ابهام قدمه وجه الخف ، وبليت النعل فاخذ قنبها يتفكك خيوطا . ان عمر هذا الفتى لا يتجاوز الحادية عشرة فى أكثر تقدير ، غير انه من الواضح ان جسمه الذى لا يتناسب طوله مع سنه كان يربكه . هذا عنقه

يخرج من قميصه الممزق لينا صلبا .
شيء خارق للعادة : ان زهور ، اذا هي ردت بصرها عن الارض ، لا ترى الا صورة مختصرة غليظة لجسمها ، منعكسة على الماء . ساقان غاطستان الى وسطهما ، فكأنهما طرفان ضخمان مفصولان طافيان على الماء ، يبدوان أشد بياضا من بياضهما فى الواقع . وكانت زهور تضحك ، فما تتأثر من ذلك قسمات وجهها الجامدة أى تأثر . وقدماها تسحقان الرمل . فيلتصق الرمل بجلدها علقات صغيرة . وحاولت زهور أن تعرف فى هذا الماء الذى كان كالمرآة : هل تستطيع ان ترى بين ساقيها وفخذيها شيئا آخر ، فانحنت فلم تر وراءها الا صرزرة اليتيها البارزتين ، اما من الامام ، فثمة وجهها المحتقن قليلا وركبتاها اللتان تتقدمان .

قالت بصوت رصين دون أن تغير وضعها :

ـ عمر .

حاولت أن ترى من تحتها الصبى الذى كان يختبىء وراءها بين الجذوع النحيلة والاغصان الملتفة .

ثم رددت وهى تنشق الهواء فى شخير :

ـ عمر .. فيم تنظر ؟ أنت هنا منذ ربع ساعة .

وشخرت مرة أخرى .

ـ هيا اذهب .

ثم انتصبت واقفة ، فتهدل شعرها على وجهها شباكا متداخلة ، وجمعت أطراف ثوبها كالصرة بين فخذيها والتفتت براسها الى ناحية الصبى . كان حب الاطلاع ينهش الصبى نهشا ، وهذه ضحكة كانت ستنطلق مرحة قوية فى الدقيقة التالية ، فى الثانية التالية ، تخرج من اعماق نظرة الفتاة .

ـ قلت لك اذهب . هيا اذهب . ما وقوفك هنا ؟ اذهب . يا لك من غبى . لكأنك تنام فى وسط هذه الاشجار .

وقطب الصبى وجهه . لا ، لا ، فى زحمة أوراق الاشجار ، والاغصان المعرشة ، والجذوع الفتية البيضاء ، لم يكن يلوح على وجه الصبى أنه نائم ، لا .. غير أن الصبى لم يكن يتحرك .

كان الضوء الساطع يظهر الاشجار المنعكسة على الماء القاتم الذى يخدده تلألؤ متحرك ، كان يظهرها غير ذات صلابة ولا سمك .

وكان يبدو على الفتى رغم كل شىء انه يود لو يهرب ، ولكنه ما أن يهم بان يفعل حتى تسمره نظراته فى مكانه . وظل عمر

متشبثا حيث هو . ان ساقيه ، وقد أصبحتا كاللباد ، تنفذان في الارض . وجسمه معلق في الهواء . كان لا يستطيع ان يفر ولو اراد ذلك بكل ما اوتي من قوة . ثم انه لن يجديه نفعا أن يحاول الفرار ، فانه ان حاول ذلك لم تطاوعه ساقاه . كان يتموج تموجا خفيفا لا يدرك ، وكانت عيناه تعبران عن قلق كبير .

ثم تحرك عمر حركة بسيطة ، وقد زال بأسه . شد اليه باحدى يديه واحدا من تلك الاغصان اللينة ثم خلاه يضرب الاوراق ، وتقدم يسير على رءوس أصابعه . وما هي الا لحظة حتى ضرب بيديه الهواء الذي وراءه ، وأسرع يركض تحت أشجار التين بخطا خفة الصماء الخفيفة . وهناك اصطدم بزهور التي تركت الماء حين رأت الصبي على هذه الحال . كانت قد أرخت ثوبها ، فهو يتهدل الآن على ساقيها . واصطنعت سيماء الجد دفاعا عن نفسها . ولكن هذه السيماء لم تلازم وجهها مدة طويلة ، وسرعان ما حل محلها الدهش فالضحك . وقف عمر امامها مباعدا ساقيه ، وانتصب في مكانه وقد عقد عزمه على الصراع .

قالت له زهور مهددة :

ــ ستبقى هادئا ، هه ؟ والا فسأنادي بأعلى صوتي .

وما لبثت ان ندمت على ما قالت ، لان ما قالته حمق وغباء . أن عمر لايجهل أنها ان صاحت فلن يسمعها من البيت أحد . وتنفست زهور تنفسا عميقا ، وتهيأت لاظهار العنف ، لانها لاحظت أن الفتى قد أعد نفسه لمثل هذا العنف في زهو وصلف

وفيما كانت الفتاة تقرب يدها على وجه عمر وهي تنوى أن تداعبه ، انحنى الصبي في قوة ونشاط ، وأمسك بثوبها محاولا أن يرفعه ولو تمزق اربا اربا ، فما لبثت زهور ان تشبثت بأطراف الثوب مستميتة تريد أن تظل مستترة . ومن أجل أن تعزز مقاومتها ، طوت جسمها وثنت ركبتيها حتى لامستا صدرها . وفي هذه اللحظة اخذت اشجار التين تهتز وتتحرك من هبوب الريح عليها . فأصاخ عمر بسمعه ، دون أن يكف عن شد ثوب زهور . ان الفتاة قد كورت نفسها الآن بعنف ، فكلما ازدادت تجمعا على نفسها ألفت كرة في وسط جسمها . فتركها الصبي . ولم يكن عليه ، وهي في هذا الوضع ، الا ان يدفعها الى الوراء دفعة يسيرة حتى يرميها على الارض ممددة بطولها كله . وكذلك فعل .

فلما ارتمت على هذا النحو ، هرع اليها وجعل يدغدغها تحت الابطين

وعلى الاضلاع ، فصفعته على خده ، فأخذ يعضها عضا خفيفا فى كل موضع من جسمها بغير تمييز ، فى الذراعين ، والعنق ، الخ . . فكانت زهور تضحك وتتوسل وهى مستسلمة . سكن عمر . ترى هل سكونه تمهيداً واستعدادا للغدر بها ؟ نض عمر عن الفتاة ثوبها على قدر ما استطاع ، حتى ظهر له النهدان . وحين راى بطن زهور العارى طافت فى ذهنه على حين فجأة صورة حصان ، حصان فخم ، عجيب ، مشئوم بعض الشؤم ، الا انه حيوان يسمح له بجميع الآمال .

لم تحرك الفتاة ساكنا . اسلمت جسمها الناعم للضوء . كان عمر مضطربا ممزقا . وبدا جسمها القارس البياض دافئا وناعما من تحت .

وقبل أن تلاحظ زهور شيئا ، دس الفتى تحت قميصه قطعة صغيرة من قماش ابيض ، وجدها على جسمها ، وهى اشبه شىء بحيوان حى أحس عمر بحرارته . وظل عمر راكعا امام جسد زهور الممدد ، وقد طاش صوابه واخذ يلهث قليلا . انه ينظر اليها منذ عدة دقائق ، مستسلمالتلك القوى الملتهبة التى سرت فيه دون ان يستطيع منها فكاكا . لا حيلة له فى ذلك .

وزهور مستلقية على ظهرها لا تتحرك حتى لكأنها نائمة . ساقاها وحدهما منتصبتان ، تجيئان وتذهبان من شمال الى يمين ومن يمين الى شمال ، بحركة ما تنفك تبطؤ شيئا بعد شىء . والباقة الصوفية السوداء التى تغطى اسفل بطنها تظهر ثم تختفى مرة بعد أخرى . والصبى يكويه ألم أخرس . انه يتأمل بطن زهور العارى .

وفجأة بصق الصبى ثلاث مرات بعزم مخيف : تفو ، تفو ، تفو . ثم نهض ومضى بسرعة وهو يشد بيده الى صدره صرة صغيرة . هرب يعدو على الطريق الضيق المزين بنور الشمس ، هرب وكأنما هو يمشى على حبل مشدود ، وكانت سرعته فى الجرى ما تنفك تزداد .

قالت زهور بصوت عالٍ :

– مجنون . انه يركض ركض من ألم به جنون على حين فجأة ، وسيحسب انه ليس فى الارض كلها مكان واحد يمكن ان يركن اليه .

وضحكت بصمت وطافت بنظراتها على قبة الخضرة التى كانت ترتعش من حولها ، ورات السماء الزرقاء التى يخالطها بياض

.. ظلت زهور مستلقية ورأسها على حافة الماء ، وجسمها لا يزال عاريا حتى الثديين ، تحت النور الحاد واوراق الاشجار المضطربة. وانقضت على هذا لحظات طوال . ان فى عينيهـــا الآن نوعا من الدهشة . انها كالنائمة المفتوحة العينين ، يحملها نهر مضىء لايقاوم ولا يقلب .

ومدت ذراعها ببطء ، فغطستها فى الماء ، ثم اخرجتها وقـــد امتلأت بوحل مسود ناعم يتساقط من بين اصابعها قطرات ، ما بقى منه وضعته على جسدها وأخذت تدلكه به فى عناية . وتناولت من الماء قبضات اخرى أسالتها على جســمها ، وظلت تدلكه بها فى انتباه مركز . وأخيرا نهضت فطيرت ثوبها عن رأسها دفعة واحدة .. انها الآن عارية كل العرى . وها هى ذى تنزل الى المـاء . ان الرمل يجذب قدميها وهى ماتنفك تتقدم فى النبع . ساقاها ووركاها يصفعهما الماء البارد فجأة . اغتسلت من الوحل وهى تدلك جسمها فى رفق مرتعشة . كانت تغرف الماء بباطن يدها فتصبه على كتفيها حتى اذا صار الماء الذى يسيل على جسمها رائقا كمـــاء النبع ، خرجت وهى تقرع اسنانها من البرد . ثم القت ثوبها على جســمها فستره كله . وملأت وعاء الحليب بالماء وقفلت راجعة .

كان عمر لا يزال يركض فى الحقول المنبسطة التى تصطفق امام عينيه اصطفاق الرايات . ان الجســم وظله يركضـــان معا . وكرة القماش التى سرقها من زهور قد سقطت منه أثناء هروبه دون أن يراها ، وتدحرجت الى حفرة تدحـــرج بهيمة لم تروض . ولكنها تركت على جلد الصبى رائحة عفنة أصبحت فى حيـــاته سرا . أنظر الى عمر من بعيد : ليس الان الا جرادة تتواثب فى غبار أحمر ذهبى اللون .

- ١٢ -

طال صيف ١٩٣٩ . هذه ايامه الاخيرة تسير متثاقلة جميلة . لقد انتهى الحصاد منذ مدة طويلة ، وعرى القش ، واخذ تراب الارض الاسمر المغطى بالقش يتفلع .

ان الخضر لا تزرع فى هذا الوقت الا فى اراضى السقى . فالى ان يحل الفصل الجديد من السنة تحسب الفلال . لم تكن محاصيل هذا الموسم رديئة.

قال قره لجيرانه :

ـ كان محصول القمح والشعير طيبا هذا العام . يجب ان نعترف بذلك .

وكان قره يحسب ويحسب . لقد انتفخ راسه بالارقام . انه يحصي بذهنه الاكياس التى استطاع ان يملأها ويصفها فى مخزنه . غلة ممتازة . واللبن ؟ ماكان يخطر له ببال انه سيجنى منه ماسيجنى .. انه لذيذ حقا ؟ لبنه الكثيف الدسم الذى يكاد يكون زبدة كله .. لم يبع (قره) منه الى الآن شيئا ، وانما تركه لاستهلاك البيت.

والكرز والبيغارو .. آ .. ما كان اجمل هذا الموسم ! . لقد كان المحصول رائعا حقا . حتى ان اسر المزارعين قد اكلت منه ، أكلت من الكرز المنقور الذى اكلته العصافير فلم يحمل الى السوق .. وقد هبط قره الى تلمسان من اجل اخته وابنة اخته ، فقدم لهما من هذا الكرز . وسيذهب اليهما بعد مدة قصيرة يحمل اليهما الزيت الذى ستدفعان ثمنه مالا طيبا حلالا . أما الكرز فلم يأخذ ثمنه . رفض رفضا قاطعا ان يأخذ ثمنه . حلف بالله انه لن يتقاضى ثمن الكرز ريالا واحدا .

وفكر قره فى الزيتون . فى هذه السنة .. ما من احد فى البلاد يستطيع أن يقدره .. الى ان يحين موعد القطاف . وقد رضى المستوطنون الفرنسيون بالمنصورة ان يبيعوه محصول الزيتون على شجره . انه لا يستطيع أن يتنبأ الآن بمقدار الكسب الذى سيجنيه من ذلك . ولكن قره كان فرحا بالصفقة . لقد تولى ، هو ، تقدير ثمن المحصول ، فلم يتعنت الفرنسيون وارتضوا تقديره .

قال بينه وبين نفسه :

ـ هؤلاء أناس أبرياء ، وسيظلون كذلك ما لم يفتح العرب أعينهم .. والحمدلله على انه ما من سمسار ولا دلال خطر بباله الى الآن ان يحوم حولهم . وفكر قره فى نفسه مشفقا : « اذا استطاع مسلم ان يجنى ربحا من الارباح ، فانما يتم له ذلك لان اخوانه لم يروه» .. وقد قطع له المستوطنون الفرنسيون وعودا للسنين المقبلة ، بتوصية جاءتهم من مكاتب المديرية. قال قره لنفسه : من ذا الذى يدرى ما عسى ان يقع واشاعات الحرب تقرع الاسماع ؟ وتذكر الحرب الماضية ! .

كان بوشناق ، وبن ايوب .. يجريان هذه الحسابات نفسها فى الحجرة المظلمة من قلبيهما . وكانا خلال تلك الايام كلها ، يمضيان الى عملهما صامتين .

ان الاملاك تبدأ هنا من سفح لالاستى والمرتفعات المجاورة ، وتجرى فى باطن البلاد ، الى أن تنتهى بعد طريق سبدو عندالقواعد الاولى من السهل . والمزارعون يقتاتون باليسير من الطعام ويعيشون عيشة فقيرة . غير ان الحياة فى بنى بوبلان تجرى مجراها الذى لا تتحول عنه . هادئة ، جادة ، قوامها حسابات دقيقة ، ومشروعات يستقصيها اصحابها طويلا ، وشهوات متجددة قوية ، واعمال يومية لابد منها للابقاء على الحياة .

وبدأ الخبر يذيع فى تلك اللحظة . فأخذت البيوت تهمهم فى الداخل همهمة غريبة . هى الحرب ، فيما يقولون .

هذا الشبح الهائل الذى نزل نزول الصاعقة ، هذه القوة المتلمسة البائجة ، هل يدرى احد كيف هبطت ؟ .. ودهش الناس فى بنى بوبلان . ولئن انقضت الصدمة الاولى بعد ذلك كما حدث فى تلمسان وفى القرى والضياع النائمة حولها ، فان الحياة لم تعد الى مجراها الرتيب الذى كانت تجرى فيه من قبل .

لقد سافر ابنا بن ايوب . جند كبيرهما والصغير فى آن واحد . ان الكبير ، واسمه جلالى ، انهى خدمته العسكرية بفرنسا منذ ثمانية أشهر ، وهو الآن يذهب الى الحرب تاركا زوجة وطفلتين .

« الحرب ؟ ماشأننا نحن بها؟ انها تنشب فى بلاد بعيدة. فى فرنسا .. ومن يدرى الى اين تمتد ! .. اننا نعنى بامورنا ، نزرع خضرنا ، فما صلتنا بما عدا ذلك ؟ » هذا ما كان يقوله الناس فى بنى بوبلان الاعلى .

وتحدث بعضهم عن الاعتقالات أيضا . والذين كانوا يعتقدون أنهم يفهمون الاحداث أكثر من غيرهم قالوا أن ذلك نذير شؤم .

قال قره لزوجته ؟

ـ هى حرب كسائر الحروب . لقد وجدت الحروب منذ وجد العالم ، وستظل قائمة ما ظل على وجه الارض بشر .

فأجابته بقولها :

لماذا ؟ الا يرحم الله مخلوقاته ؟

فلم يفهم الرجل . وتساءل : ماذا حدث لعقل هذه المرأة ؟ ما لها وللتفكير فى هذه الامور ؟ ..

ـ يا امرأة ، هذه امور فوق ما تطيقين فهمه .

ـ كيف ؟ ايذهب الشباب الى موت محقق ، ولا نقول كلمة واحدة .. شباب فى ريعان الصبا كأبن اختــك وابنى بن أيوب ، وقادر محمد . .

ـ أما ابن اختى فانني سعيد بذهــابه الى الحرب . يجب ان يذهب الى الحرب . ستعلمه الحرب الحيــاة . ستقلل الحــرب اهتمامه بدهن شعره بالزيت ، وبالتجول فى الشوارع عارى الرأس مرتديا الثياب الفرنسية .

قالت المرأة بينها وبين نفسها : « يا لك من عقرب عجوز . ان هؤلاء الفتيان الذاهبين الى الموت قد يكونون أولادك . نعم .. لقد كنت دائما تحسد الناس » .

كان قره على قد تجاوز الخمسين ، اما زوجته فعمرها اقل من نصف عمره . انها فى الرابعة والعشرين .

ظلت الزوجة صامتة ، وتابع الزوج كلامه :

ـ قلت لك ان هذه الأمور فوق ما تقدرين على فهمه ، انها فوق ما نقدر على ادراكه نحن . هذه امور لا يعلمها حق علمها الا الله . هى امور اكبر منا ..

قال ذلك وصبره ينفذ شيئا بعد شىء . ولكنه تماسك . فقالت الزوجة عندئذ بصوت حاد مرتعش :

ـ ان الله لا يقول اقتلوا بعضكم بعضا .

ـ اسمعى . قد يكون صحيحا ان الله لا يقول هذا . غير ان هناك رجالا يحكموننا ، وهم يعرفون ماذا يعملون .

ـ هؤلاء الذين يحكموننا ليسوا عادلين .

ـ حلى محلهم اذن .

قال ذلك وقهقه ساخرا .

ـ حلى محلهم ، وبصرى الناس بما يجب عليهم أن يعملوه .

فلما سمعت المرأة هذا الكلام ، لاح الجد فى وجهها . أنها لاتقبل ان يتهكم عليها احد . قالت :

ـ ما انا الا امرأة ضعيفة .. ولست أطمع فى ان احل محل احد ألبتة . ولكننى أقول ان السلطة التى تعمل هذا العمل ليست عادلة . ولو كان لكم ذرة من شرف ، أنتم معشر الرجال ، لخجلتم من ان تقبلوا هذا الأمر . هذا شأن الرجال . اذا تكلمت امرأة سخروا منها . يظنون انهم دائما على صواب ، مع أنهم قد يجانبون الصواب . يكفيهم من أمرهم أنهم رجال !!

ظل قره يتفرس فى زوجته مدة طويلة ، ثم قال :

ـ كلامك لا يضيف الى الأمر شيئا ولا ينقص منه شيئا .

قال هذه العبارة فى استخفاف وغير مبالاة ، ثم اضاف :

ـ هذا كله لا قيمة له .

ـ لماذا ؟ هل خلقنا الله لتظل أفواهنا مكمومة ؟

ـ لأنك تهرفين بما لا تعرفين .

ـ لانك تريد أن تظل أفواهنا مكمومة !

ـ انت تهذين .

ـ طيب ، سأضع على فمى كمامة .

تذكر قره أسباب الحرب التى شرحها له عبد الله البقال منذ بضعة أيام . فاراد ان يذكر هذه الشروح لزوجته . ولكنه عدل عن رأيه . انها امرأة . ما عساها تفهم من كل ما يمكن ان يقوله لها ؟

***

فى اليوم الذى تلقى فيه جلالى بن ايوب الأمر بالسفر ، لبست زوجته الحداد . وكذلك فعلت أمه ، فارتدت ثوبا قاتما . رجلان ينتزعان منها دفعة واحدة . وقددق هذا القدر نفســـه باب أسرة محمد ايضا .

انتحبت النساء فى البيتين انتحابا طويلا ، وبكين وهن يلطمن أفخاذهن حزنا وحسرة . وترددت أصداء صيحاتهن فى الجبـــال تمزق الهواء . وعلم النساء بالنازلة التى حلت .

وبينما كان النساء يعولن ويلطمن صدورهن فى البيت كان الرجال يتجمعون فى الخارج . انهم يلتقون فوق مسطح ممهد من الارض

يحيط بالمساكن . يلتقون مقرفصين دون أن يقول أحد لاحد منهم شيئا . ولقد جاء قره ينضم الى جيرانه . مضى الى وسط الجمع نظر الى هؤلاء وأولئك دون أن ينبس بكلمة . قرفص هو أيضا تحت شجرة من أشجار التوت .

عجيب حزن هؤلاء النساء . انهن لا ينقطعن عن النحيب وراح قره على يلقى على الصحب نظرات سريعة من حين الى حين ، بينما كان نوع من الحنان يجتاح نفسه دون أن يكون له موضوع بعينه . فتيان يزخرون بالقوة والحياة يسافرون . الحق ان هذا لايعنيه كثيرا . انه يفكر فى أمر آخر . وفكره يتمطى ثقيلاثقل ثور . يستطيع أن يقول الآن ان له فى السلطات آمالا . فكيف يحقق هذه الامال هذا هو الامر الذى يعنيه . انه لا يدرى بعد كيف يحقق لنفسه تلك الآمال . وفى الوقت متسع على كل حال . ترى هل يشتبه فيه جيرانه ؟ لقد احس قره أن بن أيوب تخامره ريبة ، فهو فاتر فى معاملته منذ بضعة أيام . تذكر قره اجتماعه بالمدير . لقد استدعاه ممثل الحكومة فى الربيع الماضى أثناء الاضراب القصير الذى قام به العمال الزراعيون . ولكن لعل الهواجس التى تراوده بصدد بن أيوب ليست الا هواجس . وطاف بنظراته على الجميع يلتمس جوابا عن شكوكه . ان عينيه اللامعتين اللتين صبغت اجفانهما بالكحل ، اشبه بعينى قط وحشى . وانتشر فكره انتشار ماء أصم . تلك اول مرة خلال حياته يجتاز عتبة دار الحكومة .

قال له المدير فى تلك المناسبة :

– لابد لكل بناء من أساس . ونحن نريد لبنائنا اساسا اخلاقيا هو الاتحاد . اننا لا نستطيع أن نعمل الا آذا تعاونا يدا بيد ، بل قلبا بقلب .

وذكر المدير يومئذ ان هناك قوانين جديدة تتصل بالسكان الاصليين توشك أن تصدر ، وان عددا من القوانين القديمة سيصيبه تعديل . وأردف المدير يقول :

– لاشك أن هناك لفيفا من الانفصاليين الخطرين أو من الحالمين الاغبياء ،يعملون ما استطاعوا لتشويش عقول الشرفاء من الناس . وهذا امر قبيح خال من الشرف .

قال المدير ذلك ثم نهض . وشكر لقره ما يقدمه للسلطات من معونة ، واضاف :

– لن تعرف هذه البلاد الا الافلاس والدمار ما لم نبذل جهودنا

متعاونين مع أصدقائنا .

مد المدير يده من فوق المكتب العريض الذى يفصل الرجلين ، فلم يستطع قره ان يلمس الا اطراف أصابعه من فرط عرض المكتب ثم مضى الى الباب متراجعا ، لا يجرؤ أن يولى الشخصية الرسمية ظهره ، وهو يرفع يده الى جبينه فى نوع من التحية العسكرية مرة بعد مرة .

فهم قره عندئذ ان له ان يطمع فى جميع الآمال . ثم انه كان يعرف ذلك منذ اللحظة التى نوى فيها ان يطلع السلطات على أعمال تلك العصابة الوقحة التى كانت تستعد مع حميد سراج لاحداث الاضطرابات . كانت هذه الفكرة التى راودته تشق طريقها فى نفسه برفق وهدوء وغموض . ينبوع من نار مجهولة يتفجر فى الظلمات . وانتظر قره ليفكر فى الامر بمزيد من الجد .

تخيل قره أن بن أيوب ومحمد سيعتذر عليهما أن ينهضا بأعمالهما بعد غياب ثلاثة رجال . وتصور أرضهما وقد أهملت كثيرا . فشعر بالارتياح . لا شك ان جاريه سيسيران الى الدمار . اما هو فسيضاعف نشاطه وعمله أثناء ذلك . وفكر قره فى البقرتين الفرنسيتين الثقيلتين اللتين يملكهما بن أيوب فتمنى لو كانتا له .

ان البقرات الثلاث التى يملكها تبدو الى جانبهما هزيلة : انها نحيلة ضامرة ، لا بل هى اشبه بعجول أذواها الجوع . انها ، وهى ثلاث ، لاتدر من اللبن ثلث ما تدره بقرة واحدة من بقرتى بن أيوب .. ناهيك عن الفترات التى تجف فيها أضرع هذه البهائم الحقيرة. ان قره يكره بن أيوب ، لانه منذ مدة قصيرة ... ولكن لهذا حكاية اخرى ... ومهما يكن من أمر ، فان قره حلف « ليحصلن على بقرة كهاتين البقرتين » وسيبر بيمينه .

بكت زوجته مع الباكيات من النساء . وقالت للعجوز طعمة التى حاولت ان تهدئها :

ــ دعينى ، لقد طفح قلبى . اننى فى حاجة الى البكاء .

ــ انت صبية يا بنتى ، وما فقدت أحدا ، ففيم البكاء ؟ اطردى ابليس من نفسك .

ــ انما أبكى على نفسى ، وعلى حياتى .

كانت النساء تتأوه بصوت خافت ، وتئن أنين البهائم الجريحة. لقد بحت أصواتهن وتقرحت وجوههن من خدش الاظافر . وجاءهن بعد الظهر عدد من الباكيات أخذن يرددن بنبرة رتيبة متكررة :

— فلتطحن وحدك ان شاء الله يا من تبكى النساء واطفالهن وتقتل الازواج يلعنك الله . ولتبك عيناك دموعا . ولتذب عيناك من فرط البكاء . ولا ينزل الشقاء الا عليك وحدك ، وليحرق لحمك ، فلا تجد أخا يمد يده اليك لينجدك . ولينصب عليك كره البشر كلهم فلا يبقى لك صاحب .

وكان بعضهن يطلق اللعنـــات مصحوبة بعويل وصراخ : آى .. آى .. ويضاعف لطم الصدور بالايدى .

وصرخت صفية ، أم الشابين ، نادبة ناعية ، لاطمة فخذيها :

— الله يلعنه . الله يلعنه .

واستمرت تصيح :

— ما هذا العذاب . لقد احترق قلبى ، وأصبح من رماد .

واستيقظ فى قلوب النســاء الم قديم . فأجهشن جميعـــا فى البكاء ، حتى اللاتى لم يجند زوج لهن ولا ابن . التفتن نحـــو صفية يبكين . وارتفع صوت صفية مرة أخرى :

— أولادى ، أولادى ، أخذوا أولادى .

وعادت تلطم فخذيها وذراعيها وتمزق وجهها .

وقالت احدى النساء بعد لحظة :

— صفية ، هدئى نفسك قليلا يا اختى .

— افعل ما استطيع يا اختى .

ثم هدات صفية . ووضعت احدى يديها فى الأخرى وهى ساكنة سكونا تاما على حافة الفراش .

واقترب منها عدد من الجارات ، فلم تقو على ان تكلمهن . انها لا تستطيع الا ان تدمدم فى أنين : « اولادى ، أولادى » .

ودخلت بضع نساء كن قد تجمعن امام البـــاب ، بينما ظلت الاخريات فى مكانهن واقفات . كان هؤلاء مصطفات صفا واحدا وقد وضعن على رءوسهن المنـــاديل . وكن يرفعن ايديهن الى أفواههن من حين الى حين متأثرات . وكانت صفية مصعوقة منهوكة القوى ما تنفك تئن أنينها الرتيب .

وكان هناك نساء أخريات يتحركن فى فناء البيت ذاهبات آتيات كأنهن فى جنازة ..

ثقل صمت القرية خلال الايام التالية وظلت كثيرات من الزوجات والأمهات منذ ذلك اليوم يرتدين ثيابهن القاتمة ويغطين رءوســهن بالمناديل السود .

- ١٣ -

حدق الشرطى بعينيه الصفيرتين المخضلتين الى حميد سراج . وهز فى الهواء يديه الخارجتين من كمى سترته الزرقاء . لاحظ حميد هذه النظرة الفارقة المحاطة بلحم ابيض . وكانت القاعة ملأى برجال آخرين من الشرطة . ان أصواتهم المبهمة تجلجل منذ لحظة فى مقر الشرطة معكرة جوه الادخن . وثمة رائحة راكدة من روائح الانسان التصقت بالجدران السمراء وبقطع الأثاث الفقيرة والكتاب . ان هذه الرائحة تدل على أن الوف الناس قد مروا بهذا المكان . وكان حميد هادئا ساكنا ، لا يبالى شيئا ، ولا يهتم بما سوف يقع.

واقترب منه رجال الشرطة المتجمعـون قرب باب الزجاج ، واحاطوا به .

وجاء عدد آخر من رجال الشرطة من اخر البهو . وراى حميد رقم الشرطى . أما ما عدا ذلك فلم يكن يبدو على حميد انه يلاحظ وجوده . وماهى الا لحظة حتى التف حوله عدد من رجال الشرطة واحاطوا به . ونظر الى عدد منهم خرجوا من الظل ، فعرفهم ؛ لانه رآهم قبل ذلك عدة مرات فى الشارع . وفى هذه اللحظـة احس كأن أحلاما مشلة قد شملته ، او كأن الهواء أصبح ثقيـلا جدا . لا لأنه خائف منهم ، ابدا .. ولكنه الاشمئزاز . لقد راى ان ثمة شيئا قد مات فى هذه الوجوه التى أمامه .

كان « الرقم » يتحدث منذ مدة ما ، وكان زملاؤه يتزاحمون حوله . واستمر « الرقم » يهدر ويثرثر .

ان حميد لا يصغى اليه . ان جدارا عاليا قد قام فى نفسه ورفع « الرقم » يده وهوى بها على وجه حميد فى صفعة قوية . اهتز رأس حميد . ولكنه لم يطرف بعينيه .

صاح « الرقم » :

ـ وهذا واحد من هؤلاء القذرين . .

سمعه حميد فى هذه المرة . وتفرس فيه . فادرك ان « الرقم » لم يحتمل نظرته . لاحظ انه ينحنى انحناءة من يثنى ركبتـه . امتصت الحدقة الحائرة الاهانة . هوى « الرقم » بقبضة يده على

وجه سراج فأحدث فيـــه دويا. واخذ عدد من رجـــال الشرطة يضربون .

ان حميد واقف أمامهم صامتا ، متجاهلا اللطمات التى تقع عليه. قال فى نفسه : ليس فى هذا غير ما كنت اتوقع .

وازدادوا احاطة به ، وتحلقوا حوله كأنهم مادة جامدة . وتلقى حميد ضربة اقوى من الاولى . فقال حميد بتأثير الصدمة ، وقد اتقد وجهه بعد ان ظل الى ذلك الحين شاحبا :

ـ لم تفعلون هذا ؟

وانهمرت الضربات عليه انهمار المطر . ترنح حميد ، وانقذف الى جانب . فعاد وجهه شاحبا . قال :

ـ أقذار .

وفى هذه اللحظة نفسها سقط على الارض ، تركهـــم يضربونه . ولكنه حاول ان يحمى نفسه ، حتى لا يجهزوا عليه اجهازا تاما . وكانت الضربات تدوى فى رأسه ، فى جسمه . فاستولى عليـــه خدر . اصبح لا يحس وجود أنفه ، ولا عينيه . غير أنه يشعر بأذنيه تحترقان احتراقا . وكان دمه يسيل رطبا حارا .

لم يتحرك . اصبح لا يحاول أن يتقى اللطمات القوية . وبصق عليه « الرقم » ..

وصاح آخر يقول :

ـ يا وسخ ، يا ابن القحبة .

وركله أحدهم بحذاءيه الضخمين ، فاقتدى به آخرون . ان جسمه الآن ممدد على البلاط ، وضربات « البساطير » تهوى عليه من كل جانب . شىء واحد كان يطوف بذهن حميـــد ، فكرة واحدة ظلت واضحة فى نفسه : هى أن لا يهلك . أن يظل حيا .

أصبح الآن لا يرى شيئا . الدم يقطر فى عينيه .

ثم خيم الهدوء ، واعقبه صمت رهيب طويل . هذا شخص يأتى فتسمع خطواته من بعيد . حاول حميد أن يفتح عينيه . فلم يستطع ذلك ، من فرط تورم عينيه . ان الضوء المحمر الذى كان حميـــد يحس منذ قليل أنه غير كاف ، أصبح الآن يؤذيه ويجرحه . راى حميد أحذية سوداء . انه مفوض الشرطة فى زيه العسكرى . يالهذا الجسم الضخم ! اقترب الجسم الضخم اكثر من ذلك . حديدة النعل تقرع الأرض بصوت جاف . ابتعد رجال الشرطة . انهم ينظرون الى وضع رئيسهم بصمت مطبق .

نهض حميد سراج ، وترنح على ساقيه . حاول أن يمسح بيديه الدم الذى كان يغطى وجهه . نظر اليه المفوض نظرة لا تعبر عن شيء ، وتابع طريقه .

افاق حميد سراج فوجد نفسه مسجونا فى زنزانة . انه فى حاجة الى أن يبول . هى حاجة قاهرة ، يزيدها لجاجــة انه عانى بردا شديدا طوال ليلته . لقد سكب عليه رجال الشرطة عددا من قواديس الماء لتزول عن جسمه آثار الضرب .

لقد استجوبوه عدة مرات : سألوه هل يعرف أحدا من الاشخاص الذين سموهم له . فكان لا يجيب بشيء ، فيأخــذون بضربه ، ثم يستأنفون الاستجواب .

هذه جدران جديدة من الضباب تحاصره . كل هذا آت من عالم آخر ، من عالم هارب ، فما أن يحاول الفكر الامساك به حتى يزول . عالم لا منطق فيه . غير ان هذه الحجرة هى الآن له .

لقد سبق أن رآها فى مكان ما ، لا ريب فى ذلك . ولكن أين ؟ انه لا يعرف أين رآها ، لا يتذكر أين رآها . أن فى هذا المكان شيئا لا يستطيع أن يميزه تمييزا واضحا . آه .. أمر يهيج الاعصاب . أهذه حجرة موتى ؟ .. أنا لست ميتا .

شيء كالموت . ظل حميد ممددا طوال الليل بثيابه المبتلة التى كان يحس أنها ما تنفك تضيق عليه . ما السبيل الى الخلاص من هذا الكابوس ؟ ها هو ذا يعرفها ، هذه الغرفة . الا ان فيها خلاء عجيبا وفضاء غريبا .. آه من هذه الحجرة .. لا تحاول أن تدخلهــا ، لا تحاول أن تجيء فترى ما فيها . لكأنها ضائعة تحت الارض على عمق آلاف من الأذرع . لا يمكن الايغال الى ما هو أعمق منها .

وكان هنالك ايضا تلك الجدران العجيبة ، البيضاء أو الشهباء . ان حميد على يقين تام من ان هذه الحجرة تشبه حجرته شبها ليس فى الحسبان . غير أنه ... لا يتذكر الآن اين سبق له أن رآها . آه من هذه الحاجة الكاوية الى التبول .

ان ثقلا رهيبا يجثم على صدرك ، ولا تكاد تستطيع أن تتحرك . انك تتقلقل قليلا . البرد . البرد . تحلم بانك ميت ، تضحك فى هدوء ورفق . تتقلقل قليلا مرة اخرى . هو برد الصباح . تقول هــذا ضاحكا . البرد . البرد . البرد .

انغرس الضوء فى جسم حميد انغراس الشوك . لعل هذا ينقذه من الموت . فتح عينيه مرة اخرى ، بعد أن عاد فاغمضهما لحظة . ان هذه الساعة هى الساعة التى يأخذ فيها ضوء الصباح الأشهب

يتسلل الى دار سبيطار ، هى الساعة التى تاخذ فيها الاصوات الاولى المتعثرة بالنوم تتسرب من الحجرات الموصدة الى الخارج تسربا لايكاد يدرك .

لقد نام حميد سراج مدة لا يستطيع ان يحدد طولها . هى مدة طويلة من غير ريب . لقد غطس دفعة واحدة فى حفرة سوداء شق النعاس بابها ، فهوى فيها ، وأطبقت عليه . نوم مفاجىء . ما من شيء حى حول النائم ، وها هو ذا الفراغ الذى ابتلعه (كان الزمان قد أفلت من كل قياس) يتقيؤه الآن لاهثا .

ان حميد يشعر بأوجاع فى كل جزء من أجزاء جسمه ، فى الكتف ، فى الاضلاع ، فى الوجه ، فى الساقين . أما فكره فكأن ظلا ميتا قد امتصه ونشر حوله ضبابه . وأدرك حميد ان الضوضاء التى ظل يظن خلال مدة طويلة انه يسمعها انما كانت فى راسه . انها صوته ولكن هذا الصوت يبدو آتيا من مكان آخر ، متشوها متضخما مليون مرة . كان يتكلم . ان صوته لا يدخل الاشياء ، بل يظل معلقا فى الفضاء لا صلة بينه وبين ما عداه . هو صوت لا يلامس قلب الأشياء .

سد أذنيه حتى لا يصل اليه هذا الصوت ، وانحبس فى ذاته انحباسه فى هذه الزنزانة . ولكن الصوت ارتفع فى الجهة الاخرى من وراء قضبان الحديد . وفجأة انفجرت من صدره صرخة قاسية عريضة كان يحبسها منذ مدة . فاستيقظ الكره اذ ذاك فى نفسه محملقا بعينه العميقة .

خرج فى بطء من البئر السوداء التى كان غاطسا فيها ، وادرك اخيرا ما كان قائما فى راسه من هرج ومرج . لقد عذبوه بينما كان مغشيا عليه . فتح عينيه ، ونظر الى حاله : زنزانة مظلمة . كان يحس رغم يقظته من النوم ، أن هناك طبقات مجاورة من الفكر الذى أخذ ينبجس فى داخله ، لاتزال غافية . هذه الطبقات وحدها كانت تحتفظ بذكرى التعذيب الذى انطبع على جسمه فى تشوش عظيم وكأنه احتراق . وضع يده على ظهره فادرك انه عريان حتى الخصرين . وانقضت لحظة ، فاذا بصورة عمر تخطر أمام عينيه .

لماذا يتذكر عمر هنا ؟ انه ليس فى حالة تمكنه من القاء هذا السؤال على نفسه . ثم طفت فى خياله ذكرى مدينة الجزائر ، أيام كان يقطن فيها ، كان سائرا فى شارع الحرية ، بعد ان حضر اجتماعا من الاجتماعات . كانت الساعة هى العاشرة من المساء . كان المطر يهطل . لقد هطل المطر طوال ذلك النهار ، ولا يزال يهطل فى المساء .

كان حميد يسير كالأعمى وقد احترقت رئتاه واحترق حلقه من الركض . ان سحابا وابلا لا يمكن تجاوزه كان قائما فى الهواء امامه ، يرجع القهقرى بغير انقطاع .

وعادت صورة عمر مرة أخرى . كان حميد راجعا الى دار سبيطار حين هوى رأس الصبى على بطنه . كان عمر يجرى مسرعا كماعز ، هاربا من البيت . طوقه حميد بذراعيه . وأنهضه عن الارض . رفع عمر بصره اليه . وقال له :

ـ كان رائعا .

ان صيحات عميقة من صيحات النساء تخرج من داخل البيت مع ضجة كبيرة .

قال حميد :

ـ ما الذى كان رائعا ؟

ـ اجتماع هؤلاء الناس جميعا ، وكل ما قلته لهم فى مقر «الشارع المنخفض» . أنسيت ؟

بهذا صاح الفتى وقد غزته حماسة مفاجئة .

ـ آ ... كنت هناك ؟

وسقط الصبى بين يديه ، وقد أصبح أثقل من ان يطيق حمله . فما ان لامست قدماه الارض حتى وثب فاجتاز الرواق وصار فى الشارع .

وغرق حميد فى ظلمة الخبل شيئا فشيئا . انه يسمع صراخا وصياحا ، وان رعشة خفيفة تسرى فيه من كل جانب . ان النداء الذى يسمعه فى هذه العتمة قاس رغم ضعفه . فكأنه أنات طفل . وكأن الطفل قد نضبت قواه ، ولكنه لا يزال يصرخ . استحث حميد خطاه ، فاذا هو يصل الى ثلاثة أطياف كبيرة أو اربعة كانت تهتف بصوت عال . قال أحدها :

ـ هيا ... قل انك لا تحب هذا .

وارتفعت شكوى . كان الرجال يسيرون فى وسط الطريق المعبد . وكان الشارع مقفرا فى هذه الساعة من الليل . كان لا يبدو عليهم أنهم عابئون بالمطر . فاعتقد حميد خلال لحظة أنهم عسكريون . كانت أحذيتهم تقرع أرض الشارع . واقتربوا من احد المصابيح فانتصبت أشباحهم وتطاولت كثيرا . قال واحد منهم :

ـ خذ هذا يا قملة .

رأى حميد ، رؤية واضحة فى هذه المرة ، ان هؤلاء الاشخاص

الثلاثة يتقاذفون الشيء الذي بدا له طفلا ، كما يتقاذف اللاعبون كرة من الكرات ، فهذا يركله بقدمه ، وذاك يضربه بقبضـــة يده ، أو بركبته ، وكان الطفـل ينجر على الارض وهو يكاد يعجز حتى عن الأنين .

أصبح لا يستطيع أن ينهض . حاول الرجال ان يتقاذفوه وهم يتصايحون فقال أحد الثلاثة شاتما :

ـ . . يا للقذارة .

وراحوا يجرونه على أرض الشارع .

وانعكس عليهم نور المصباح شديدا بعد بضعة امتار . فاستطاع حميد أن يرى الصبي . انه ماسح احذية او حمال ، واحـد من اولئك الذين يراهم المرء راكضين في شوارع مدينة الجزائر اعـدادا غفيرة . كان الطفل متمددا على الارض . ان ثيـاب الممزقة كانت مغموسة في الوحل ملطخة بالبقع السوداء . جمد الرجال الثـلاثة واخذوا ينظرون الى الصبي .

وجموا لحظة صامتين كأنهم يترددون . ثم قال أحدهم ساخرا :

ـ اذا نحن هذا ، فهناك من أمثاله كثيرون . ملايين . ليست الفئران هي التي يعز وجودها في هذه البلاد .

قال ذلك وضرب الصبي المستلقي على الارض بقدمه . فلم يصرخ الصبي ولم يئن . وعاد الرجال الثلاثة يضطهدون معا هذا المخلوق الذي كان يبدو ميتا .

صاح حميد قائلا :

ـ قفوا .

واسرع اليهم .

ـ ماذا فعل هذا الصبي ؟

ـ بنا نحن ؟ لم يفعل شيئا . ولكننا نريد أن نكنس امثاله جميعا فبدأنا به .

وقال ثان مقاطعا :

ـ هذا جدي ، هذا عربي .

فأجابه الاول :

ـ لعله يريد أن نعلمه كيف يعيش .

ـ دعونا من الآخر . .

ـ أتريد ان تبدأ بهذا ؟

ـ الدور دورك .

وتقدم الشخص الذى قال هذه الجملة الاخيرة ، تقدم من حميد وهو يصطنع توددا زائفا ، فأمسك بياقة سترته بين ابهامه والسبابة، وتفرس فى وجهه . وتقدم الآخران . قال الاول :

ــ صيدة جميلة .

ــ رجل جاوز طوره .

ــ يعد نفسه متحضراً .

انتزع حميد نفسه بعنف من الرجل الأول ، ثم عاد اليه مندفعا بكل ما أوتى من قوة ، فجبهه بضربة فى صدره فأسقطه . أطلق الرجل كلمة آه عميقة ، وتمدد على الارض فى ضجة صماء . ولم ينهض . وابتعد أحد رفيقيه وهو يصيح صياحا شديدا .

وفجأة راى حميد سكينا تلتمع فى يد الثالث الذى بقى واقفا امامه .

ــ انتظر يا وسخ .

قال الرجل ذلك ووثب على حميد ، وكان حميد ينتظره ، فانتقل من مكانه بحركة صغيرة ، فاتقى الضربة ، واذا الرجل يختل توازنه ويهوى على الارض معولا ، اما لان وثبته التى لم تلتق بشىء دفعته الى الامام فى عنف ، واما لانه اصطدم ببلاط الرصيف . أخذ حميد يراقبه .

نهض الرجل . غير انه كان يرتعش ارتعاشا قويا .

ومضى حميد يحلم .

فكان ، وهو عار بغير سلاح فى السجن ، يمضى فى الليل ، فيلقى « أرواحا خبيثة » تهاجمه وترهقه وتسخر منه . ان لجميع هذه « الاشباح » ــ المتبوعة بضروب الاذى التى أوقعتها فى الناس ــ اسما مظلما جدا بالنسبة الى الجزائر . ليست أمواتا وانما هى اشباح تدوس الانسان الذى صرعه النعاس ، والالم ، أو غير ذلك من الاشياء ، تدوسه بأقدامها .

وكان هو يقول : سفلة .. أوباش ..

وكان يترك لهم جسمه المذال العارى يدوسونه ما شاء لهم أن يدوسوه ، وكان يتقبل اهاناتهم كأنما هى شرف ومجد .

البرد شديد كأنه ضياء متجمد .

وسمعت أذنه شيئا فصاح :

ــ من هناك ؟

فتراءى له أن ملايين الشعل الصغيرة تتلألأ من حوله ، ولكن بدا

له فى الوقت نفسه انها تنطفىء . قال لنفسه : آه .. الآن فهمت . انني فى لونابارك . وما هى الا لحظة حتى سمع صوتا من تحته يصيح :
– هيه ...
قال :
– هل هناك أحد ؟
وجعل ينظر باحثا فى انتباه . وهبط الليل مرة اخرى على اللهب الذى كان يشتعل ، فلم ير شيئا .
صاح من جديد :
– هل هناك أحد ؟
فأجاب الصوت :
– ايه .
– وبعد ؟ أهذا كل شيء ؟
أجاب الصوت :
– ايه ...
وقرر أن يبحث عن الصوت ، فنهض ، وقال سائلا :
– من أنت ؟ أأنت مغسل الموتى ؟
اجاب الصوت :
– بل انا الشرطى .
لقد دوى الصوت من بعيد . الأرواح هى التى تضيء الآن ، ولكن حميد لا يرى شيئا ، لا يرى أكثر مما كان يرى منذ لحظة على كل حال .

– لا شك انك تتولى هنا الحراسة .
ضحك الشرطى ، وقال :
– لا بل انا مرتاح .
– كيف ؟ أترتاح فى لونا بارك ؟ ..
قال الشرطى :
– هو مكان هادىء مريح . واليانصيب جميل أيضا .
– اذن ، فقد جئت هنا للاستجمام ؟
قال الشرطى :
– لا .. ليس هؤلاء موتاى .. هم موتى غيرى . انا ليس لى موتى الى الآن . ليس لى حتى هذه اللحظة الا أحياء . انى أفكر فيهم كثيرا . هل تعلم كم يسهل على المرء أن يحيل الحى ميتا . ان مصير أحيائى يهمنى كثيرا .

- اليس بين هؤلاء الموتى جميعا واحد لك ؟ غريب .. ولكن ماذا ؟ كيف لا يكون لك بين هذه الجمهرة من الموتى ميت واحد ؟

قال الشرطى ممازحا :

- نكتة ظريفة . أليس كذلك ؟

- أراهن ان لك بينهم موتى . لك بينهم اكثر مما تظن .

فوافق الشرطى قائلا :

- الحق ان لجميع الناس بينهم قليلا .. اما انا ..

- لا بد أن يكون لك بينهم أكثر مما للآخرين . قل الحقيقة ! اليس لك بينهم أكثر مما للآخرين ؟ أقصد : لكم انتم .

- ها .. فى هذه الحالة ..

وخيم الصمت لحظة . بدا على الشرطى انه يثوب الى نفسه . قال :

- كيف يمكن هذا ؟

- طبعا . ليس يستحى الا أولاد الحرام .

- لست افهمك .

- وستفهمنى أقل من ذلك ، مع أن ما اقوله واضح كل الوضوح : أولاد الحرام وحدهم هم الذين ...

- هذا سمعته ..

- فماذا تريد اذن ؟

- ما زلت غير مدرك .

وجاء الجواب فى صورة صرخة نابعة من اعماق الليل :

- كيف يمكن هذا ؟

فلاحظ الشرطى :

- وبعد ؟

ثم تابع يقول :

- هكذا جميع الناس . حين كنت انا طفلا ..

انطلقت صرخة تشقق الظلام الدامس :

- أنت ، كنت طفلا ؟

قال الشرطى :

- لم لا ؟ لماذا لا اكون طفلا قبل أن أصبح رجلا ؟ ما وجه الفظاعة فى هذا ؟

لا جواب .

- لماذا صرخت ، ولماذا تصمت الآن ؟

لقد استولى الغضب على الشرطى .

ـ أهو أمر عجيب انني كنت طفلا ؟ ألم تكن طفلا أنت ؟
ان صمتا عميقا هو الذى استقبل كلماته .
ـ حقا ليس ذلك بالأمر العجيب .
ـ وعاد الصوت أخيرا ينبجس من قرارة الليل . قال :
ـ وأنت ؟
ـ أنا ماذا ؟
ـ طفل جاع ؟ طفل ركض فى الوحل المتجلد عارى القدمين ؟
ـ وبعد ؟
أضاف « الشرطى » بعد لحظة :
ـ نحن جميعا كنا أطفالا .
ـ لا أفهم .
قال الشرطى :
ـ خذ هذا المثال : ان الصبى عمر ..
وفى هذه اللحظة ارتفعت فى الظلام صيحة مليئة بالحنق .
ـ الصبى عمر ..
ـ لماذا تزعق ؟ أى غرابة فى أن أعرف صبيا اسمه عمر . مسكين هذا الصبى .
ـ ولكن عمر طفل أعرفه .
ـ طيب . هذا كل شىء .
فصاح الصوت فجاة :
ـ أنت تكذب . أنت تكذب . أنت تكذب . انك لا تعرف صبيا اسمه عمر ، هذا مستحيل . أنت تكذب . ولست تكذب فحسب ، بل أنت تسخر منى ايضا ، وتخدعنى ، اذ تزعم انك تعرف صبيا اسمه عمر .. أنت تحاول أن تستدرجنى .. خاب فألك . عبثا تدعى انك تعرف هذا الصبى . أنت شرطى ، وان لم تكن الآن الا روحا . لا تنس هذا . لا يمكن أن تكون قد عرفت عمر .
قال الشرطى :
ـ كيف ؟ أنا ؟
ـ أنت ..
وضحك الشرطى :
ـ هه ..
ـ اسمح لى ، اسمح لى . سأقص عليك حكاية ، عليك أنت ، أنت الشرطى .

ودوت عندئذ فى قرارة الليـل كلمات وكلمات ، قريبة جـدا ، رهيبة ، تلاحقت فى غير انقطاع . كانت الكلمات تعنى : الخوف .

ـ هل تسمع حكايتى ؟

ـ نعم .

ـ فلماذا ، وأنت شرطى ، لم تتدخل لحماية ماسح الاحذية الصغير . مع أنك شرطى ؟

ـ كيف عرفت والظلام كان حالكا ؟

ـ ولكنك ظللت مختبئا .

ـ صحيح . لقد كنت حاضرا .

ـ رايت كل شيء ، ثم لم تقم باية حركة دفاعا عن الصبى . شهدت المشهد كله فى الخفاء ولم تتزحزح من مكانك .

ـ نعم . كنت أرى كل شيء .

ـ كانوا يقتلون طفلا وأنت لا تتحرك .

ـ صحيح . ولكن لم يكن فى وسعى انا ولا فى وسع احد غيرى أن يعترض سبيل هؤلاء الرجال الذين لهم حظوة لدى «الحماية السامية» .

واعقب الصمت هذه الكلمات ، انه صمت كصمت القبور .

ـ ارحمنى . ما انا الا رجل فقير مضطر الى كسب رزقه . ماذا كان فى وسعى أن أعمل ؟

ـ لا تحاول أن ترقق قلبى . ما أنت الا شرطى ، لا أكثر من ذلك .

ـ طيب ، انا شرطى . ليكن .

ـ وأنت ، ألم تأخذ أطفالا الى السجن ؟ الم تأخذ اطفـالا الى السجن ؟ أطفالا فى الثانية عشرة من سنهم . تذكر . كنت تلمهم من « السوق » من ناحية البحر ، او تجمعهم من باب « بومدين » وكنت تقيد أيديهم الصغيرة بالسلاسل . أطفال فى الثانية عشرة من سنهم . ففى بعض الايام تقبض على ثلاثة منهم ، وفى أيام أخرى على أربعة ، تشد بعضهم الى بعض بزنجير وتسوقهم امامك . كنت تريد أن توهم سكان المدينـة بأن هؤلاء الاولاد من كبار المجرمين .. أو أنهم من اللصوص . ولم يخطئك تقديرك . كان اكثر المواطنين لايطلبون الا أن يصدقوك . كنت اذن تعرف ماذا تفعل . ولكنك لم تكن تجرؤ على أن تدوس هؤلاء الاولاد بقدميك ما دمت تجتاز المدينة . ذلك ان هذه المدينة لم يكن فيها مواطنون فحسب ، بل كان فيها ايضـا رعايا ، حتى ان عدد الرعايا كان اكبر من عدد المواطنين . وكنت تعلم أن أعين الرعايا تنظر اليك وتشيعك فى الشارع من ركن الى

رني . وكنت تخشى هذه النظرة . حتى اذا خلوت بهؤلاء الاولاد في دار الشرطة ، اندفعت تعمل ما تعمله . هل تجرؤ أن تقول لي ماذا كنت تعمل ؟

لحظة صمت . ان الارواح المتأججة ، أرواح موتى اللونابارك ، تشكل الآن موكبا كبيرا من شعل صغيرة . ان عددها كبير . وهي تغير اتجاهها ، ثم تتابع طريقها ، صغيرة ، ملتمعة كما كانت .

وعاد صوت الشرطي يسمع :

ـ أين انت ؟ مد لي يدك .

ـ ارجع ، ارجع أيها الحقير .

ـ كيف هذا ؟

ـ يا قاتل الاولاد .

فأعاد الشرطي قوله :

ـ كيف ؟ مد لي يدك .

ـ ارجع ايها الضبع العفن النتن .

ومرة أخرى التمعت الأرواح دون أن تضيء .

صاح الشرطي :

ـ وأخيرا ؟ أانت هنا أم لا ؟

ـ لست هنا . لست هنا من اجلك على كل حال .

ـ فهمت .

صاح الصوت :

ـ آ .. كنت تريد أن تلعب مع الاطفال ؟

ـ ولم لا ؟

ـ أية لعبة كنت تريد أن تلعبها معهم ؟ لعبة الموت ؟

وعاد الصمت يخيم .

ـ كيف ؟

ودوى الصوت قويا رهيبا كأنه يخرج من مكبر :

ـ قاتل ...

قال الشرطي :

ـ اظن أنني تألمت الآن تألما كافيا .

فزأر الصوت يقول :

ـ ماذا ؟

فقال الشرطي في انين :

ـ بلغت من الألم درجة كافية . أود لو العب مع الاطفال .

ـ الا انك لمهرج وقح . اتقول هذا الآن ؟ انت لا تعرف كيف تخرج من المازق . انت الزيف كله . انت الكذب بعينه .

وعاد صوت الشرطى وجلا متلمسا يدمدم مرة اخرى :

ـ هيه .
ـ هيه ؟ ماذا تعنى بقولك هيه ؟
ـ أفلا تذهب ؟
ـ سأبقى لأؤنسك .
ـ لا أريد أن تذهب .
ـ هل الشرطى هو الذى يصدر هذا الأمر ؟
ـ لا أريد ، لا أريد .

قال الصوت :

ـ اذن أنا ذاهب .
ـ لا . اسمع : هل أوقعت بك ظلما ؟
ـ اى ظلم ؟ اتجرؤ على القاء هذا السؤال ؟
ـ ولكن .
ـ وجدت رجالا مكبلين كالعبيد ، فطعنتهم .
ـ ها .. نعم .. لقد شرفت بهذا المجد .
ـ لن يشفق عليك ، لا انت ولا ذووك .

قال الشرطى :

ـ انظر . الا ترانى ابكى ؟ الى أين تذهب ؟
ـ انا ذاهب .
ـ لا اريد ، لا اريد .

ما من جواب .

صرخ الشرطى :

ـ لا اريد .. لا . اين انت ؟

لا شىء . لا جواب . واستمر الشرطى يصرخ .

ان الامور التى تنسى لا تكون ابدا فى مثل هذا الهول . كان المطر يسيل على خديه كالدموع . وكان يحس ركضهم وراءه . ابسط شىء الا ينظر اليهم ..

كان الرجال الثلاثة يركضون مسرعين .

كانوا يصيحون فى آن واحد :

ـ لنسلخن جلدك .

وكان يصلب ساقيه من حين الى حين .. فكلما اعوزته قدم ، صاح

شاتما . ليس حوله فى كل مكان الا خرير الماء على الارض . وهذه أوساخ لينة منثورة فى الشوارع الصغيرة . انه لا يفكر الا فى الهرب منهم . برز رجلان من ركن أحد الشوارع ، واتجها نحوه . توقف أحدهما . ووقف الآخر بعيدا . لعله ينتظره . وهذا واحد يبول فيسمع وقع بوله على الارض . ثم لم يسمعهما بعد ذلك أبدا .

وعاد ادراجه ، بدلا من الاستمرار فى المضى الى أعلى المدينة . ثم وقف جامدا . وبصق . وأتاح لنفسه وقتا كافيا للسعال . ثم استأنف سيره .

الشوارع متشابهة فى الظلام : كأنها جدران . وفى آخر منعطف وجد نفسه فى أدنى المدينة .

ويغزوه الم نائم . انه الالم الذى سيعانيه بعد دقيقة .

كانت هناك مصابيح كهربائية تنير الارض بأضوائها . قال : انقطع المطر . وهذا شارع آخر . انتهى ذلك كله . وهذه عربة أخيرة من عربات الترامواى تصل .

حقا لقد انقطع المطر . ابتعدت عربة الترامواى سائرة فى الشوارع الخالية مسرعة مقرقعة . تخدد الجليد بماء يتساقط عليه عنيفا . وحين لامس الهواء الدافىء أدرك برد الليل . وحدق بنظره الى امرأة تلبس رداء زاهى اللون ان معها رجلا وشابا يصحبانها . نظر اليهما واحدا بعد آخر . كانت نظراتهما تعبر عن الضجر .

والقى نظرة الى الخارج . غير ان داخل العربة المضاءة كان ينعكس على الجليد كله . وتجاوزت العربة لافتة من اللافتات ، وقطعت شارعا منحنيا وعجلاتها تصر صريرا حادا مزعجا ، ثم اختفت .

ان الأمور التى ينساها المرء لا تكون ابدا فى مثل هذا الهول . قال ذلك لنفسه ذاهلا نوعا من الذهول . ومرة أخرى تحركت معدته . وحين نزل فى آخر موقف ، لم يكن فى عربة الترامواى أحد . وتقدم فى ظلمة الشارع مغمضا عينيه . فكان يتعثر من حين الى حين ببلاطة من البلاطات . كان هادئا . غير ان هذا التوتر فى عينيه يؤلمه .

كان الليل مضطربا هائجا . السماء بيضاء وسوداء . وبعد ان صعد فى الشارع مسافة عشرين مترا ، دخل بيتا قديما .

مشى فى الظلام على غير هدى ، فصعد خمسة (طوابق) . صاح أحد الناس :

— من هنا ؟ ..

كانت العجوز ايميليا تحاول أن تتكلم . غير أن صوتها ، وقد

جاوزت الستين ، ظل مبهما غير واضح . وهزت المرأة المشلولة قوابض سريرها فأجابها :
ــ هذا أنا .
فاتضح صوت العجوز واكملت كلامها :
ــ قتلوا رجلا فوق .
سألها :
ــ من قتله ؟
ــ اقتتلوا . لا ادرى . قيل أنهم كانوا أربعة أو خمسة . وقد اقتتلوا .
ثم قالت :
ــ أهذه ساعات يبقى فيها المرء خارج منزله ؟
فدمدم يقول :
ــ يالك من حمارة عجوز !
ــ أين كنت ؟
وضحكت ضحكة قصيرة ، ثم عادت تقول :
ــ لن يستيقظ بعد الان .
ولم تضف الى هذا كلمة واحدة .
والقى من آخر فسحة السلم نظرة الى مربع الضوء الوحيد الذي يلتمع فى سواد الليل .
ومضى يسير ، وهو يشعر الآن بكلال واعياء . ان نافذة صغيرة فوق باب هذه (الشقة) هى التى تسقط هذا النور الاحمر المبهم . ان الاضواء مشعلة عند هؤلاء الناس فى كل ساعة . لا شك انهم ساهرون على مريض .. ووصل الى بيته . فتح الباب ، ثم دفعه وراءه . لم يقف فى تلك الحجرة الاولى ، بل ظل يسير الى أن دخل الغرفة الاخيرة .
أشعل الضوء . خطر بباله ان يذهب الى المطبخ يعد بيضتين ، الا انه عدل عن هذا المشروع بعد لحظة . يجب ان ينام . والتفت ببصره نحو النافذة العالية الضيقة ، التى يتصور من خلالها السماء فى قرارة الظلام . كان المطر قد عاد يهطل ، وكأنه لن ينقطع عن الهطول .
وفجأة رأى وجهه فى مرآة ، فكاد يصرخ .
وارتمى على سريره بثيابه . دقت ساعة الجدار . تمسك بعوارض السرير . ارتعش . ان الرطوبة تتسلل فيه ببطء . وسمع وقع

اقدام فى غرفة أخرى ، بعيدة . ودقت ساعة الجدار مرة ثانية ..
انتظر الدقة الاخيرة . دقت الساعة اكثر فاكثر ، فى هذا الصمت
الذى يضخمه تساقط المطر فى غير انقطاع . يجب عليه أن يركض
ايضا . وهذا نشيج يهزه هزا . كان لا يتقدم الا فى عناء . أن
الليل والمطر دائمان هناك منذ مدة طويلة . وتجمع أشخاص كثيرون،
واشعلوا ضوءا . غير ان انوارهم لا تفيد فى الرؤية بقدر ما تفيد
فى اضاءة وجوههم . وقام صراخ ، واضطربت أصوات . انهم
بعيدون . وحاول بعضهم أن يلاحقه .

انه الآن مائل فوق منضدة المفتش : السجائر قد حرقت خشب
المنضدة فى بعض المواضع وخلفت فيها نقاطا سوداء . كان المفتش
واقفا . ان طوله لايزيد على متر وستين سنتيمترا ، لكن له بطنا
ضخما . المصباح الكهربائى عند مستوى صدره . قميصه الابيض
الذى تحت السترة قد فك زر (ياقته) . أطراف السترة غارقة
فى الظل . الآخرون صامتون جميعا . النور الاصطناعى يصلب
وجوههم التى بدت متعبة ، أخرج المفتش يديه من جيبيه واسندهما
الى المنضدة . كان قد رفع كرسيه الى الحائط . واخذ يهدر كالطبل
.. كان لا يسحب انفاسا من سيجارته ، ولكنه استمر يهدر . لاشك
أن عقب السيجارة ، الملتصق بشفتيه ، كان قد انطفأ .

لم يكن خدا المفتش محلوقين . أن له فما بارزا . وشفته السفلى
متهدلة . هل تراه يتوقف عن الهدير ؟

قالوا فى أنفسهم : هأنت ذا ترى أنك أصبحت لا تستطيع أن
تقرر شيئا ، لان كل شىء قد تقرر بدونك . سترى بعد قليل هل
له الغلبة ام لك . تخيل ما ستكون أنت . هل تستطيع أن تتخيل،
هل تستطيع ؟

وكان الماء يقرقع فى الخارج على الارض . وكان يقرقر عند فتحة
بالوعة قريبة كل القرب .

ثم استحال كل شىء الى أغنية .ان دخانا مستقيما شفافا يتصاعد
فى وسط الحقول . وسماء الصباح ممتدة كسماء الليل : هى لينة،
والهواء حاد قاطع . ونهر لا يرى ينحدر من الجبل .

وأخذ النهار يحترق على رءوس الاشجار . كانت الاغنية تتصاعد
قوية ، بينما كانت الطيور تخدد الفضاء بصيحات قاسية . وماهى
الا لحظة حتى انقلبت الاشجار المليئة بالعصافير الى صيحة واحدة
متجهة الى السماء اللازوردية .

انه فرح يصل بوتيبة ، يصل من بعيد ، ثم لا يلبث أن ينسحب لكنه فرح على كل حال .

ما من فرح كهذا الفرح . بهذا حدث حميد سراج نفسه . وراح ينصت للاغنية العميقة التى لا يدرى أكانت تنبع من نفسه أم من هذه الارض .

ماذا كانت هذه القوة العارمة التى لا تقاوم ؟ ماذا كان هـــذا الامل ؟

أحس انه لا يمكن ان يموت . أحس انه ما من شيء يمكن ان يموت .. ياله من فرح ! يا لها من مفاجأة ! هذا اليقين الذى جاء دفعة واحدة ! ..

راح حميد يتأمل السماء من خلال الكوة ، راح يتأمل الســماء العالية جدا ، السماء التى كانت تتلألأ .. كان هذا الهواء المعطر آتيا من مسافات بعيدة قطعها . ايه أيتها الارض الخفيفة القوية ..

وتذكر فلاحة عجوزا اقتربت منهم ذات يوم بينما كانوا بضعة اشخاص فى الحقول . تذكر كيف قالت بصوت عال حتى يصـــل كلامها اليهم :

ـ كبيرة أمنا الجزائر .

كانوا جميعا يعرفونها . وسارت فى طريقها دون ان ترميهم بنظرة واحدة .

ابتسم الرجال . وناداها احد الفلاحين قائلا :

ـ خالتى خيره اسمعى . من تكلمين ؟ أتكلمين نفسك ؟

قالت العجوز الصغيرة :

ـ أكلم عصاى . غريب الا يستطيع المرء ان ينطق بحرف دون ان يكون هناك من يلتقط كلامه ..

قالت ذلك وتجهمت لهم . واضافت تسأل :

ـ ماذ تحملون لنا من انباء ؟

انها تعلم ان حميد كان آتيا من المدينة . ولكنها لا تريد أن تظهر بمظهر من يسأله . فالقت سؤالها على الفلاحين فى غير كلفة .

أجاب حميد ، وقد فهمها :

الانباء ما ترين . كل شيء يسير على خير حال .

ـ أهذا رأيك ؟ لا تطيب الحقيقة الا مدفونة فى بئر . هل تعتقد أن خيرا سيقع ؟

ــ طبعا .

ــ اسأل الله ان يصدق ما تقول . لا يهمنا ان يطول الليل مادام الصبح طالعا لا محالة .

ومضت الخالة خيره بخطا قصيرة عنيدة ، وظل الرجال صامتين لحظة من الوقت .

خيل الى حميد انه الآن فى بيته بعد اسفار طويلة كثيرة . قال لنفسه : انا الان ارتاح بين اهلى وقد هجرت حياة التشرد الى الابد .. اننى أقبل أن يعلمنى اخوتى كيف اضع قدمى امامى . سأدعهم يقودوننى ، وأن يأخذوا بيدى ، لنطأ الارض . اننى مؤمن بهم . الحمد لله .

لقد بقيت لى هذه الارض وبقى لى هذا الشعب العظيم ، فأستطيع ان اتجه اليهما . نحوهما سأمشى بعد الان . وحدهما سينقذاننى .. ليأت ذلك اليوم الذى استطيع فيه ان اجتاز جميع المدن وجميع القرى ، فأزور كل واحد من سكان المدن ، وكل واحد من الفلاحين .. فاذا رأيت قرويا يقبض على فأسه فى صورة رائعة وقفت أتأمله ساعات وساعات . ان هؤلاء الرجال يوقظون الفرح فى النفس .

اما (الزنزانة) الفظيعة ، ووجوه الحراس الجهمة الكالحة ، والجدران الرمادية ، ورائحة النتن والرطوبة التى تملأ دهاليز السجن ، وصيحات السجناء وأناتهم ، النافذة الصغيرة المثقوبة فى الجدار السميك ، والوحدة الكئيبة ، أما كل هذا فانه فى ذلك الصباح لم ينتبه له .

يستطيع الان أن يغفو . ويرتاح . ان نومه لم يقتل . لن يقضى لياليه بعد الآن فى أرق معذب . لقد انقذ . فكر فى الوسائل التى تبيح له ان يتصل بالخارج . لا يزال فى وسعه ان يساعد رفاقه .

واحس شيئا فشيئا ، احساسا غريبا بأنه يتعلم الحياة من جديد فى هدوء ورفق . لم يكن فى أول الامر قد وجد فى نفسه الا عنفا قاسيا بعميه . وهذا قلبه الان ، وقد تكلس كالفحم ، يكشف زوايا مظلمة طرية . انه يرتعش . ان هذا المسير لا يزال يتم بكثير من الالام والعثرات . وفى حذر وتأن تعرف المكان فى هذه الزنزانة التى تتم له فيها اليقظة . كان عليه ان ينتصر على كل تعجل . كان عليه ان ينتظر قليلا . انه عائد من جحيم شعر فيه بحضور العدم حضورا ملموسا .

- ١٤ -

انتشر الامر بالاضراب فى جميع القرى . ففى المنصورة ، وامامة ، وبريا ، وصفصف ، وفى المنطقة كلها ، قرر العمال الزراعيـون أن يتوقفوا عن العمل . وهذه جماعات منهم تتناقش فى الموضوع هنا وهناك .

وما لبثت دوريات الدرك والشرطة أن اخذت تطوف فى الحقول .

قال أحد المستوطنين الفرنسيين لرجال الدرك :

ـ يجب أن ندافع عن أنفسنا الان .

لقد ضرب الشاب شريف محمد بالدبوس فى مزرعـة ماركوس فانشج رأسه ، وجرى الدم غزيراً على وجهه وثيابه ، وسرعان ما نقل الى كوخ من أكواخ الفلاحين يخبأ فيه . وسيق أربعة آخرون الى السجن .

ولقد شهر المستوطن الفرنسى ماركوس مسدسه وحمل العمال على العمل . وفى آخر النهار الاول . فى نحو الساعة الخامسـة من العصر ، كان جمع من الفلاحين قد احتشد عند حافة الطريق العام . انهم اكثر من خمسمائة فلاح . وقام عدد منهم يتكلم ويؤكد انهم سيمضون فى الاضراب الى النهاية باجماع الاراء .

وحين اخذت جماعاتهم تتفرق ، وصـل أحد المرابعين فقـدم للمضربين كيسين من البطاطس ، وتعهد بأن يلبى مطالبهم .

وفى صباح الغد وصل وفدان من عمال المدينة ، أحدهما يمثـل عمال البلدية ، والثانى يمثل عمال السكك الحديدية ، جاء هـذان الوفدان لتحية المضربين ولاعلان تضامنهم معهم . وقد شفع عمال السكك الحديدية هذه البادرة الطيبة منهم بتقديم مبلغ ثلاثة آلاف فرنك : وتبرع واحد بمفرده من النقابيين بخمسمائة فرنك

واجتمعت المنظمات النقابية فى تلمسان فقررت تشكيل لجنـة لدعم الفلاحين ، واصدرت نداء الى العمال ، ثم شرع فورا فى جمع التبرعات .

وبعدثلاثة أيام كان الف عامل ، فى « حنايا » وحدها ، قـد توقفوا عن العمل . ونظم عمال نجريبه صفوفهم أيضا واستعدعمال

« عين الحوت » و « طه ماميت » للاقتداء بالمضربين . كان الاضراب يتسع شيئا فشيئا .

نحن فى الايام الأخيرة من شهر ايلول . لا يزال الجو صحوا الى الان . الحقول اصطبغت بلون كلون الآجر . انها تقسو ، ولوقع الاقدام عليها صوت مشئوم . اينما تتوجه ببصرك لا ترى الا قشا محمرا . العشب لا ينبت . الشمس الجزائرية الحمراء تقرض هذه الأرض حتى العظام ، وتحيلها ترابا ناعما . قحط الشتاء بدأ . العمال الذين يعملون باجر يومى يتركون المزارع وينضمون الى رفاقهم المضربين .

وعلى مقربة من بنى بوبلان تالفت فى ذلك اليوم جماعة للنجدة بفضل جهود عدد من الفلاحين بينهم على بن رباح قائلا فى ختام المناقشات :

ـ منذ خمسة عشر يوما لم نر قطرة من الزيت فى بيتنا . اننى مدين للبقال ، وليس معى ما ادفعه له . اننا نموت شيئا فشيئا . اننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا .

وهذا صبى أشقر ، يبدو فى الثالثة عشرة من سنه ـ عيناه خضراوان وشعره أشعث ـ ياخذ بالكلام فيقول :

ـ ان طعامنا الشعير ، وفراشنا الأرض العارية . ليس عندنا ملابس . هذا البرنس العتيق هو ردائى الذى استتر به ، وغطائى الذى ألتحفه . اننى مضرب أنا أيضا .

وصمت ثم أضاف :

ـ امى لم تمت الى الآن .

وبعد الطفل جاء رجل فقال :

ـ انا من دوار « عشبة » ولكننى عملت دائما هنا ، وانا واولادى وزوجتى ، لم يتركنا الجوع فى اى يوم من الايام . . فلو اخذتمونى الى دكان بائع من باعة الطعام لأكلت كل ما عنده . أن أطفالى يموتون جوعا . لذلك أقول : امضوا فى الاضراب الى النهاية . لقد بلغنا غاية البؤس . فما الذى نخشاه ؟ بالامس القريب جاءنى بيان الضرائب ، فاذا هم قد سجلوا على ثمانى مواعز ، ولم يكن عندى منها الا اثنتان . والان لا أملك ماعزة واحدة . هذا هو الوضع .

واقترب با دعدوش بدوره . ان بادعدوش كان قد عمل فى مزرعة فيار ، ثم طرد بعد ذلك من كوخه .

– رموا بنا الى الخارج أنا وزوجتي واولادى وما لنا من امتعة . ان ابنتي الكبرى ريم التي كانت تسير في عامها السادس عشر ،كانت تعمل خادمة في منزل مسيو فيار لقاء اطعامها فحسب . ولقد ظلت تعمل في منزلهم ست سنين . ثم مرضت ، فما كان من مسيو فيار الا ان طردها ، غير مكتف بأنه أرهقها بالعمل . وماتت بعد قليل. وسألني هل عندي ابنة اخرى اقدمها اليه . اما أنا فقد رفض ان يعهد الى بأى عمل ، قائلا انني قد هرمت .

وتوقف بادعدوش عن الكلام ، وتقدم يقترب من الجمع ، ويمر أمام كل واحد منهم ، حتى اذا انتهى من ذلك مضى الى طرف من الارض ، فانحنى عليها ، ثم اذا هو يعود حاملا فوق راسه كتلة كبيرة من الصخر ، وجعل يطوف على الحشد ، متنقلا من فلاح الى فلاح ، وهو يهز كتلة الصخر بكلتا يديه . وتابع يقول :

– أانا هرم يا مخلوقات الله ؟

القى هذا السؤال على جميع من كانوا هناك :

– قولوا : أيعد رجل مثلي عجوزا هرما ؟

كان صوته يدوى . وسار الى الصبى الذى يرتدى برنسا عتيقا من برانس الرجال ، وقال له بصوت رهيب :

– هل يعد رجل مثلى عجوزا هرما ؟ تكلم يابنى . سيعلم الناس الحقيقة من فمك .

قال الصبى الاشقر بلهجة الموافقة والمصالحة :

لا ، ياعم بادعدوش . لست هرما . لا يمكن أن تكون هرما .

وعاد بادعدوش الى ناحية الارض التى جاء منها بالصخرة ، فردها الى مكانها ، ولما رجع قال دون ان ينظر الى احد :

– ولقد رفضت ان اعطيه بنتا من بناتي . أعلنت له أننى غير مستعد لاشقاء طفلة بريئة . انني رجل . أأنا رجل أم لا ؟ يجب أن اعرف !

قال ذلك ثم صمت وهو ممتلىء تحديا .

وعاد يدمدم قائلا :

– فلما رفضت ، قرر ان يطردنا جميعا من الكوخ الذى سبق أن اعطانا اياه ، قرر ان يطردنا دون ان يراعى جانبي أنا الذى انفقت قواى كلها فى خدمته ، ودون أن يراعى جانب ابنتى الميتة . والكوخ أنا الذى بنيته مع ذلك ، بنيته بيدى هاتين .

قال ذلك وهو يرفع راحتيه العريضتين القويتين أمام وجهه ،

فيعرضهما على الجمع . ونظر الى هؤلاء الرجال المحتشدين بعينين تفيضان بحزن ومرارة . وارتعشت لحيته الموزعة خصلا شعثاء ، بينما كان الفلاحون ينظرون اليه كالخرس صامتين .

ثم قال :

ـ ستدور الدنيا أيها الاصحاب . من ذا الذى يعرف ما سيقع غدا؟

ولكن با دعدوش لم يشرح ما عساه يحدث ، ولا الاخرون سالوه عن ذلك .

***

جاء أحد المستوطنين الفرنسيين بغته الى مقهى من مقاهى العرب، يتبعه أبناؤه وبصحبته عشرة من رجال الدرك ، وقد تسلحوا جميعا بالبنادق ، فانتزعوا من المقهى بالتهديد من كانوا فى حاجة اليهم من الرجال . ومضى رجال الشرطة يوقظون العمـــال من نومهم فى الليـــل . وحرق عمـدة احـدى القرى عريضـــة تقـدم بهـا الفلاحون بشان المعتقلين : فعل ذلك بحضور رجال الدرك . فتقدم الفلاحون الى العمدة بعريضة أخرى .

وفتح أحد المستوطنين الفرنسيين مخزنه ، معلنا أنه ســـيوزع على كل اسرة من أسر العمال الزراعيين كيلو من القمح . ولكن جميع الفلاحين كانوا قد اختفوا . ورفض أن يلبى نداءه أحد حتى الاطفال الذين لا يكادون يمشون . وعاد الرجال فى اثناء ذلك اليوم ، عادوا وهم يشهرون فى هذه المرة قبضات أيديهم . فاقترب منهم رجال الدرك وهم يخرجون مسدساتهم من اغمادها .

اعتقل اثنا عشر فلاحا على الفور . وأطلق سراح تسعة منهم عند العصر بعد أن ضربوا بالهراوات .

وفى دوار سيدى موسى هجم رجال الشرطة على الفلاحـــــين وأوسعوهم ضربا . وصمد هؤلاء للضرب ، فما كان من رجال الشرطة الا أن شهروا بنادقهم الرشاشة ..

وفى اثناء الاستجوابات ، كانت الشرطة تلح فى السؤال لمعرفـة المحرضين على الاضراب . فكان الفلاحون يجيبون بقولهم :

ـ المسئول عن الاضراب ؟ هو البؤس الذى نحن فيه .

وتحدث المستوطنون الفرنسيون عن الاخلال بالسيادة الفرنسية .. وفى تلك اللحظة أعلن تسعة من صغار اصحاب البســاتين انهم موافقون من حيث المبدأ على تلبية المطالب المعروضة وان كبار الملاك

من المستوطنين اولى بأن يلبوا مطالب عمالهم، وان تعنتهم لامسوغ له.
ان القرويين يوصدون الآن أبواب منازلهم قبل هبوط الليل
أن قلقا كبيرا يحلق فوق الريف .
لا احد فى الطرقات . لا فلاح فى الحقول . البلاد صامتة .
لكن مزارع المستوطنين الفرنسيين تتلألأ انوارها . وفى أفنية البيوت حركة لا تنقطع وضوضاء . ترى ما مآل هذا كله ؟
وقيل فى احدى المزارع :
ــ يستحيل على المرء أن يعيش فى بلد لا يعرف ماذا يجرى فيه.
فما كان من ربة البيت الا أن أجابت تقول :
ــ اننى أدخل شقتى ، واغلق بابى ، فتزول الجزائر من الوجود عندى .
اما لدى سكان بنى بوبلان ، فى أعلى الطريق ، فقد كان الصمت من العمق بحيث يظن المرء انه فى قرية مهجورة .
ودوت فى ذات ليلة صرخة : النار .

- ١٥ -

سرعان ما امتلأت السماء القاتمة فوق الكروم بأضواء حمراء . ان الانوار الارجوانية تصطدم بضباب الليل ، وتصبغ الهواء الرطب، وتجعل السماء أشد ثقلا . أخذت البرية كلها ترتعش . ففى كل مكان همهمات سريعة واضطراب لا يرى ، ووجود يكشف عنه فجأة تكسر أغصان . وأخذ جريان العربات يهز الطرقات الصامتة شيئا بعد شيء . كان هدير البرية هذا فى اثناء الليل يصفع الهـــواء ، ويفور فى الافنية المظلمة ويرجف الابواب الموصدة ، وينفذ الى قلوب الناس بقوة كقوة السيل .

أمام صف من الاكواخ الصغيرة التى كان يخرج منها لهب كبير، كان عدد من المستوطنين الفرنسيين يقفون صامتين : كانت وجوههم تصطبغ بالحمرة من لحظة الى لحظة امام التماع النار المهتز . ان اذرعهم متدلية . وفى أيديهم بنادق كبيرة يقبضون عليهـــا . انهم واقفون فى ترقب وانتظار . ووصل وراءهم عدد من الفلاحـــين . كانت النار الواسعة قد التهمت المساكن البائسة وأخذت تهضمها . وكان الرجال مبهورين قد ذهلوا عن انفسهم .

وعلى مسافة بضع خطوات من النار كان هنالك فريق من الفلاحين أخذوا ينصتون فى كثير من الانتباه لرجل كان يتكلم ، دون أن يحفلوا بوجود السادة :

ـ هلموا بنا .

ـ هلموا .

أن المستوطنين الفرنسيين يلقون على هذا الفريق من الفلاحين نظرات باهتة كابية . وظلوا جامدين فى مكانهم كأنهم كتل من حجر الصوان . راحت أبصارهم تنتقل على اللهب ثم انتقلت من دهشة الى الفلاحين . ورفع احد هؤلاء الفلاحين يده الضخمة ، وحركها يهيب بالقرويين أن هلموا ، ثم أسبلها .

ـ اذهبوا الى بيوتكم .

ان مسيو فيار ، الضخم القصير ، هو الذى قال هذا الكلام . والفلاحون أناس تعودوا الطاعة ، لذلك وقعت هذه الكلمات فى

نفوسهم موقع الامر ، فتراجع بعضهم ، غير أنهم لم يبتعدوا ابتعادا تاما .

ووصلت من الحلقة المتراصة عدة أصوات ، أولها صوت الفلاح الذى كان يناقش منذ لحظة بصوت أبح ، قال :

ــ لا .. لا ..

لم يوجه كلامه الى المستوطنين ، بل وجهه الى الرجال الذين كانوا محيطين به .

وسمعت كذلك دمدمات وهمهمات .

ــ لا ، لا ..

أن أصواتا كثيرة تدوى معا فى آن واحد ، غير أن الكلام المتقطع الذى قاله الفلاح كان يغطيها جميعا . لقد فرض هذا الفلاح نفسه على الآخرين بسلطته وسطوته . وما هى الا لحظة حتى تعالت النداءات من كل مكان تقول : هيا ، هيا ..

وسرعان ما تفرق الفلاحون فى جميع الجهات . فهم يحملون التراب ببطون جلابيبهم ، وراحات أيديهم ، وبالاكياس المشدودة الى اجسامهم ، ويهرعون الى النار ثم يبتعدون مرة أخرى ، ثم يعودون الى الاكواخ التى تتصاعد منها السنة اللهب ، ثم يستأنفون هذا العمل فى غير هوادة ولا مهادنة . وكان سليمان يركض مترنحا ، والى جانبه تسيل ظلال أخرى فى حركة متصلة مضطربة . وكان تأجج النار يزداد ازديادا لا حدود له ، فكلما وثبت السنة اللهب وثبة جديدة انتفض قلب سليمان وقفز من مكانه . كان سليمان يحدث نفسه قائلا وهو يرتعش . « يجب أن ننقذ ما يمكن انقاذه . ما اشقى حياة الفلاح ! » . ثم يركض كالمجنون ، كالسكران ، لا يكاد يفهم شيئا مما يقع .

وترك المستوطنون الفرنسيون لهؤلاء الفلاحين أن يعملوا ما يريدون ، وذلك بعد لحظة قصيرة من تردد . فنقل الفلاحون من التراب ما استطاعوا أن ينقلوا .

كلم سليمان مسكين الرجل الذى كان الى جانبه ، فلم يجبه هذا بشىء ، فامسك بذراعه ، فرأى دموعا غزيرة تسيل على خديه ، وتختفى فى لحيته الصغيرة الشاحبة اللون . قال له سليمان :

ــ وصل رجال الشرطة يا عزوز .

ولكن الرجل كان لا يرى بعينيه الا هذه الاكواخ المكلسة التى اصبحت الآن كومة صغيرة من رماد وفحم . لقد احترق كل شىء .

انه لحريق مطهر نظف المكان كله · ولكنه لم يتجاوز الاكواخ المعزولة القائمة فى وسط الحقول . وتركت النار مربعات من الارض محترقة.
أن النور الضعيف يضىء هذا المشهد ، ويسبغ على جميع الاشياء هدوءا مألوفا .
قال الرجل :
– هل علينا أن نحتمل رجال الشرطة ايضا !
وحدث سليمان مسكين نفسه قائلا · « ما كان للمرء أن يصدق أبدا أن أكواخ الفلاحين يمكن أن تحدث هذه النار الجميلة » · وعاد يتصور أعمدة الدخان تنتشر وتتلوى فوق الحريق . انها أعمدة لا تنتهى ، تعلو السنة رائعة من اللهب . والحقول التى حول الحريق تلتمع التماعا قاتما · كانت الرايات المشتعلة تصطفق ثم تتمزق تمزق الصراخ وكان توائب النيران فى خفة يغذو قلق الرجال · نعم لقد رأى سليمان ذلك كله بأم عينيه ، ولقد سمع سليمان صراخا وصياحا .. انه لم يحلم .
لقد شب حريق ، ولن ينطفىء هذا الحريق فى يوم من الايام . سيظل هذا الحريق يزحف فى عماية ، خفيا مستترا ، ولن ينقطع لهيبه الدامى الا بعد أن يغرق البلاد كلها بلألائه .
كان للمنطقة فى ذلك اليوم وجه الايام المشئومة ، واصطبغ ذلك الصباح بلون قاتم من الوان الحداد · ولقد قضى الناس ليلتهم فى أرق ، ففى وجوههم يبدو الآن حزن مظلم · كانت رءوسهم فارغة ، وكان فى افواههم مذاق مر ·
وها هم أولاء لا يشتهون أن يتكلموا ولا أن يتحركوا ، مثلهم فى ذلك كمثل من افاق من كابوس رهيب .
احتل رجال الشرطة الريف الاصم . وتوغلوا فى حقول واسعة فارغة ، وضياع صغيرة مهجورة . والشك والخوف يمتدان أمامهم امتداد الضباب . انهم يمضون من مكان الى آخر مسرعين ، بنوع من التعجل الالى . ان كل خطوة من خطواتهم تفرز زاوية مسنونة فى هذه الارض .
البلد هادىء . سليمان يطوف فى الحقول . والفلاحون يسيرون على غير هدى الى أهداف غامضة . يلتقى بعضهم ببعض ، فلايكادون يتوقفون . ان عددا منهم يكتفى بأن يهز رأسه . وتفيض قلوبهم عياء، فما ينفكون يسيرون ويسيرون ، صابرين الى أبعد حدود الصبر ؛ ورجال الشرطة يقتربون منهم ، ويدورون حولهم ، ويتفرسون فيهم.

قال سليمان لنفسه : « ان طاقات البلاد لم تستيقظ بعد » .
كان الناس اشبه بمن غرق فى حالة من حالات السرنمة . انهم يمشون وأمارات النوم تلوح فى وجوههم . وتابع سليمان حديثه لنفسه قائلا : « غير أن هناك ، فى الاعماق ، نزوعا عارما الى التمرد والثورة ، نزوعا طافحا فائضا ، يتهيأ لكى يزعزع النظام باكمله ، ولكى يزعزع دعائمه الفولاذية . ولعل العناصر الفعالة فى البلاد قد شرعت منذ الآن فى النضال . »

وهرع سليمان الى الطريق العام ، ترك الدرب الاغبر ، درب مزرعة فيار ، وأدرك انه لم يتغير هناك شىء .

ان زرافات صغيرة منعزلة من الفلاحين كانت تتجمع فى احد الدروب الضيقة . ثم ان بعض الشيوخ كانوا يرفعون أيديهم الى السماء ، وهم يحركونها حركات ويقولون معلقين :

ـ لم كان هذا يا الله ، أيها القادر على كل شىء ؟ لو انهم ارتضوا الاجور التى كانت تدفع لهم ، لما وقع شىء مما وقع . أين الخير الذى جنوه من ذلك ، أين هو ؟ ..

وهذا با دعدوش يتقدم ، وينتقل من جماعة الى جماعة ، قائلا انه لا يجب أن يناقش مسألة الاجور اليوم . انه ما ينفك يعلن :

ـ انما يجب الآن أن نكشف عن الجناة .

ـ فمن هم الجناة فى رأيك يا عم ؟

ـ يجب أن نبحث عنهم !

ـ حقا يجب أن نبحث عنهم . الناس جميعا يعرفون ذلك .

ـ أقول لك الحق .

ـ ولكن ما رأيك انت يا عم ؟ هل الجناة بيننا أم هم ليسوا بيننا ؟

ـ هذا ما سنعرفه .

ـ نعم سنعرفه . ولا تكلف نفسك كثيرا من العناء ، والا تعبت وانت رجل عجوز .

تابع الشيخ يقول بلا رحمة :

ـ شعورى ، شعورى انهم ليسوا بيننا ..

ـ من هم اذن ؟

ـ يجب أن نبحث عنهم ..

ان الرجل الذى كان يصغى الى كلام با دعدوش ظل فاغرا فاه ، لا يعرف ما الذى يقوله ، أو ما الذى يهاب أن يقوله . وأخذ الفلاح

العجوز يلاحظ وينتظر واذا بنوع من الشفقة على هذا الرجل الذى لا يزال شابا يغزو قلب با دعدوش . واذا بعينيه تنقدان اتقادا شديدا ، وتولى با دعدوش اكمال الكلام بصوته المرتج الذى كان يتعكز على الالفاظ .

ـ لا شك أنك تقدر أننا لن نعرفهم أبدا ما داموا ليسوا منا . ولعلك على حق فى تقديرك . بل أنك حتما لعلى حق . لن نعرف المجرمين . انهم لا يشعرون بشىء من القلق ولن يشعروا . هذا هو الحال . لقد ألفنا هذا واعتدناه ، أليس كذلك ؟ لا شك فى انك قائل أننا ألفنا هذا واعتدناه ، وأننا لا حيلة لنا فى الأمر ، وليس فى وسعنا أن نعمل شيئا . الا أن المهم يا بنى هو أن نعرف نحن من هم الابرياء ؟

كانت عينا العجوز قد ضاقتا أشد الضيق وهو يقول هذا الكلام . ان وجهه الآن اشبه بوجه رجل آسيوى . تفاحتا خديه ناتئتان ، ومنهما يخرج حقل من الاخاديد والغضون .. لكأنه يضحك ! . . ولكنه صامت صمتا كاملا . وكأنه مسرور أشد السرور بما وقع . ولكن ذلك التعبير نفسه لا يزال ملتصقا بقسمات وجهه . وانقضت لحظة طويلة . ان التعبير الملتصق بهذا الوجه الملىء بالندبات لم يتبدل أى تبدل . ان وجه با دعدوش لا يزال محتفظا بذلك التعبير الفرح . انه ساكن سكونا مخيفا . ان لمعانا باردا كلمعان النصال يتلألأ بين أجفانه التى لا تكاد تنشق الا قليلا .

وكان الرجل الآخر يتفرس فيه أكثر مما يصغى اليه . وعندئذ استأنف الشيخ يقول ..

ـ نحن نعرف أين هم الابرياء . انهم موثقون بالسجن ، والضرب .. والدم ايضا . ان دمنا يسفح ، وسيظل يسفح ما فى ذلك ريب وهكذا سوف تتحد صفوفنا . أنه لأمر فظيع أن يكون المرء بريئا فى زمان كهذا الزمان .

وانقطع الشيخ عن الكلام ليحدق الى الآخر . ان التعبير الفرح المخيف لا يزال مرتسما على وجهه . ولم يتحرك وجهه . أن رأى با دعدوش كان دائما أشبه برأى فلاح صينى .

ـ انه لامر فظيع أن يكون المرء بريئا . لن نستطيع الافلات من دمنا . لن يفلت منا أحد . سوف تلبى البلاد كلها نداءه . انما نحن الابرياء . وما يحل بنا اليوم انما هو العدل .

وكرر الشيخ هذه الكلمات الاخيرة وجسمه كله ينتفض . ثم خفض لهجته فجأة ، ودمدم على الرجل بصوت حيادى متعجل

قليلا ، قال :
ــ فلنظل متحدين بالدم الذى بيننا . ذلك ما يجب أن يقال للناس كافه . ستصل الشرطة من لحظة الى أخرى .
وابتعد الشيخ دون أن ينتظر من الفلاح جوابا ، أو تأييدا ، أو سؤالا ، ابتعد وهو يتكلم وحده بكلمات مهمومة غير مفهومة تتخللها أصوات التعجب ، ابتعد وهو يسير بخطا متواثبة ، غريبة ، ويهز عصاه بحركة متقطعة .
ومضى با دعدوش بعد ذلك من جماعة الى جماعة متمهلا ، لا يتعجل ولا ييأس كان الابد كله أمامه . كان يتجه بالكلام الى جماعة من جماعات الفلاحين ، وكانه يهجم عليهم لاهانة دامية وقعت له . كان يقول فى كل مكان بعنف مستبد :
ــ يجب أن نبحث عن الجناة . هذا ما يجب .
وكان أكثر الفلاحين يسمعونه دون أن يبدوا ملاحظة من الملاحظات الا ما كان أغرب عناد هذا الشيخ كان يتجه اليهم جماعة بعدجماعة ويصر اصرارا لا يلين على أن ينتبهوا له . كان يفعل ذلك دون أن يبدو أنه من رأى أحد . كان جميع الذين يصغون اليه يتحولون عنه وقد انقبضت وجوههم . كانوا يبتعدون واحدا بعد واحد ، كانما هم يحملون سرا من الاسرار . وكان هو يتابع مهمته بلا كلال ولاملال ، متنقلا من واحد الى آخر بخطا متواثبة كخطا الجراد ، ثم ما ينفك ينتقل وينتقل . ان ارادة اقوى منه تحرك ساقيه اللتين تخرجان من سرواله القروى ، وقد بلغا من النحول حدا عجيبا لا مزيدعليه . وكان يتوقف من حين الى حين ليرتاح قليلا ، وقد أخذ رأسه يهتز . ثم يستأنف سيره لا يتعب ولا ينى يردد تلك الاقوال نفسها .
وفى أثناءذلك كانت سيارات وطيئة سوداء لهابطن كبطن النمس ، قد أخذت تجوب الريف .
ان الوجوه تظهر من خلال الزجاج . انهم رجال الأمن العام .
لاحظهم سليمان مسكين . انه يعرف هذه الوجوه . كانت كل عربة من هذه العربات تقف فى مكان خاص فيثب جنود الشرطة منها بسرعة ، وينظمون انفسهم وينظر بعضهم الى ما حوله . لقد سبق أن اتوا الى هذه المنطقة فى اثناء الاضراب . ان لهم وجوها واحدة وملامح واحدة .
واتجهوا أول الامر بخطا سريعة الى مزرعة فيار . ان الفلاحين الذين كانوا فى طريقهم لم يلقوا عليهم نظرة واحدة . حتى اذا

تجاوزوهم ، التفتوا الى الوراء وتابعوا طريقهم دون توقف . قال سليمان مسكين يخاطب نفسه : « أرجو ان نصمد » .

ان فلاحى بنى بوبلان ينتظرون على قلق محموم . ولكنهم يحافظون على هدوئهم . لقد برهنوا برهانا واضحا أثناء هذا الاضراب على انهم يعرفون كيف يسيطرون على انفسهم وكيف يسلكون سلوكا واعيا . وقد فوجىء المستوطنون الفرنسيون بذلك ، فقد كانوا يظنون ان الاضراب والفوضى سيذهبان بالباب الفلاحين فى لحظة لهذا كانت دهشتهم مما أظهره الفلاحون من هدوء لا تقل عن دهشتهم من الاضراب نفسه .

وقد استمر هذا الاضراب الجديد بلا تخاذل ، رغم ان عددا من الرجال عادوا الى الحقول . وهؤلاء كانوا بوجه خاص اناسا ممن ارتبطوا بمزرعة من المزارع منذ ولدوا . وقد دعمهم رجال من مراكش اجتازوا الحدود سرا ، ولم يمتنع المستوطنون عن تشغيلهم بأجور أقل ، رغم القوانين ، وذلك ليضربوا بهم عمال الجزائر . على ان هذا كله لم ينفعهم فى شىء ، فقد صمد الفلاحون صمودا عنيدا ، ورفضوا العروض الفردية الخداعة ، رفضوا المساومات السرية ، والتساهلات، والربت على الظهور ، والكلمات المعسولة .

كان المستوطنون يقولون لهم — دون أن يسألهم احد من الفلاحين شيئا — كلاما كهذا الكلام :

— أنا صديق للعرب يا أحمد . تعال اعمل . أنا اعرفك وانت تعرفنى . تعال . يجب أن تأكل ، ويجب أن تأكل امرأتك وأن يأكل أولادك . أنا لست مثل ..

يقول المستوطن الفرنسى ذلك ويذكر اسم مستوطن فرنسى آخر .

— أنا ادفع أجورا طيبة ، وأنا صديق الـ ...

أخذت الزراعة تتلف . ولكن الفلاحين الذين يفاوضون على انفراد كانوا يتملصون بمرونة ويتجنبون الاسئلة والعروض ببراعة . كانوا لا يريدون ان يفسدوا أمرا .

وها هم أولاء رجال الشرطة يحتلون الريف ، وها هى ذى مساكن العمال يشب فيها الحريق ..

والمستوطن الفرنسى الذى قال : « يجب ان تاكل امراتك وان يأكل أولادك » ، لم يعد فى حاجة الى الالحاح ، فالفلاح الذى قال له المستوطن الفرنسى ذلك الكلام هو الان فى السجن .

- ١٦ -

ـ كيف وقع ذلك ؟ كيف ؟ تسأل كيف وقع ؟ ارادة القدر هذا ما قاله عزوز .

كان يبدو فى صوته الاذعان والتسليم . واصبح لا ينتبه لمن يحيطون به . انه غارق فى التفكير .

وكان كل واحد ممن حوله يتأمل يديه اللتين تستريحان على ركبتيه مبسوطتين مقلوبتين . كان عزوز متربعا على الارض وقد اشتبك ساقاه اشتباك ذراعى المقص .

ان الفلاحين يجدون انفسهم الان أمام وقائع جديدة تتوالى من كل صوب وتنتصب بين جدران الطين الاربعة من هذا الكوخ . انها احداث ، ولكن اى أحداث هى تلك الهواجس التى لا شكل لها ولا وجه ، ان صح التعبير ، وهذا اليقين الذى لا يختلج فيه أى معنى واضح ؟ لعلها نداءات ؟ ولكن من أين عساها آتية ؟ أهى تنبيهات ولكن من الذى تراه يطلقها ؟ .

ما من احساس نفذ الى جميع القلوب نفاذا أعمق من نفاذ هذا الاحساس بأن ثمة قدرا قد مثل الان على حين فجأة . هذا العالم الذى شدوا اليه بجذور عميقة ، هذا العالم الذى كانوا جزءا منه حيا ، صائر الان الى موت نهائى ، ليبعث بعثا جديدا . فى هذه الساعة القلقة التى ينهار فيها كل شىء ، وينسد فيها الطريق الذى الفوه دفعة واحدة ، فى هذه الساعة يصبح هذا الطريق غير مسلوك ، وينفتح طريق المستقبل .

كان هذا الاحساس ينشأ فى تلك الساعة الغريبة التى يحدث فيها الانهيار ، وتلوح فيها الكارثة .

قال الفلاح :

ـ لا يعلم الا الله كيف حدث هذا الامر . ما من مخلوق يستطيع ان يقول كيف حدث . ولكننا كنا نعرف انه واقع لا محالة .

وكان الاخرون يفهمون انه لم يبق عليهم الا شىء واحد هو أن يصمدوا . لقد فقد عزوز امرأته فى الحريق . يجب أن نصمد مهما يكلف الامر ، يجب ان نصمد لكل شىء .

وانتفض عزوز . ولاح عليه فجأة أنه يتذكر شيئا ما . قال :
ــ سامحونى أيها الاخوان . فيم بقائى هنا أتكلم ؟ أو أصمت ؟ لقد أحسنت وفادتى فى هذا البيت ، فبارك الله فى صاحبه . ولكن لم يبق ما أفعله هنا . ليس هـذا البيت بيتى . يجب ان اذهب . لا شك ان الله يرى كل شىء ، ولكن سكوته فى لحظات كهذه اللحظة أمر مخيف .

وبذل جهدا من أجل ان ينهض . فقامت الاحتجاجات من كل صوب .

ــ ابق يا عزوز ، ابق .

ــ لم تسترح يا عزوز . استرح قليلا .

ــ ابق يا عزوز .

وقال أردينى صاحب الكوخ مؤكدا :

ــ أنت هنا فى بيتك .

وهذا سليمان مسكين الذى كان متجمعا على نفسه عند مدخل الكوخ ، هذا هو يقترب من عزوز زاحفا على يديه دون أن يكلف نفسه عناء النهوض :

ــ اسمع

الجبال لا تزال صابرة
والانهار لا تزال صابرة
وسوف نقضى المساء ،
العروس تنسج الغلالة ،
التى يسجل فيها طلوع البشائر ،
ــ بأى مكوك
تحيكين النسيج ،
الذى نمضى به على مهل ،
من الشباب الى الكهولة ؟

وفجأة سأل سليمان صاحبه بنظرة يتراءى فيها رجاء حار . ولكن عزوز ظل متلفعا بالصمت . عليه الا يرفض شيئا ، وعليه ألا يرفض صداقة الرجال خاصـــة . وهذا سليمان يضم يديه أمام وجهه ، ويستأنف الامال فى تدفق سريع متصل .

أيتها الخادم ، يا ذات اليدين المبرقشتين
والقدمين المبقعتين ،
أيتها الخادم التى تنشر أقمشة جديدة

نقد منها قمصانا ،
لمحو الآلام ،
قمصانا تخفف ما نلقى من عناء الحمل ،
انني أنحني أمام يديك وقدميك .
وأعهد اليك
بحراسة الانسان والخروف
والفرح والصبر،
والقربان والقلب ،
بجميع الايدى الماهرة
وبكل ما صنعتموه
ايها العامل الطيب
والفلاح الطيب ، والغزالة الطيبة ،
والام الطيبة

وتجلت الصرامة والقوة فى وجه سليمان ، فهو يريد الان جوابا . وكان الفلاحون ينتظرون أيضا وقد خفضوا رءوسهم . ان نظرة تائهة لا تدرك ، تتموج الان فى حدقتي عزوز . قال بعد مدة طويلة وهـو يتنهد :

ــ ان الله لا يبيح لنا ، نحن المسلمين ، أن نقنط .

وأستأنف سليمان .

انى اعهد اليك
بحراسة ازمان الخير
انحني لاقول :
انك ستعودين
يا أيام الهدوء الكبرى ،
لسوف ننصب منضدتنا
فى الميدان العام .
انني انحني امامك ،
الجبال صابرة
والانهار صابرة

***

حين انتصف النهار اجتاز رجال الشرطة المنطقة كلها عائدين الى المدينة . لقد جاءوا الى هنا فى الصباح ، وها هم أولاء يعودون وقد ساقوا عددا من الفلاحين . لقد تجمهر الناس فى طريقهم . وعنـد

مداخل الاكواخ وقف عدد من عجائز الفلاحات . وأخذت كثرة من الصبايا والنساء ترقبهم . وفيما هن يعلقن على الكوارث كلها ، اذا هن يصمتن دفعة واحدة على حين فجأة . ان الموكب يقترب . اندفعن الى الطريق الذى سيمر به الموكب يردن أن يعرفن من هم الـذين اعتقلوا . ان بعضهن يمضين الى الامام أكثـر من غيرهن حتى انهن ليختلطن بالرجال فى بساطة . وازداد عـدد الجمهـور ، ولم تلبث الطرقات ان امتلات بالفلاحين الذين اصطفوا على حافة الدرب بعد كثير من الذهاب والاياب . وفى بعيد دوت صرخات غير انسـانية ، صرخات موت .

ثم انقطعت الصرخات بما يشبه السحر . وانقضت لحظة طويلة . لم يستأنف النحيب . ان الضغط الخانق الذى كان يجثم على الريف منذ اسبوع قد فقد الان ثقله على حين فجأة . حدث ذلك على غير توقع ، دون ان يكون فى الحسبان ، وقع فى هذه اللحظة بالذات ، واحس به جميع من كانوا بالحقول .

ووصل السجناء أخيرا ، فاصبحوا فى متناول البصر . ان اصواتهم لا تسمع . قامت فى الحشد حركة قصيرة ، وارتفعت صـيحات اخذت امرأة من النساء تبكى . أنها تنتحب فى رفق وقد وضـعت يديها المتشنجتين على وجهها .

وتقدم رجال الامن وقد باعدوا أذرعهم ، يدفعون الجمهور الـى وراء . فتراجع الناس .

ــ هؤلاء هم .

لقد اصبح الفلاحون فجأة هناك . فطوقهم صف من رجال الشرطة

ــ ولكن لماذا لا يأخذون غيرهم ؟ لماذا لم يعتقلوا جميع الناس ؟

بهذا دمدم صوت أبح لاهث .

وخيم صمت كأنه صمت الموت . وصـاح احـدهم ، من آخر الصف ، مهللا .

كان رجال الشرطة والمعتقلون يسيرون صفوفا مرصـــوصة نخطا سريعة ، فما تنفك تظهر وجوه شهباء كأنهـا وجوه أشبـاح . ان احد رجال الشرطة يسير الى جانب الموكب ، وقد وضع يـديه فى جيبى معطفه ، وراح يصدر اوامره . والفلاحون يسـيرون متدثرين بجلابيبهم الملطخة بالوحل ، ساترين رءوسهم بالقبعات . انهم ينظرون الى الامام كأن هدفا رهيبا قد نومهم . وفى قـرارة الحجاج المظلم الغائر فى أعينهم كان يبدو أنهم لا يزالون يترصدون

أرضا شب فيها الحريق • الفضاء أمامهم حر طليق •
وحين تقدم أحد الرجال مرة واحدة ، فيما يشبه التوسل ، راراد أن يكلمهم رغم أوامر الحظر التى يصدرها رجال الشرطة ، حرك احدهم يده باشارة مبهمة ، وقال بصوت خافت هامسا :
ــ دعنا . ابتعد .
انهم يسيرون . واحد ، اثنان ، ثلاثة .. فضاء . فضاء كبير . هل الاخرون يتبعون ؟ هل هم جميعا هنالك ؟

رباه ما أغرب هيئة هؤلاء الرجال ! من يسير هناك ؟ هذه الوجوه الناتئة عظامها الساكنة تحت القبعات ، هذه الجلابيب الخلقة المغبرة ... آه .. أهذا ممكن ؟ انهم يسيرون . ومن حولهم تحفر منطقة حرام .
وارتد الجمهور مرة أخرى امام وثبة رجال الشرطة الغاضبة الحانقة . ولكنه لم يلبث أن تقدم الى الامام متموجا . الرجال يوغلون فى الطريق كالعميان ، بطرقات خطاهم السريعة ، مؤلفين كتلة موحدة .
وظل القرويون هناك مرتعشين مرتبكين • ان أحد رجال الشرطة يهز رشاشه بأطراف يده في اهمال • دمدم أحدهم يقول فى اضطراب بويا ، بويا ! ان حلقه يبدو صدئا • ورجال الدرك الذين قد جاءوا ايضا ، مروا امامهم ضخاما ثقالا وقد نصبوا اكتافهم واحكموا وضع خوذهم على جباههم .

ان الفلاحين الذين تركوا حافتى الدرب منذ راوا وصول الشرطة والمعتقلين ، قد تجمعوا كتلة واحدة فى طريق الموكب بحركة خفية لا تدرك • ان اندفاعة قوية عارمة قد حملتهم الى الامام كأنهم مد البحر . كان يبدو عليهم أنهم يريدون أن يطوقوا الموكب وان يعانقوه عناقا خانقا .
صاح رجال الشرطة :
ــ الى الوراء ، الى الوراء ..
فنظر اليهم الفلاحون دون ان يتحركوا ، متجاهلين التهديد .
سألهم الاخرون :
ــ ماذا تريدون ؟ ان هذا الامر لا يعنيكم .
فلم يجب الفلاحون بنعم أو لا ، واكتفوا بالنظر الى رجال الشرطة .
عندئذ أخذ رجال الشرطة والسجناء يتقدمون بخطا بطيئة •

ـ الى الوراء .. هيا .. الى الوراء .. فهمتم ؟
ولكن الفلاحين لم يتحركوا ، انهم يحدقون الى رجال الشرطة بأعين من حجارة .
ـ قولوا ماذا تريدون !
ولكن الفلاحين لم يجيبوا .
ـ فشهر رجال الشرطة اسلحتهم .
ـ اذا أقتربتم كثيرا .. فسوف تندمون .
بهذا حذرهم ذلك الذى كان يبدو أنه رئيسهم . ثم التفت الى رجاله وقال :
ـ ابعدوهم !
فهجمت طائفة من رجال الشرطة على الفلاحين فدفعتهم فى عنف وفظاظة .
ـ حذار ! ان الذين قبضنا عليهم أناس مجرمون . وسيكلفكم غاليا جدا ان تفكروا فى مساعدتهم !
وبحركة مضطربة هجم رجال الدرك ايضا على الفلاحين فأسقطوا عددا منهم ، وبعثروا عددا آخر . ولكن الفلاحين ما لبثوا ان تجمعوا مرة أخرى . ووصل اشخاص آخـــرون اجتذبتهم حميا هـــذه الحركة .
اخذ احد رجال السلطة يصيح بالناس الـذين كانوا يـزدادون توافدا على الموكب وازدحاما حوله :
ـ الى الوراء .. أقول لكم ابتعدوا الى الوراء !
ولكن عدد الفلاحين المتدفقين من الحقول كان ماينفـك يتضخـم انهم ينظرون ولا يتحركون ، انهم لا يحتجـون ، لا يعملون شيئـا البتة . وانما هم مسمرون فى امكنتهم . كان يبدو انه ما من شيء ، ما من قوة يمكن أن تصرفهم .

وكان الصمت في أثناء ذلك ما ينفك يثقل ويثقل ويزداد اقلاقا . ليس فى الحقول أناس كثيرون ، ومع ذلك كان الحشد ما ينى يتكاثر لا يدرى أحد كيف ! ان طائفة من الفلاحين تحف برجال الشرطة عن كثب ، وما تنفك تقترب منها .
ان اكثر هؤلاء الفلاحين شباب ، فبعضهم سليم الجسم شـاحب الوجه ، واضح القسمات ، وبعضهم اميل الى الشدة والقسوة ، كأنما هبت عليهم جميع الرياح ولفحتهم جميع الشموس .
الناس لا يزالون يرقبون ويترصدون . مائة وجه من الوجـــوه

تنم على اختلاج غامض . انهم جميعا ينظرون فى انتباه .
وما هى الا لحظة حتى قامت فى الحشد همهمة قوية ، لم تلبث ان انقطعت فجأة .
صمت . ان رجال الشرطة يراقبون الفلاحين .
هذه امراة تخرج من احدى الطرقات وتلتحق بالحشد . انها مخلوق صغير مفضن الوجه ناتىء الاسنان . انها تشق لنفسها طريقا بين الاجسام المتراصة وتلقى على رجال الشرطة نظرةتائهة . ثم اذا بهاتقول وكأن صدمة كهربائية قد سرت فيها :
ــ عرفته ، عرفته .
قالت ذلك وهى تشير بيدها الى أحد رجال الشرطة .
ــ انه يجىء دائما حين يكون الامر اعتقال عدد من رجالنا . عرفته . أنه هو الذى يجىء دائما .
ومر اواخر الرجال واحدا بعد واحد .

***

ــ لماذا اعتقلوا هؤلاء الرجال ياكومندار ؟
ــ لاننا ، يا ولدى ، مجرمون فى نظرهم .
ــ ولكننا لسنا مجرمين دائما .. فليعاقبوا المجرمين ، وليدعوا من ليسوا بمجرمين .
ــ ولكننا جميعا مجرمون يا ولدى ، جميعا . فهم يعاقبون بعضنا بالرصاص وبعضنا الاخر بالضرب أو السجن .. ويعاقبون بعضنا بالكلام وبعضنا بالجوع ، انهم يقتلونهم عند أول حركة يقومون بها . ويطردون ذوينا من النور ، يطردونهم من الارض التى يزرعونها . ونحن لا ندرك ذلك . حتى اذا ألقوا امام وجوهنا واحدا من موتانا فهمنا . اننا نشفق على الرجل الذى قتلوه ، ونشعر امامه بالخجل والعار . ولكنهم يسوقوننا الى القبر نحن أيضا ، شيئا بعد شىء .. اننا مستعدون للنزول الى القبر دون أن ننطق بكلمة ، ودون ان نرفع خنصرا .
ــ شىء فظيع ..
ــ أبدا هو الان شىء فظيع ، اما فى غد فلن يكون كذلك . انظر الى كبار المزارعين الذين هم منا ، انظر الى تجار المدينة الذين هم منا أيضا ، انهم لا يقولون شيئا . يسقط رجل فى هذا النضال ، فيلتزمون الصمت خلال لحظة . ولكنهم يستاءون ويتأوهون . ولا شك أن رجلا آخر سيمضى فى طريقه . وتستأنف الحركة من جديد .

ذلك انه ليس لاحد الا طريق واحد يسلكه . هو طريق ضيق ، نعم .
ـ ما الذي يجب ان نعمله حتى نعيش حياة غير هذه الحياة ؟
ـ يجب ان نحطم الاستبداد وان ندفنه .. اذا لم نقاوم انواع الاستبداد هذه ، فلن يكون ثمة داع الى الشعور بالخجل والعار أمام الاحياء أكثر من الشعور بالخجل والعار أمام ... هؤلاء الموتى .
ـ أهذا كل شيء ؟
ـ هذا كاف فى البداية .
قال عمر :
ـ ولكننا العدد الاكبر .
ـ صحيح أننا العدد الاكبر .. وفى هذا العدد الاكبر يدخل النحاف والسمان ، الصغار والكبار ، الذين يخافون والذين يستبسلون .. عددنا كبير جدا .. ولكن لابد من صبر طويل لرجالنا الشجعان الذين يستعدون للقيام بالخطوة الاولى .
كان الكلام المحرق الهادىء الذى يقوله كومندار ينفذ فى قلب الصبى نفاذ مسمار .
قال عمر :
ـ ولكن اذا لم يصرح أحد بأنه مستعد لان يموت فان جميع الناس سيطعنون .
أجاب العجوز :
ـ أنا لم أقل شيئا . يجب أن نتحد وأن نكون صفا واحدا تشد بعضنا الى بعض سلسلة واحدة .
ـ الا انهم لبهائم قذرة فيما أرى .
ـ لذلك يجب أن نحطم الاشرار .
ـ أهذا كل شيء ؟
ـ نعم هو كل شيء .

- ١٧ -

حين دخلت ماما الى الغرفة وجدت زوجها مشغولا بفتق الاجزاء البالية من بردعة . كان جالسا أمام الباب تحت المنحنى الذى تبرز منه نواتىء ضخمة كأنها رءوس بشر . ان فى داخل الحجرة نقوبا عميقة تشكل خزائن صغيرة فى الجدار توضع فيها الاوانى وعلب البهار وغير ذلك من الادوات المنزلية . ان رطوبة خفية تخرج من حيطان الحجرة . لم تستطع ماما أن تنظر الى زوجها وجها لوجه . رفع قره رأسه عن عمله وحدق اليها . استغرقت المرأة فى عملها . تناولت طبقا من فخار كانت تريد أن تضع فيه قرص الفطير الذى هيأته . خفض قره عينيه دون أن يعبأ بها بعد ذلك ، وعاد يستأنف عمله فى هدوء . خرجت ماما من المغارة بغير ضجة .

انقضت ثلاثة أيام على الليلة التى شب الحريق أثناءها فى مساكن عمال مسيو فيار . لقد كان ذلك اشبه بحلم رهيب . كان الناس هنا لايعرفون ما الذى وقع على وجه الدقة . ومما زاد قلق ماما شدة وارماضا ان قره قد خرج من البيت فى ساعة متأخرة من تلك الليلة . وبقيت امراته فى حجرتها وحيدة تشعر بأن الخطر يحف بهـــا .

فلما عاد قره فى أول الصباح ، سألته ماما وقد يبست اجفـانها وتقرحت :

ـ ماذا هنالك ؟

ـ عمال أضربوا عن العمل ، واحرقوا مزرعة فيار . يجب أن يتوقع المرء منهم كل شىء . لقد قلت ذلك دائما . يجب أن نتوقع ماهو شر من هذا أيضا .

غصت ماما .

هذا ما قاله لها زوجها فى ذلك اليوم . وفى الغد ، فى الغد لا بعده ، علمت من الجيران ان هذا الكلام الذى قاله لها زوجها لايشتمل على شىء من صدق .

ان الفلاحين لم يضرموا النار . ان أحدا من الناس لا يستحى أن يعترف بالحقيقة فى هذه المنطقة حين يقع أمر من الامور . صحيح

انهم لا يصرحون بالحقيقة للسلطات . وما من احد من السكان يقبل ان يكون حتى شاهدا فى قضية من القضايا . فكلما جاء رجال الحكومة يريدون الحصول على بعض المعلومات عن بعض الافراد قال جميع الناس انهم لا يعرفون شيئا البتة . كان رجال الحكومة يصطدمون دائما بوجوه خرساء لاتنطق . ولكن التحرز وسوء الظن لم يوجدا فى يوم من الايام بين الفلاحين انفسهم ، وانما كان هؤلاء الفلاحون يؤثرون ان يقول بعضهم لبعض كل شيء ، وكان ذلك [illegible] . ان المنطقة كلها يمكن ان تعلم بأمر من الامور دون ان يتسرب شيء من انباء هذا الامر الى آذان الشرطة .

فلماذا قال قره اذن ذلك الكلام ؟

ان بابا لم تفسر هذا الامر لنفسها . وظل قره يصاحب الفلاحين مع ذلك ويقول المثل : اتهام الناس ظلما يحرق اخوتك ولكن الذى يقذف الاتهام يحمل على كتفه عارضة من لهب .

وأخذت بابا تشمئز من زوجها .

- ١٨ -

اعتاد سكان دار سبيطار شيئا فشيئا على وجود الحرب . كان الوقت ينقضي دون أن يقع شيء مما كانوا يخشونه . ان رجالا يمتون اليهم بقربى كانوا يذهبون الى القتال فى بلاد بعيدة ، ويموتون فى تلك البلاد أحيانا . غير أن سكان دار سبيطار كانوا لا يعرفون كيف يقطعون برأى فى الخطر الخفى الذى يتكدس فوقهم .

لم يحدث اذن شيء . وعادت الحياة تجرى فى مجراها . وانقضت شهور لم تحمل الى الناس ما يبعث على القلق .

كانت الاشياء تتراكم . ان عددا من الرجال يسافرون فى كل يوم . وبعض الناس تركوا المدينة . فلوحظ سفرهم واحدث ضجة خلال فترة من الوقت ، ثم اختفوا وابتلعهم المجهول . وانقضت اشهر اخرى ، والحياة تجرى على تلك الوتيرة نفسها . انها الحرب السخيفة . غير أن هناك شيئا كان الناس يحسون انه آت من بعيد ، وانه ربما كان ذاهبا الى بعيد .. وهو موجة من الاعماق لعلها كانت تستحيل الى عباب هائل .. ان هذه الموجة تقترب شيئا فشيئا . الناس مأخوذون الان بالمنظر المضحك المبكى ، منظر هؤلاء الرجال المجندين الذين تقنعوا ، فهم أنصاف جنود وانصاف مشردين . انهم ينتعلون أحذية بالية ممزقة ، ويرتدون الزى العسكرى الصيفى وهم فى أوج الشتاء ، وينامون على القش فى الملعب الجديد والفنادق . وقد اضطر بعضهم الى دخول المستشفى مصابا بنزلة رئوية . انهم يعيشون حياة عجيبة ، لا يفهمون شيئا مما يحملون عليه وما يعهد اليهم به من اعمال .

وكان عمر يقضى ايامه متجولا فى ارجاء المدينة . هى أيام جوفاء ملأى فى آن واحد . وهى أيام طويلة على كل حال . ايام ساطعة حارة تحتل مركزها تلك المشكلة القديمة ، مشكلة الخبز . ان الامر الذى كان يفكر فيه عمر ، أو قل بالاحرى الامر الذى كان يقلقه فى غموض ، يمكن أن يعبر عنه على هذا النحو : أنا جائع ، جائع دائما ، لم أذق طعاما أسكت به جوعى . وكان السؤال الذى يلقيه على نفسه بغير هوادة هو : أترانى آكل بعد قليل ؟ أترانى آكل غدا ؟ وكان لايستطيع

طبعا أن يجيب عن هذا السؤال . انه ليصعب على المرء ان يتصور بخياله الشعور الذى كان يولده فى نفسه هذا الشك الذى يتجدد الى غير نهاية ، ويبدو باقيا لا يزول . اية معجزة كان يمكن أن تنقذ عمر .

الشمس تشوى المدينة وتجعلها كالحديد المصفح الحامى . وكان يتفق للصبى فى كثير من الاحيان ان يقع على جماعات من الفلاحات أخذن ينتحبن بأصوات عالية وصرخات حادة ، متحلقات عند حوافى « الملعب » ، بينما كان ازواجهن أو ابناؤهن فى داخل الملعب يمثلون امام مجلس التجنيد . انه لمنظر حزين ، أصبح مألوفا عاديا فى أيام الحرب هذه .

وكانت عطلة الصيف تشارف على نهايتها رغم كل شيء . وأنبأ عمر امه بأن العودة الى المدرسة قريبة . انه فى حاجة الى ملابس نظيفة والى كتب . . . ان مطلبا من هذا النوع هو دائما تمهيد لمشاجرة بينه وبين عينى .

صاحت عينى تقول :

ـ دعنا أخيرا من هذه المدرسة ! لقد ضقت بها ذرعا ! أتراك تأمل ان تصبح وزيرا ؟

كان العالم يعيش تلك الفترة من التاريخ ، حين جاء أروع فصل من فصول السنة . ان شتاء تلمسان ، القاسى المظلم ، الكاوى كقطعة من جليد ، لا يوافى المدينة الا فى أواخر شهر كانون الثانى أو بعده بقليل . وقبل ذلك كان ضرام مسعور لا يزال يتابع سيره المظفر من شجرة الى شجرة . فكل شجرة من الاشجار الان مشتعل يهتز ويتموج . ثم ذابت النار فى احتدامها وهبطت . فكل شيء قد تطهر فى ذلك التوهج ، وملامح البلد ترتسم منذ الآن فى جو ناعم من وضوح مضيء ، ولون ساج .

- ١٩ -

كان يساعد عينى أناس من أهل الخير يكتمون أسماءهم فى كثير من الاحيان . لقد مات زوجها منذ مدة طويلة .. وأصبحت الان تقبل بوادر الكرم هذه فى غير مرارة ، بل أصبحت تقبلها فى شكر واعتراف بالجميل . كانت بهذه المساعدات تدبر أمورها يوما أو يومين ولكن لابد من الحياة فى جميع الايام ، وكان لابد من الاكل فى جميع الايام . وتلك مشكلة من المشكلات . كانت عينى تعمل وتجهد نفسها بالعمل ، الظروف قد علمتها قيمة ماتقوم به من عمل .

لذلك كانت تعرض على ابنائها ما تتقاضاه فى آخر الاسبوع اجرا على عملها . كانت تريد أن يروا هذا الاجر بأعينهم . انه أجر قليل. فكان الاطفال يعرفون بذلك ثمن ماتنفقه امهم من قوة وصحة وحياة.

كانت تسألهم :

ـ لعلكم تظنون أن هذا الاجر قليل ؟ ذلكم مايجنيه المرء بعد أن يكون قد هدم حياته بالعمل .. نعم ، هذا مايجنيه ، ولا شىء غيره .

وكان الاطفال ينظرون الى المال ، ثم ينظرون الى امهم ، ولا ينبسون بكلمة واحدة .

واردفت عينى تقول :

ـ هأنتم ترون ان مبلغا كهذا المبلغ لا يمكن أن يفيد فى شىء ! هانتم ترون اننا اذا اشترينا خبزا فلن نستطيع أن نشترى زيتا ، واذا اشترينا زيتا فلن نستطيع أن نشترى خضرا ، واذا اشترينا خضرا فلن نستطيع أن نشترى بنا ! نعم ، هذه حياتنا ، هل رأيتم بأعينكم ؟

ويغض الاطفال ابصارهم لا يريدون أن ينظروا الى هذه «الدراهم» بعد أن صاحوا صياحا كثيرا مطالبين برؤيتها . لقد استقبلوا أمهم بفرح عظيم وتهليل كبير .

ما كان أشد احتفالهم بمقدمها ، وما كان اروع فرحتهم برؤيتها ! غير أنهم الان يشيحون بوجوههم متعبين ، لا يعرفون ماذا يعملون !

كانت عينى قد صرت هذه الدراهم ، على عادتها ، فى عقدة من منديلها القطنى الواسع .

ولم يكن قد بقي منها الى اليوم شيء ، أو قل انه لم يبق منها الى اليوم الا قليل لا يغني ، فكأنه ليس شيئا البتة . لقد وصلوا منها الى آخر قطرة . لم يعد في وسعهم أن يحصلوا على ريال واحد ! ذلك انه لم يبق في المدينة عمل . نعم ، لم يبق في المدينة عمل . وعبثا يصدع المرء راسه باحثا عن عمل . أصبح الرجل الاسباني لايكلف أحدا بدرز نعاله ، وأصبح الحائكون لايعهدون الى احد بغزل صوفهم .. الامر بسيط . لم يبق هنالك عمل .

الحجة اذن واضحة ، وانما ينبغي أن تجد سبيلها الى رؤوس هؤلاء الاطفال .

قررت عيني عندئذ أن تقوم برحلة من تلك الرحلات الغريبة ! لماذا لا تحاول التهريب مرة أخرى ؟ انها لا تستطيع ان تعمل شيئا آخر . لقد استنفدت جميع الوسائل ، وأصبحت الان على شفا الهاوية . فكروا في هذا الامر قليلا ، انتم ايضا ! انه لابد لنا من طعام ، أليس كذلك ؟ اذن لم يبق الا هذا الامل : ان اسافر الى مراكش ، وان اعود من هنالك ببعض قطع القماش ، فأبيعها هنا . تذكروا أن ذلك ليس بالامر السهل . انا لا اسافر حبا بالسفر . الرحلة اولا طويلة . وهي ثانيا تكلف مالا ! ينبغي أن أمكث بضعة أيام في عوجا . من هذه الناحية ، انا مطمئنة . لنا هنالك اقرباء . سانزل عندهم رأسا . مساكين ! لقد أحسنوا معاملتي دائما . كانوا في كل مرة ينزلونني في بؤبؤ أعينهم ! والحق أنهم أناس ميسورون . ان لهم عدة مخازن . تجارتهم مزدهرة دائما . وهم يكرمون وفادتي . أجزل الله عطاءهم ، وزادهم خيرا على خير . المهم انني لن أنفق اذن شيئا . حتى لقد حدث مرة أن دفعوا عني ثمن تذكرة العودة . ولكنكم لا تستطيعون أن تتصوروا بخيالكم ما هو الجمرك . يقال ان الصراط ادق من حد السيف وأرق من شعرة . الا أن الجمرك كالصراط يا أولادي . ادعوا الله لأمكم . ولكن الله يعرف الحال التي نحن فيها ، انه يعرف أنكم يتامى ، وان امكم تعمل مافي وسعها أن تعمله . سيعينني الله على اجتياز الجمرك . لا شيء يدفعني الى هذا الا اليأس . ستكتب لي الملائكة هذا في كتاب الحسنات .. ارجو ذلك . أما انتم ، يا أولاد ، فسأدع لكم بعض الدراهم قبل أن أذهب سأترك لكم ما انتم في حاجة اليه .

وكانت عيوشة ، وهي تعرف هذه الاحاديث ، تصغي في اذعان . وسألتها فجأة :

ــ ما هو المبلغ الذى ستتركينه لنا ؟
ان عيوشة ، أكبر اولاد عينى ، هى التى تتولى امر العـائلة فى غياب عينى .
ــ المبلغ الذى ساتركه لكم ؟ هل تريدون أن اترك لكم ملايين ؟
ــ لم أقل ذلك ! ولكن يجب ان تتركى لنا ما يكفى لطعامنا اثناء غيابك .
ــ خذى ! هذا كل ما معى ؟
قالت عينى ذلك وحلت منديلها وأعطت ابنتها قليلا من الدراهم فقعدت البنت على الارض ، وعدت الدراهم فى راحة يدها ، ثم رفعت رأسها نحو عينى .
ــ هذا لا يكفى الا للخبز بل لست ادرى هل يكفى للخبز ؟ فأين ما نشترى به الاشياء الاخرى ؟
قالت عينى :
ــ هذا كل ما معى .
ــ الانك تسافرين يجب علينا ان لا نرم الا خبزا .
فصفعتها امها بنظرة شزراء ، دون ان تقول شيئا . قالت عيوشة ناشجة .
ــ ان هذا لن يكفى ابدا .
فقالت عينى :
هذا كل ما معى .
ــ ولكنك ستمكثين في عوجا ثلاثة أيام أو أربعة .
فعادت الام تقول :
ــ هذا كل ما معى . لا زيادة .
فقالت الفتاة متشكية :
كيف يمكن هذا ؟
كان هذا المشهد يقوم كلما تهيأت عينى للسفر .
ان عيوشة ممسكة بالدراهم فى يدها ، وها هى ذى تتفرس فى وجه أمها ، ثم تتراجع الى الوراء . ان المشهد يمـــكن أن ينتهى باطمات .
وقالت الفتاة :
ــ آه . . آه . . انها لحياة تحطم القلب ، هذه الحيــاة التى تعيشها !
كانت عيوشة قد أصبحت تلك الفتاة الطويلة النحيلة المتكدرة ،

التى يعرفها الناس فى دار سبيطار وفى غير دار سبيطار من بيوت الحى . ان لباسهاثوب يتهدل من أعلى الكتفين الى أخمص القدمين، فيغطيها كلها . وان لها وجها رثا أشهب ، وقسمات مهدمة فقدت كل ما للصبا من نضارة الصحة . غير ان ثمة فتنة حزينة مقلقة ، لايدرى المرء كنهها ، كانت تغنى فى وجهها عن فتنة الصحة . لعل صباها وذبولها المبكر ان يكونا مصدر هذه الفتنة . مسكين هذا الوجه الذى يجب عليه أن يجيب عن كل هذه الاسئلة المقلقة ! لم يكن لعيوشة غير هذا الوجه . ولم يكن لعيوشة الا هذا الوجه . انه هو بعينه دائما ، بثناياه الصغيرة المثيرة للشفقة التى تولدها فيه الابتسامة .

انهم الان جميعا ، ومن بينهم الجدة ، رهن باليسير الذى ستجنيه عينى من التهريب . وكان مما يدهش عمر أن أمه لم تقع حتى الآن بين يدى الشرطة وجال الجمــــرك وجنود الدرك الذين يخفرون الحدود . وهو من أجل هذا السبب وحده مستعد كل الاستعداد للاعجاب بها .

لم تحتج عينى الى وقت طويل حتى تعد قفتها التى تصحبها فى اسفارها ، وودعت عينى جميع النساء (لقد أصبحت لاتخفى عنهن أسفارها) ، ومضت .

***

صاحت احدى الجارات فجأة :

ــ هه ! عينى ..

فما أن رأى النساء جارتهن عينى التى كن يعتقدن انها وصلت الى عوجا أو أوشكت ، حتى اخذن يصرخن ويصحن متعجبات . وانهمرت الاسئلة على عينى من كل حدب وصوب .

ــ ماذا حدث لك ياعينى ؟

وهرع أولادها اليها يعوون ويرددون :

ــ ياما ، ياما .. يا أميمة .

واستبد ببعض الجارات شعور جنة بالفرح والمرح ، وأخــذن يسائلن عينى ومن يضحكن ضحكا شديدا تتســاقط له دموعهن :

ــ أهلا وسهلا بعينى . لم نرك منذ زمن طويل . كيف حالك اذن ؟ ورحن يغمرنها بوابل من العبارات التى تقال عادة عند استقبال صديقة عزيزة بعد غياب طويل .

وقلن متهكمات :

ـ كيف حال أهل عوجا ؟

واستطاعت عيني أخيرا أن تقول :

ـ يا اخواتي لقد وصلنا الى نهاية الزمان ، وصلنا الى مايسمى بيوم الساعة ..

فصاحت بعض النساء مذعورات :

ـ باللطيف ، ياحفيظ ..

ـ أحلف لكن بأعز ماعندى .

ووضعت عيني يدها على عمر ، دون أن تنتبه له ، وعادت تقول مؤكدة :

ـ هى الساعة ، مافى ذلك شك . ان ماقيل هو الحق .

قالت عيوشة متوسلة :

ـ هوه ! ماما ! قولى لنا ماحدث . لا تدعينا فى هذه الحيرة . الا ترين ؟ البيت كله يريد ان يعرف ماحدث .

قالت عيني مترجية :

ـ دعينى أتنفس قليلا يا بنتى .

حتى اذا قررت ان تتكلم ، كانت النساء قد استعدت للاصغاء اليها ، لم تنبس واحدة منهن بحرف . ان ماسمعنه فى ذلك اليوم يفوق كل ما كان فى وسعهن ان يتصورنه بالخيال .

قالت عيني :

ـ لقد بدلت الدنيا غير الدنيا ، يا اخواتى . ان هنالك أمورا تحدث وليس لنا بها عهد من قبل . هل تعلمن ماذا قيل لى فى المحطة ؟ اقتربت من الرجل الذى يقطع التذاكر أريد شراء تذكرة السفر ، فقال لى : « يا خالة انه لا يسمح لاحد بالسفر بعد الان دون ترخيص خاص » ، ولكننى أجبته : « اننى أذهب دائما الى عوجا دون حاجة الى ترخيص » ، فقال لى عندئذ : « هذا تغير يا خالة » . لماذا تغير ؟ هل يجب ان نعتقد أن الدنيا قد تغيرت أيضا ؟ قال لى الرجل : « نعم يا خالة ، لقد تغيرت الدنيا ، تغيرت منذ ان قامت الحرب » قلت له : هكذا اذن .. تغيرت الدنيا حين اردت انا ان أسافر الى عوجا ! فقال لى : « لم تتخذ هذه التدابير من اجلك خاصة » فقلت له : اذا لم تتخذ من أجلى خاصة فما هو السبب ؟ قال : ما هو السبب ؟ السبب هو الحرب . قلت له : ان لى فى عوجا أسرة . وأريد ان أزور أهلى . أؤكد لك اننى لا أذهب الى عوجا لامر آخر . قال : لا بد لك من ترخيص ، وبدون ذلك

لا أستطيع ان اعطيك تذكرة سفر . ترخيص . ترخيص . هـذا ما قاله الرجل قاطع التذاكر . قلت له : ويلى من مسـكينة . اذن لا أستطيع الحصول على تذكرة سفر ؟ ولكنني أؤكد لك أن هذه آخر مرة اسافر فيها ، لن اضع قدمى فى القطار بعد اليوم . دعنى أسافر هذه المرة الاخيرة . أنظر ! لقد أعددت كل شيء . هذه سلتى . وقد ودعت جميع من فى البيت . ليس يليق ان اعود الان ادراجى . ولكن الرجل قال لى : لا بد من ترخيص ياخالة . انا أتمنى أن اعطيك تذكرة ولكنهم سيوقفونك فى الطريق . هذه هى المسألة . قلت له : ولماذا يكون قيام الحرب سببا فى منع الناس من السفر الى عوجا ؟ قال : هذه اوامر السلطة العليا ياخالة . لا يمكن أن يسافر احد بعد الان بدون ترخيص . جميع المسافرين مطالبون بالحصول على ترخيص . قلت بينى وبين نفسى « ألا ليتهم يموتون هم وهذه الاوامر التى يصدرونها ، وهذه الحرب نفسها فوق ذلك »

وعندئذ أخذ الناس الذين كانوا ورائى ، والذين كانوا يريدون هم أن يسافروا ايضا ، اخذوا يصيحون سائلين : « هل يجب أن نحصل على ترخيص أيضا » فأجابهم الرجل : « لا بد من ترخيص لكل مسافر ، لا بد من ترخيص لجميع من يريدون السفر » . فجعل الاشخاص الذين يقفون ورائى ، جعلوا يصيحون . آ .. أو .. أى .. عندئذ قلت للرجل قاطع التذاكر : هل رأيت ؟ فقال لى : « هل رأيت ؟ انهم يريدون جميعا أن يسافروا بالقطار دون ان يحملوا ترخيصا ، وهم لذلك لن يسافروا » . وعاد كثير منهم الى بيوتهم وانتظرت أنا فى ركن بالمحطة . ثم مضى جميع الناس ولم يبق منهم أحد . عندئذ عدت الى قاطع التذاكر ، فقلت له : ها قد ذهبوا جميعا ولم يبق منهم أحد ، ألا تستطيع والحالة هذه أن تعطينى تذكرة يا عم . وشفعت طلبى بأنواع من الرجاء والتوسل ، قلت له : انعم الله عليك ، ومتعك بزيارة قبر النبى ، وجعل الجنة مأوى روحك بعد الموت . وقلت له : لعلك لم تعرفنى . ان أمك لالا خديجة هى بنت أخت عمتى زازا التى تمت أيضا بقرابة قريبة الى أبيك من جهة جدته . نحن اذن قريبان كما ترى . فقال : « كل ما تقولينه قد يكون صحيحا . لست أعارض فى هذا . ولكن لا بد لك من ترخيص ياخالة . ليس الامر بيدى ، لا يجوز لاحد أن يسافر بعد اليوم بدون ترخيص . انها الحرب ! » وهأنتن أولاء ترينني فى البيت بينكن . من ذا الذى كان يمكن أن يصدق ذلك فى هذا الزمان ؟

هل كان يمكنكن أن تصدقنه أنتن ؟ . لقد قال قاطع التذاكر : « انها الحرب ، فلا بد لك من ترخيص ياخالة » . نحن نعلم انها الحرب. ولكن هل تمنعنا الحرب من الذهاب الى عوجا ؟ لقد كان الموظف لطيفا دمثا ، ولكنه لم يسمح لى آخر الامر ان اركب القطار . ان المرء يتساءل : أتراهم يطالبوننا بعد الان بترخيص من اجل كل شيء .. من أجل التجول فى مدينتنا نفسها ، من أجل الخروج من البيوت .. من أجل الذهاب الى البقال .. من أجل حمل العجين الى الفرن ؟

ان عينى مرهقة ، وها هى ذى تتنبأ لنساء دار سبيطار المتحلقات حولها باقتراب أيام يختلط فيها الحابل بالنابل • والنساء يتصايحن ذعرا من هذه العلائم التى تنذر بوقوع أحداث غريبة .

كان عمر يصغى الى حديث امه هو أيضا ، فأحس فجاةان عداوة لا يعرف كنهها ولايستطيع تحديدها تحيق به . ان قوى مجهولة تحف به من كل صوب ، قوى تخفى عن الابصار ولكنها توغل فى العالم ايغالا بعيدا عميقا . من اى ليل داج تنبع هذه القوى ؟ ان عمر يحس انه محمول هو نفسه على ظهر امواجها العالية . ان هذه القوى تقتتل دون ان يصبح الظل ظلاما دامسا ودون ان يصبح الضياء لهيبا ساطعا .. انها تقتتل دون ان تنتصر احداها على الاخرى . لا راحة ولا هدنة . الحياة . الحياة .

***

لا يزال القلق يرين على الناس صاحيا يقظا • ان جوا ينذر بسقوط العاصفة يخيم على تلمسان . تجسدت فجاة جميع المخاوف المتفرقة وامتلأت سماء المدينة بانباء حزينة وصلت اليها على اجنحة سريعة .

لم يتخلص عمر وذووه بعد ذلك من الشعور بأنهم يعيشون فى عالم محرم • لقد هبط الليل على هذا العالم على حين غرة ، فما يدرى أحد متى هبط ولا كيف هبط . والليل يتراكم الان فوق الليل . وهذا الخدر الكبير يميت الان كل من يتطلع الى الحياة .

واحس عمر بأنه يعيش بين اناس قاوموا المصير المشترك وحدهم، فلم يموتوا وعاشوا بعده • هل يتهيأ سكان دار سبيطار ، واهل تلمسان أنفسهم لخوض معركتهم الاخيرة ، هل يخرجون بعد قليل الى الفجر الذى يتجهون اليه مفتونين به منجذبين اليه فيما يشبه الهذيان ؟ أم أنهم سيظلون آخر الامر على ما هم عليه ، سكانا من

سكان هذا العالم الذى فرض عليه الصمت ، ومات فى الهواء الطلق، وأخذت الشمس والريح تفرغه شيئا شيئا بعد شىء ؟

كانت دار سبيطار تعيش مأساة شعب ممزق .

وصل النبأ ذات يوم . جاء فيه ان حميد سراج نقل مع اشخاص آخرين الى معسكر من معسكرات الاعتقال بالصحراء . قالت فاطمة اخت حميد سراج :

ـ ارأيتم كيف كان هذا الرجل ؟ لا يتوقف عن الركض من مكان الى مكان . حتى ولو ذهب الى خارج البلاد . كان يسافر من مدينة الى مدينة ، ويطوف البلاد قرية قرية ، ويتجول فى الريف لا يدع منه ركنا ، ويتحدث الى الناس أثناء ذلك كله . ان هذا الرجل لم يكن يسعى الى ربح . ولم يكن ينشد نفعا . لم يكن يهدف من أعماله الى مصلحة لنفسه . انه لم يجن فى يوم من الايام قرشا واحدا . ولو شاء ، مع ذلك ، لأثرى ،ولجمع الملايين الى الملايين ، ولحظى بكثير من الاعتبار والجاه . وصمتت فاطمة . ان صمتها يتهيأ لاستقبال التعليقات ، غير ان النساء اللاتى كن يصغين اليها لم تفتح احداهن فاها بكلمة واحدة .

فتابعت تقول :

ـ ما الذى جناه بدلا من ذلك ؟ السجن .

قالت ذلك بصوت هزته نبرة من نبرات الانتصار هزا غريبا

ـ اليس مثقفا من كبار المثقفين ؟ ان الناس جميعا يعرفون ذلك كان ينصر الضعيف دائما . وكان يعين الناس بما يسدى اليهم من نصائح . بث فى الرجال شجاعة الحياة . كان دائما الى جانب الفقراء، وتحدى السلطات من أجل ان يساعد أقرانه ... ما الذى يمكن ان يؤخذ عليه ؟ ماذا يمكن ان يقال عن رجل مثله ؟ وها هو الان فى السجن .

قالت زينة :

ـ لماذا كان يريد ، يا عزيزتى فاطمة ، لماذا كان يريد هو ايضا ان ينشر السلام فى مملكة فاس ؟ ماذا يريد هؤلاء القوميون ... وغيرهم ؟ ان الحاج مصالى قد قضى حياته فى السجن ، قبل اخيك؟ دعوا لابس القبعة يحكم ! اى بأس فى هذا ؟

قالت احدى الجارات :

ـ انظروا الى احوالنا نحن المسلمين .كنت مارة فى الشارع منذ مدة ، فسمعت بائعا من بائعى السكر يؤنب رجلا آخر بقوله :

« حين تتعلم اكل الشيكولاته تعال الى . سأبيعك عندئذ شيكولاته .. سأبيعك الشيكولاته حين تتعلم أكلها ، أما قبل ذلك فلا .. »
مســـــاكين نحن ! لم نتعلم أكل الشيكولاته ومع ذلك نريد أن تحكم.
سمع النساء هذا الكلام ، فسرى بينهن مرح شديد .
وقالت مالكة البيت محتجة :
ـ اسمعي ياجارة . خير لهؤلاء ان يعملوا أولا ، خـــير لهم ان يصلحوا وان يحرثوا الحقول التى تركها لهم آباؤهم وأجدادهم . ليست تجديهم فى شيء هذه الحركات كلها . حين كان العربى يتمدد على الوسائد ويشرب الشاى ، كان الفرنسيون يعملون ، ولايضيعون لحظة من الوقت سدى ، ولايضنون بشيء من جهودهم ومن قواهم . وها ان رجالنا يريدون اليوم ان يستردوا هذه الارض قائلين : انها لنا . ما كان ينبغى لهم ان يتركوا الفرنسيين يعملون بدلا عنهم ، ولو فعلوا ذلك لما اخذ الفرنسيون منهم شيئا . هم الذى تركوا ارضهم ، فما يحق لهم أن يطالبوا اليوم بشيء .
وقالت امرأة أخرى من قاع المطبخ المشترك :
ـ كيف كنا ؟ تذكرون ذلك الرجل الذى كان يتلو الادعية عـلى القبور ، ذلك الشيخ الصالح الذى كان أعمى فوق هذا كله . لقد قتل وهو فى المقبرة . انتن جميعا تعرفن ذلك ، ومن الذى قتله ؟ قتله المسلمون ، اخوانه . هل رأينا مسيحيين يقتلون مسيحيين ، او يهودا يقتلون يهودا ؟ طبعا لا .. فانظرن اذن الى هؤلاء الرجال الذين يريدون ان يحكموا ! . .
قالت المرأة هذه الكلمات ثم اجتازت باب المطبخ الواســـع وهى ترفع يدها بحركة بذيئة دون تحرج على مرأى من سائر النســـاء . وفى هذه اللحظة دخل بن سارى الى فناء البيت فرآها . فما كان من النساء جميعا الا ان تصايحن دفعة واحدة مذعورات . آه ... آه .. وعادت السفيهة فاعتصمت فى قاع المطبخ .
قالت فاطمة فى وسط هذا الاضطراب :
ـ كل ماقارفه أخى من شر هو انه هب يساعد الناس .
قالت عينى :
ـ كلامك حق !
وقالت عائشة العجوز :
ـ كلامك صحيح يا بنتى .
ـ فشعرت فاطمة عند ذلك بزهو كبير .

ـ وما هو الان ؟ رجل فى السجن لا اكثر . ولكن ليس فيه ذرة من شر .

توقف بن سارى . وهو يصغى الى كلمات فاطمة . فقال بصوت عال دون ان يتجه اليها خاصة :

ـ المسجونون هم الذين كان نزاعهم مع السلطات اشد من نزاع سائر السكان . لابد ان يكون هناك مجرمون . ونحن جميعا مجرمون نعم نحن جميعا مجرمون ، لا يستثنى منا أحد . ولن يغير من الامر شيئا ان يسجنونا او يطلقوا سراحنا . ثمة قوانين موضوعة . وقد وضعت على صورة عددنا معها بمجرد وجودنا مجرمين . نحن أناس خارجون على القانون . نحن أناس مخالفون للقانون نتآمر عليه بغير انقطاع . ان هؤلاء الذين يسجنون رجال متآمرون . هم انفسهم لا يستطيعون ان ينكروا ذلك . وسيظل حكم القانون محترما .

— ٢٠ —

انقضى اسبوع على محاولة عيني السفر بالقطار دون ان تظفر بذلك . واصبح من غير المؤكد ان تستطيع السفر بالقطار الان . كان يبدو انعصر الرحلات قد انتهى . واصبحت تعاني من جرائه امرين : فأولا أصبحت لا تجد غير الخبز طعاما ، ولا تجد سبيلها الى هذا الخبز في جميع الايام . وثانيا أصبح بعض النساء يأتين الى دار سبيطار يطلبن عيني ، واصبح ترددهن على دار سبيطار يزداد يوما بعد يوم ، فكانت عيني تكلف أولادها أو جاراتها بأن يقولوا لهن انها غائبة . كانتعينيتختبىء عن أعين هذهالنسوة . كانهؤلاء المجهولات يجئن الى دار سبيطار حاملات مطالب رهيبة . وأصبح صياحهن يزداد عنفا وحدة أمام باب الدار كلما انقضت الايام تلو الايام . ذلك انهن كن قد أسلفن عيني أموالا لتشتري لهن الاشياء التي كانت تنوي ان تحملها اليهن من مراكش . اتراهن علمن بانها لن تستطيع ان تغادر تلمسان بعد الان ، فجئن جميعا يطالبن بأن ترد اليهن ما لهن ؟

وفي ذلك الصباح جاءت زائرتان منهن ، فلم تكتفيا بالنداء امام الدار الكبيرة بل مضتا الى غرفة عيني فدخلتاها . كان عمر لا يزال نائما . انها ساعة مبكرة جدا من الصباح . استيقظ عمر فجأة على أصوات صياحهما .

امرأتان دميمتان ضخمتان ، متسربلتان بحايكين ناصعي البياض، اقتحمتا الغرفة وانتصبتا فيها شديدتين كأنهما برجان .. انهما تملكان الثراء . ان هاتين المرأتين تلوثان بصحتهما الباهرة القاسية جدران هذه الغرفة العارية . لم تزيدا في اول الامر على ان ازاحتا الستار المسدل على المدخل ، ولم تتوغلا اكثر من خطوة واحدة . وكانت عيني جالسة على الارض أمام طبق مشقق ، فبدت كالطلل المتداعي ازاء هاتين المرأتين اللتين تجسدان المال الخانق المهين ،واللتين خطرتا وفي عينيهما وفمهما السب واللعن ، والتهديد والوعيد . ان جسميهما الضخمين اللذين يسدان عتبة الباب يحجبان النور عن الغرفة حجبا تاما . وتقدمتالمرأتان أخيرا، فوقفتا فيوسط الغرفة،

وعسكرتا امام عيني وأولادها المحطمين الذين أخذ تقبضهم يزداد شيئا فشيئا .

فنهضت عيني كالصرصور بحركة مفاجئة ، واخذت النساء الثلاث يتعانقن . آه .. ان هذه المعانقات والقبلات لم تكن الا تصنعا وزيفا . انها كذب وخدعة . انها تقليد للمودة والعواطف الصادقة . ولكنها كانت محكمة مرتبة . كان واضحا من ذلك ان المراتين انما جاءتا للمشاجرة والمطالبة والتهديد . فيكفى ان ينظر المرء الى وجهيهما المتصنعين حين يدرك ذلك .

دعتهما عيني الى الجلوس وهي تشير بيدها الى جلود الخراف المفروشة على الارض . فهزت المراتان رأسيهما ترفضان الدعوة .

ـ لم نجيء لنقعد وانما جئنا للحظة ثم نمضي .

فحلفت عيني ان تقعدا ، وحركت يديها تريد ان تجرهما من أذيال الحايك .

ـ لحظة قصيرة ! لن تبقيا هكذا واقفتين .

فأقسمت المراتان لا تقعدان .

ـ قعودكما يشرفني كثيرا .

وصاحت احداهما اخيرا ـ وهي ذات خدين ضخمين مهتزين ـ صاحت تقول بصوت كصوت البوق :

اختي عيني . لعن الله الشيطان . لعن الله الشيطان ! متى نحصل اخيرا على اثوابنا ؟ لقدجئنا اثنتى عشرة مرة . فهل نحصل عليها آخر الامر ؟

وقالت المراة الثانية وهي امراة مترهلة ، تلتمع عيناها التماعا غريبا في جه شاحب ، قالت بصوت كصوت الرجال مقنع :

ـ لا تستشيطى عليها غضبا يا زهرا . دعيني أتكلم .

ثم التفتت الى عيني وقالت :

ـ ما عساكِ صانعة حين لا يبقى لك قرش مما أعطيناك من مال ؟

ثم قالت بمزيد من الرفق أيضا :

ـ فكري في هذا ياعيني ، ياعزيزتي ، ما عساك صانعة حين يكون عليك ان تردى الينا مالنا ؟

ـ صحيح . كلامك حق . ولكن لا تخشيا شيئا . فلن يضيع من مالكما قرش واحد .

عندئذ استأنفت المراة الثانية عواءها :

ـ كان عليك ان تسافرى الى مراكش منذ اكثر من عشرة ايام

فمتى تأتينا بهذه الاثواب ؟ اتظنين أننا سننتظرك الى أن يشاء لك هواك ان تسافرى ؟ اجيبينى عن هذا السؤال . متى تأتينا بهذه الاثواب ؟ أنا فى حاجة اليها لعرس ابنتى ! ولكن لعل المال تبدد منذ مدة طويلة ؟ لن يدهشنى منك ان يقع هذا . لا أعرف كيف سأتصرف حين أعلم أنك أكلت مالى. لأثيرنها عندئذ فضيحة . تأكدى من ذلك ! مستغلة ! نعم . ما أنت الا مستغلة !

واخذ النساء الثلاث يتكلمن فجأة فى آن واحد معا . اصواتهن المتفجرة المتكررة تهدم عذوبة الصباح الساجى . ترى هل كان يسمع بعضهن بعضا ؟ اصبح عمر لا يفهم شيئا مما يقلنه . كان لا يعرف الا شيئا واحدا ، هو أن هاتين المرأتين تطالبان أمه برد مالهما اليهما ، وأمه تحتج احتجاجا شديدا . وليس يهمهن اذن ان يفهم بعضهن بعضا فلقد كن يعرفن ماذا يردن ، وهذا هو الامر الاساسى .

ان المرأتين تريدان اذن أن تجهزا بناتهما لأعراسهن . القضية اذن قضية جهاز ! هذه هى القضية الكبرى فى حياة نساء تلمسان، وهذا هو الهم الاكبر الذى يملأ رءوسهن .

فى هذه اللحظة ألقت المرأة التى اسمها زهرا نظرة على الاطفال ، وقالت ساخطة شاتمة :

ـ لا تقولى انك أطعمت بمالى هؤلاء الخنازير ..

فدمدمت الثانية قائلة :

ـ تمهلى قليلا يازهرا .

فأجابتها عينى

ـ لا تحاولى أن تكونى معى كصاحبك كلير ! (هكذا كانت عينى تسمى هتلر) . لن يجديك هذا ، أقول لك ذلك بصراحة .

وأضافت الى كلمة الصراحة ترجمتها الفرنسية franchement من اجل أن تأخذها صاحبتها مأخذ الجد ..

وكانت عينى تهز يديها فى الهواء هزا مرتعشا وهى تقول تلك الكلمات ، فلما لاحظت ذلك نظرت اليهما فى ذهول وخفضتهما ، ثم استأنفت تقول بصوت لاهث قليلا :

ـ أنت تعلمين مع ذلك يازهرا أننى لست كما تظنين . انا لا استطيع ان آخذ مالك لأعيش به .

فقالت المرأة الثانية مرة أخرى :

ـ أنا أوثر حديث التفاهم والمصالحة . أنا امرأة شريفة تفهم الامور . ولكن لا بدلى من الاعتراف بانه لا سبيل الى المزيد من الصبر على كل حال ، أنا أوثر حديث التفاهم والمصالحة .

فانبرت المرأة التى تسمى زهرا قائلة :
ــ الله نفسه لا يمكن ان يقبل هذا .

احس عمر ، وهومهتاج أشد الاهتياج ، بأن عدداكبيرا من النساء، هن الجارات ما فى ذلك شك ، قد وقفن على باب الغرفة ، انهؤلاء النساء قد اجتذبهن أمل الاستمتاع بشهود فضيحة من الفضائح ، فجئن ينصتن للحديثوراء الباب . استند عمر الى أحدكوعيه ومال يحاول ان يستشفهن من خلال شق الستارة . كن واقفات هناك يصغين الى المناقشة فى ارتياح وجذل .

والتفتت عينى نفسها الى مدخل الغرفة ونادت النسوة اللاتى كن يقفن وراء الباب .
فما هى الا لحظات حتى كانت نساء دار سبيطار جميعا ، اللاتى توافدن واحدة واحدة فى أول الامر وزرافات بعد ذلك ، قد تجمعن فى غرفة عينى وأمامها ، تجمعن هنالك ، وأخذن يشهدن ، صامتات ، المناقشة التى تدور على مرأى منهن ، وينتظرن اللحظة المناسبة للتدخل فى الامر .
اتجهت المرأتان الغريبتان اليهن ، وقالت احداهما :
ــ يشهد الله يا اخواتى أننا أسلفنا مالا . .

وأخذتا تعيدان على الجارات قصتهما منذ البداية .. فكانت الجارات يصغين اليهما اصغاء عميقا ، وهن ساكنات لا يتحركن . وكن فى اثناء ذلك قد اتخذن لانفسهن اماكن جلسن فيها . ان عينى مضطربة ، ومن حين الى حين كانت احداهن تهز رأسها باشارات عريضة متكلفة . وفجأة صاح عمر بصوت يفيض بالحنق قائلا لهن :

ــ اذهبن يا . . ما انتن جميعا الا بنات كلب . .
فكانت هذه الكلمات نذير هرج ومرج . وأخذ النساء يشتمن عمر . قالت احداهن :
ــ ينفك حنكك ان شاء الله يا مشوه .

أصبح عمر لا يفهم شيئا مما يحدث . كانت النساء ساكنات صامتات فاذا هن ينقلبن فجأة الى هائجات متحديات . وأخذت عينى تلهث بينهن . انهن يتكلمن جميعا فى آن واحد مزبدات مرغيات . لكأن فما ثانيا قدانشق فى وجه كل واحدة منهن .

***

حين قال عمر ــ مشيرا الى المرأتين الغريبتين اللتين جاءتا هذا

الصباح ـ « ينبغى للمرء الا يسرق » ، قالت الخالة حسناء سائلة :

ـ يارب ! كيف تستطيعين أن تدبرى أمورك فى هذه الحياة ؟

كانت لالا تزور فى ذلك اليوم عينى وأولادها ، بعد ان انتظروا هذه الزيارة منذ بضعة أيام تمنوها من أعماق قلوبهم . ان الخالة حسناء هى الان فى بيتهم ، امامهم ، وانهم لايستطيعون فى هذه اللحظة ان يزيدوا على أن يظلوا صامتين يصغون اليها فى خشوع .

ان لالا مندهشة . كيف أمكن أن يمتلىء رأس هذا الطرح بأفكار كهذه الافكار ؟ أتراه وضع هذه الامور فى دماغه منذ خرج من بطن امه ؟ قالت مرددة ، وهى تشير الى الصبى باصبعها : ان هـــذا الصبى لا يطمئننى . ياعينى كونى على حذر منه .

ورفعت لالا ذقنها الى فوق . ان هيئتهـــا تعكس ماتحمله من احتقار كبير للنظريات السخيفة التى يدلى بها عمر . ونطقت بحكمها فى جد ووقار قائلة :

ـ ستكون نهاية هذا الصبى نهاية سيئة . لسوف يتسول طوال حياته !

كانت احكامها القاطعة كأحكام القـــدر ، لا تدع مجالا لاستشفاف آمال فرحة فى يوم من الايام .

وأحس عمر بمدى ما تولده حقائق لالا فى النفس من حزن ممض . كانت لالا تقول لهم :

ـ ان عنتيل قد نهب وسرق ، ولكنه جمع ثروة .

وكان شعورها المخلص هو ان هذه النتيجة تمحو ما كانت تشتمل عليه الوسائل من ازعاج . واضافت تقول :

ـ والان لم يبق على عنتيل الا ان يفعل الخير ، وان يتصدق على الفقراء ، وأن يحج الى مكة ؛ فبذلك يكفل لنفسه الجنة .

اذن لابد للمرء حتى يمارس الفضيلة ممارسة مجدية من ان يبنى فى أول الامر ثروة ؟ كلام واضح .

ان كلام الخالة يبث القلق فى نفس عمر ، رغم انه لا يستطيع ان يقول لماذا . ومع ذلك أحب عمر أن يســـمعها تتكلم . انها فطنة حصيفة . ان فى اقوالها حزما وجزما . انها تقطع اسئلتك بقوة . وهى تدهشك بما تملكه من موهبة النفاذ الى أخفى افكارك . وهى بطبيعة الحال ، تعلن لك بصراحة ماليس فى وسعك حتى أن تديره فى خلدك وان تفكر فيه . صحيح ان ما تكشفه لهم عن أنفسهم وعن

غيرهم ليس جميلا . فهى تنسب الى الناس نوايا تبعث على الدهشة فى اقل تقدير ، نوايا لا تشرف اصحابها البتة . ان ما تقوله يثير فى نفس عمر شيئا من الانزعاج دائما .

وقالت له مرة اخرى فى صراخ قوى :

ــ كيف تراك تدبر امورك فى هذه الحياة ؛ انت يامن لا تريد ان تسرق ؟ قل لى : ما عســـاك تفعل ؟ ان على المرء أن يعرف كيف يختطف خبزه من فم الكلب حين ينبح الكلب .

اخذوا يتبنون نظراتها اخيرا ، دون أن يعرفوا كيف حدث هذا ، تابعونها دون أن يكون لهم حيلة فى دفع ذلك عن انفسهم . لاحظ عمر أنه قد استبدت به آراء ما كان ليتمنى فى حياته ان تكون آراءه ود عمر لو يومىء الى خالته ان تسكت ! ولكنـــه لم يامل كثيرا أن تحفل خالته بايماءته .

ومع ذلك كان الصبي يحس ان خالته بريئة . لو سألته ان يقول لك كيف عرف ذلك ؛ لما استطاع ان يجيب . ومهما يكن من امرفانه لا يشعر بأى فرح حين يسمعها تتكلم على هذا النحو . انه لامـــر سهل كل السهولة أن يهاجم المرء الناس على اساس من الظـــن والتخمين كما تفعل هى الان . ولكن عمر امتنع عن أن يقول هذا ؛ لما كانوا يكنون لها من اعتبار ، سواء بسبب سنها او بسبب خطورة شأنها وعلو منزلتها . ثم انه كان يكفى الصبى ان ينظر الىاضطراب شاربيها حين تهتاج حتى يقتنع انه لايستطيع أن ياخذ عليها شيئا .

ليست هذه اول مرة يلاحظ فيها عمر من حوله فكرة اختراق القوانين على وعى وعمد . وكان عمر يحس دائما أن كل انســـان يستطيع بالذكاء والحذق والحماسة ان يصل الى جميع المراكز التى يطمح اليها ويحرص عليها ، فكان لا يســتطيع أن يتصـــور ان على الانسان ان يسرق وان يخدع الناس وان يستغل الاخرين منأجل أن يحقق غاياته .

قال لنفسه : « حتى الجوع لن يدفعنى الى استلاب ماليس لى » .

كان يكفيهان يتصور ضرورة السرقة حتى يشمئز . صحيح انه لم يصل الى معنى الشرف والامانة بتفكير مقصود ، لكنه لم يخطر بباله فى يوم من الايام ان يسلك سلوكا غير شريف . الخير والشرف عنده صنوان . وكان يعرف مع ذلك أن كثيرا من الناس يسرقون، وأن الذين يسرقون ليسوا أعلى الناس شأنا . وأولئك الذينلايتورعون

عن انتهاز أية فرصة من الفرص لـزيادة ثرائهم الشـــخصي أولئك أنفسهم ينظرون الى العالم الذى حولهم نظرة تعال وتكبر . وضحاياهم الاولى التى لا يشعرون نحوها الا بالاحتقار والتنازل هى من هذا الشعب الذى يحيط بهم . وكان عمر يتخيل مائدة أولئك الناس على انها شيء رهيب فاتن كمنضدة الذبائح، وليست تذبح على هذه المنضدة حيوانات شائعة كالخرفان والحملان والابقـــار فحسب ، بل تذبح عليها كذلك النباتات البريئة ، والاشجار ، واعشاب الارض، وحتى الانسان نفسه ، يذبح عليها جميع البشر الذين تظل أيديهم وارجلهم تتخبط الى ان يشبع السفاح الذى لاوجه له ، يذبح عليها جميع الناس واقدس ما فى الانسان : كرمه ، واخوته ، وشرفه ، وشهامته ، وشوقه الى الحياة والبناء والتفكير ، يذبح عليها هذا كله ، ويوضع على مائدة الشيطان طعاما يقطر منه الدم .

ومع ذلك فان بعض الناس ،وهم من أشرف الناس ، قدسيطرت عليهم الحالة النفسية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت. كانوا يغبطون الشيطان ويتمنون ان يكونوا مثله .

ان لالاتزورهم فى احيان كثيرة . فكلما جاءت حملت اليهم كسرا من خبز يابس ، تكون قد صرتها خفية فى قطعة من قماش . وكانت تخشى أن يفاجئها « الاخر » (ان حسناء تطلق اسم « الآخر» على زوجها) فكانت تدس الصرة تحت حايكها . وكان زوجهـا العجوز لا يطيق ان تخرج من البيت فتبتة .

وكانت عينى تعرف كيف تضفى على لقم الخبز هذه منظرا شهيا. أن الطعام يعوز الاسرة ، فلابد من الاكتفاء بهذه اللقم . ومن الخرافة ان ينفروا منها او ان يزهدوا فيها . ولو خطر ببالهم ان يفعلوا لبدا ذلك منهم شذوذا لا محل له فى نظر حسناء . اتنكرون نعم الله عليكم أيها اليتامى ؟ اسجدوا شكرا لله الذى يغرقكم بخيراته ! انهم سعداء الحظ ، انهم اسعد الاطفال حظا . وكيف لا يكونون كذلك ؟ أنهم ان لم يفرحوا بهذا الطعام الذى تتفضل به عليهم الخالة حسناء ، كانوا كمن يجحد النعمة ويهين العالم . فلا بد من أن يكونوا اذن سعداء.

وهذه القطع من الخبز التى كان يصعب تكسيرها بمطرقة كانت عينى تنديها بالبخار ، فتلين ، ويصـــبح لها مظهر طرى كمظهر الفطير . وكان ينبغى التهام هذه القطع من الخبز المندى بالبخـــار ساخنة قبل أن تبرد . والا اصبحت عجينا لزجا لا اكثر . فكان

الاطفال يزدردونها لقما كبيرة بعد أن يغمسوها فى مصالة اللبن التى كانت أمهم تشترى منها قدرا كاملا بفرنكين . وكان هذا الخبز وهذه المصالة طعامهم المألوف خلال عدة أيام من الاسبوع .

وكانت الام ، فى أحيان أخرى ، تنقع كسر الخبز فى الماء فتتشرب الكسر الماء شيئا فشيئا وتنتفخ ، وتتضخم ، وتصبح قابلة لان تتفتت . انها بعد ان تنقع فى الماء مدة طويلة تكتسب مظهرا جميلا كمظهر الثلج . على أن هذه الطريقة كانت لها مساوئها أيضا . فان القطع المسرفة فى القدم لم يكن يصل الماء الى قلبها ، فيظل قلبها يابسا كالحصى .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الاولاد راضين بالتهام هذا الطعام . وكانت عمتهم تلقى فى روعهم أثناء وجودها ان مجرد ذوق هذا الطعام بركة ، وان هذه السعادة لاينعم بها جميع الناس ، فكان الله يخصهم بها وحدهم دون سائر البشر . وكانت لالا تنسى ان تقول ان جزءا من هذه الكسر قد أخذ من الفتات الذى ترميه للدجاج وما كان ليزعجهم هذا الخبز على كل حال ، لو عرفوا انه مسروق من طعام الدجاج .

لايعرف المرء الى اى حد كانت لالا واعية مكرها ، لا يعرف المرء الى اى حد كانت واعية هذه الحيل التى يحملها عليها كرمها . ويجب أن نعترف بأنها كانت تبلغ من براهينها انها تأخذ تأكل معهم من هذا الخبز ، مقبلة عليه راضية عنه ، كما يجب ان يقبلوا هم عليه وان يرضوا عنه .

وكانت عينى تنظر اليها وهى تفعل ذلك ، قائلة لنفسها : ان لالا هى التى تملك القدرة على جعل هذه البقايا مقبولة فى افواههم . وكان الاطفال يأكلون ولا يقولون شيئا ، فتقدر عينى انها فهمت .

وفى بعض الاحيان ، وهى أحيان نادرة ، كانت الخالة تضيف الى صرتها قليلا من الدقيق ، فتعجنه عينى وتخبزه فى اليوم نفسه . وكانت تقتصد فى هذا الخبز الجديد فما تعطى اطفالها منه الا قطعة صغيرة مع قطعة كبيرة من الخبز الاخر . وفى أحيان أخرى كانت لالا تجيئهم بقليل من اللبن ايضا ، أو بشظيتين كبيرتين من السكر ، أو بحلة فيها بقايا وجبة (وان تكن والحق يقال متخمرة قليلا) . وكانت فى بعض الاحيان تحمل اليهم بعض الفاكهة ، أو قليلا من الفحم ...

ومهما يكن من أمر فان عمر كان يؤثر ان يأكل هذا الطعام على ان

يفعل كما يفعل بعض الاطفال الذين يمضون ينبشون براميل الزبالة ويحملون الى أفواههم منها مايجدونه فيها من بقايا · انه لا يود أن يحتقر هؤلاء الاولاد أبدا ، وقد يفعل ما يفعلون عند الاقتضاء ، ولكن الخجل هو الذى يصده عن ذلك ويبغضه اليه . على أن كثيرا من الصبية ، ومن الرجال ايضا ، كانوا يستخرجون أكثر قوتهم من زبالة المدينة .

ان ارهاطا من الناس تقوم بغزوات حق الى الاماكن التى تفرغ فيها « طنابر » البلدية حمولتها ، وهناك على حوافى هذه المستودعات التى تشبه الروابى ، يرى المرء قرى عجيبة تزدهر ازدهار النباتات السامة على الفضلات . ان سكان هذه القرى يبحثون بين الزبالة عما يقيمون به أودهم ، فلهم من كل ما تحمله « الطنابر » البواكير الاولى · وهنالك يلتمسون كذلك ما هم فى حاجة اليه من أثاث ·

- ٢١ -

خرج عمر من البيت حاملا قطعة من الخبز . هذه عادته . انه كلما خرج ، فى أية لحظة من لحظات النهار ، دبر أمره بحيث يحمل قطعة من الخبز ، فيأكلها خارج البيت ، فى الشارع ، نقرة نقرة من داخل جيبه . ولقد اشتبهت فيه عينى منذ مدة طويلة ، وأدركته انه ينقص خبز الاسرة ، فكانت تمطره بوابل من اللوم والتقريع كلما عاد . كانت تلاحظ ان الخبز ينقص ، رغم انها تقفل بالمفتاح الصندوق الخشبى المدهون الذى تحفظ فيه كسر الخبز .

وكان عمر يطوف فى شوارع المدينة وقد جعل خبزه قسمين ، قسما هو اللب يعده خبزا ، وقسما آخر هو القشر يسميه بالاسم الذى يريده ، فتارة يسميه لحما ، وتارة شيكولاته ، الخ .. ويأخذ يأكل خبزه بالادام الذى آثره .

ان كل لقمة من هذه اللقم التى يأكلها انما يأخذها من الاخرين ، من أختيه ، من الطعام الذى يسكتون به جوعهم ، من تعب أمه وعنائها . ولكن ماالعمل ؟انه جائع .وكان يخرج الى الشارع حتى لايرينه وكان يقف على عين من العيون هنا وهناك ، فيضع وجهه تحت الماء ، فيشرب ، ثم يستأنف طوافه فى الشوارع .

كان لابد ان يبقى فى البيت . وكان اكثر السكان لايتظاهرون بأنهم يأكلون الا ليوهموا الجيران بأنهم فى بحبوحة ليس يعوزهم شىء .

وهناك صبية آخرون فى الشوارع مثله ، فرادى أو عصابات ، متهيئون فى كل لحظة لان يفروا من رجال الشرطة الذين يطاردونهم، انهم ينظرون الى الناس والاشياء نظرات غريبة ، وقد تسربلوا بأردية عتيقة مشمورة الاكمام عند القبضتين ، وانتعلوا أحذية ضخمة واسعة من أحذية الرجال ، وشحبت وجوههم شحوبا شديدا ، واتقدت عيونهم السوداء . انهم من فرط نشاطهم لا يكفون عن قتال بعضهم بعضا ، وعن مطاردة بعضهم بعضا . واهل المدينة يحتقرونهم ويسيئون معاملتهم ، فلابد لهم من أن يفروا فى كل لحظة من ضيق الناس بهم وانزعاجهم منهم . وهم يتسولون ويستجدون الأكف فى صراحة قليلة او كثيرة ، وبعضهم يتعاطى السرقة . انهم ينظرون

الى الرجال والنساء والاطفال من الاوربيين نظرات ثابتة ، ويتأملونهم فى انتباه مركز شديد ، فيظهرون اكبر سنا من اعمارهم . انهم بغريزتهم يحدقون الى هذه الملابس الجديدة التى يرتديها الاوربيون ويحدقون الى اجسامهم النظيفة الصحيحة ، ويتفرسون فى هيئاتهم التى تدل على انهم اناس لم يعرفوا الجوع ، وانهم يشعرون جميعا بسعادة الحياة ويحسون بأنهم فى مأمن من الاخطار ، ويتحلون بالادب واللطف والتهذيب والرهافة تحليهم بثياب العيد . واطفال الاوربيين عامة يخافون بعض الخوف من العرب . حتى ان اهلهم اذا ارادوا ان يهدئوهم قالوا لهم فى كثير من الاحيان : أتسكتون ام ننادى العربى؟

ولاحظ عمر اخيرا انه اصبح هو ايضا ينظر الى الاوربيين كما ينظر اليهم رفاقه . وكانت نظرته تهم بالصراخ فى وجوههم قائلة لهم شيئا . وكان الاوربيون يشعرون دائما بأن هذه النظرات الصارخة تلاحقهم فى كل مكان .

ان جميع هؤلاء الاطفال الذين تحركهم حياة مبكرة ، قد ينطفئون شيئا فشيئا مع تقدم السنين ، من طول حمل البؤس ، والجهل ، والتعب المتراكم .. والسكر والسجون . ولكن لعل الامر لن يكون كذلك بالنسبة لهؤلاء ..

انهم ينظرون الان يقظين صامتين الى هذا العالم من القيود والموانع التى تحيط بهم فى غير رحمة والتى يشعرون بقوتها اكثر مما يفهمونها . انهم ينبجسون من كل ركن من اركان المدينة تحركهم حماسة وشهوات لايعبر عنها . وكانت الاشياء التافهة التى يرمونها اليهم ، كالعلب الفارغة وحطام اللعب والاعلانات المطبوعة تسكرهم بنشوة من الاعجاب ، فيتنافسون عليها فى حنق يضفى على هذه الاشياء التى لا شأن لها قيمة عظيمة ، فكأنها مثل اعلى . فكان من يحتفظ بها منهم فى آخر الصراع لا يخطىء اذا هو اخذ يلوح بها تلويحه بغنيمة حرب خرج منها ظافرا .

كان يسمح لعمر بأن يلعب هذا اللعب ما استطاع ، وان ينفق قواه على هذا النحو حرا طليقا . لقد اصبحت حياة عمر تحديا صرفا . ان غريزة حاقدة لاتنام كانت تثيره بسرعة على كل شىء وعلى كل انسان . كان لايقبل الحياة على حالتها التى تعرض له ، وكان يحس ، لسبب من الاسباب لايمكن التعبير عنه ، ان هناك شيئا اخطر شأنا واعمق قيمة . وكان مقتنعا بأنه لا يستطيع ان يصل الى هذا الشىء وهو بين ذويه ، ولكنه كان يرفض مع ذلك ان يصل

الى هذا الشيء من دون ذويه . لم يكن يدخل فى نياته أن يتبـدهم بل كان يدرك انه يكون غريبا حيث لا يكون . لذلك كان عمر اذا طاش صوابه غضبا أو يأسا ، ولجأ الى احضـان دار سبيطار ، يحس أنه يدخـل روحا كبيرة خافقـة هى روح بلد بأسره . كانت طفولته تفارقه . وما هو الان الا ثورة وصـيحة بين سائر الثورات والصيحات .

وقد اتفق له غير مرة ان ابتعد عن عصابة اطفال الحى مدفوعا بحب الاستطلاع . ترك رفاقه ذات يوم ومضى يتجول فى نواحى السـوق المسقوفة ، حتى اذا انهى جولته ذهب يجلس على مقعد فى « ميدان البلدية » . ان عددا كبيرا من المارة يجتازون فى جميع الاتجـاهات هذا الميدان الذى تظلله أشجار الدلب . ورأى عمر رجلا يقترب منه . ان الرجل اوربى يصحبه صبى صغير . دهش عمر حين رأى هـذا الفرنسى وابنه يقفان امامه ، ثم شـعر بشيء من الخوف ، وداخل نفسه شيء من الخشية ، فأراد ان يقوم ويمضى ولكن الرجل سأله ان يصحبه الى السوق من اجل ان يحمل له بعض المتاع .

لقد سبق كثيرا لعمر ان نودى بصفير على تلك الطريقة الخاصة التى يستعملها الاوربيون حين يريدون ان ينادوا احدا من سكان البلاد الاصليين : بست ، بست ! وكان فى مثل هذه الاحوال يلتفت الى الوراء فيرى انهم ينادونه . انه رجل فرنسى هذا الذى أومأ اليه قائلا:

ـ تعال احمل .

نظر الفرنسى الى عمر نظرة طويلة ، وهو يتردد ، ممسكا ابنـه بيده . فسرعان ما شعر عمر بنار تحرق جسمه حرقا لا يطاق . ان احساسا بالعار والمذلة يسرى فيه سريان التمزق على حين فجأة . شعر عمر بأن وجهه يحمر . كان عمر قد تعلم الكلام بالفرنسية فكان فى وسعه أن يقول انه ليس حمالا ، أو انه يجب الا ينظر الناس اليه نظرتهم الى حمال . ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة . لقد فقد معرفته بالفرنسية دفعة واحدة . وقال أخيرا بصوت مختنق :

ـ نعم يا سيدى .

ولكن الرجل كان قد بدأ يتفرس فيه مرتابا . وسأله كم يطلب على الحمل اجرا . فقال الصبى :

ـ ما تشاء يا سيدى .

فبدا على الرجل عندئذ أنه اطمأن . فأمره أن يتبعهما هووابنه قائلا:

ـ تعال اذن .

مشى عمر فى اثرهما . حتى اذا وصلوا الى السوق التى يدخلها الفرنسيون خاصة ملأ الرجل الشبكة التى يحملها عمر ، بالخضـار والفاكهة . انها خضار وفاكهة لا وجود لها فى السوق الاخرى التى يشترى منها المسلمون .

ساعد الرجل عمر على رفع الشبكة الى كتفه وأمره أن يمشى أمامه .

سار عمر لا ينطق بكلمة ولا يفكر الا فى جعل الشبكة متوازنة فوق كتفه . انه الآن يخشى ان يلقى رفيقا من رفاقه ، فيفاجئه وهو يتعاطى الحمالة . لو رآه رفاقه على هذه الحال لامطروه بوابل من السخر وشعر عمر بحزن شديد .

ووصل الثلاثة أمام احدى الفيلات بعد ان داروا دورة لدخول دكان بقال من البقالين . دخل الرجل وابنه اولا الفيلا ، ثم اشاروا الى عمر أن ادخل . كان الرجل يراقب عمر ، وهو قائم على ساقيه القصيرتين فى خراقة ، وأخرج من جيبه قطعة من النقد دسها فى يد عمر كأنه يدفع اليه صدقة . فرنك .. ان الطفل لا يدرى أيقبله أم يرفضه . لم يحرك ساكنا . بدا على الرجل الارتياح . وخاطب عمر فى تلك اللحظة قائلا :

ـ ما اسمك ؟ ما عمل ابيك ؟

قال ذلك فى غموض وذهول . انه لم يلق هذا السؤال الا ليقول شيئا ما .

أجاب عمر بأن أباه ميت .

فأردف الرجل يسأله :

ـ ما عمرك ؟

ـ احدى عشرة سنة .

ولمح الرجل ابنه فى الدهليز يحمل كتابا كبيرا من كتب الصور . فهتف يقول له :

ـ هل . رأيت يا جان بيير ! ان هذا الصبى فى مثل عمرك تقريبا .

ثم التفت الى عمر وقال :

ـ أين تعلمت الكلام بالفرنسية ؟

ـ فى المدرسة يا سيدى .

ـ ها .. أنت تذهب الى المدرسة .

ـ أقصد .. كنت أذهب الى المدرسة ...

وتابع عمر يقول دون أى انفعال الآن :

ـ ولكنى اضطررت الى تركها .

فقال الرجل فى وقار :
ـ نعم ، لابد للمرء أن يعيش .
ثم قال لابنه :
ـ هل رأيت ؟ ان هذا الصبى لا يستطيع ان يذهب الى المدرسة لان عليه أن يعيش .
وتابع الرجل القاء أسئلته بتلك الطريقة الذاهلة نفسها ، كأنه يلقيها على مضض :
ـ كم تكسب فى اليوم ؟
ـ هذا يختلف من يوم الى يوم . حين يكون الزبائن كثيرين يصل كسبى الى عشرين أو ثلاثين فرنكا .
تحير الرجل . شعر بضيق . بدا عليه انه يتساءل عما عسى أن يقوله فيه هذا العربى الصغير .
ـ وطبعا .. أنت تحمل كل ماتكسبه الى أمك ،لاتنفق منه شيئا
فأجاب عمر بغير تردد :
ـ طبعا .. الا حين يعطينى أحد « بقشيشا » .
ومرة أخرى صدم الرجل . ونظر الى ابنه وهو يهز له رأسه هزا رصينا علامة الاستحسان . بدأ الآن يضجر .
أراد عمر ان يسحق هذا الرجل بثقل ارادته . قامت فى نفســـه قوة غامضة عارية خالية من كل عاطفة ومن كل انفعال . انها حماسة غريبة وحشية .
كان الابن صامتا ، وهو يمسك كتابه بذراعيه ، ويحدق الى عمر بعينيه الشاحبتين .
وخطرت للرجل فكرة . قال لعمر وهو يشير الى الكتاب الذى يمسكه ابنه :
ـ هل تحب ايها الصغير ان يكون لك كتاب من كتب الصــور كهذا الكتاب ؟
لم يكن لعمر كتب فى يوم من الايام ، ولا خطر بباله فى حياته ان يكون له كتب . وكانت الرغبة فى الكتب لا تراوده لان الكتب لم تكن تعنيه كثيرا .
غير انه أدرك الجواب الذى ينتظره منه الرجل فقال :
ـ طبعا .. أريد .. ولكن كيف السبيل الى هذا ؟
فالتفت الرجل الى ابنه ، ونظر اليه صامتا ، ثم قال :
ـ اسمع ياجان بيير . هب هذا العربى الصغير سألك أن تعطيه كتابك ، فهل تهديه اليه ؟

فنظر الصبى الى أبيه ، ونظر الى عمر · ثم ما كان منه الا أن عانق كتابه فى عنف شديد يضحك أن يصدر من طفل مثله نحيل هـذا المتحول منطفىء هذا الانطفاء ·

ــ هيه سألك أن تعطيه هذا الكتاب .. هو الذى ليس عنده كتاب ·· أفما تهديه اليه ؟

فقال الصبى فى أنين :

ــ هو لى ·

وجعد وجهه وهم بالبكاء ·

فقال له ابوه :

ــ نعم نعم ، هو لك · أنا ما قلت ان عليك أن تعطيه الكتاب · هذا الصبى ليس فى حاجة اليه ·

ولكن هيئة الابن ظلت تعبر عن القلق ·

ــ أنا ما قلت ان عليك أن تعطيه الكتاب ·

قال الابن مصرا :

الكتاب لى ·

ــ طبعا هو لك · ما من احد يفكر فى أخذه منك ·

قال عمر يقطع الحديث ·

ــ على كل حال لن يتسع وقتى لقراءته ، أما هو ··

فابتسم الاب راضيا · ولكن الابن لم يطمئن الا شبه اطمئنان ، فلا يزال وجهه متجهما ولا يزال يبدو على أهبة البكاء ·

قال الاب :

ــ هل رأيت ؟ ان هذا الصبى اطيب قلبا منك . هو فقير ، ومع ذلك لا يريد أخذ كتابك ·· ولكن عليك ، كلما ثارت نزواتك وكلما تشكيت ، أن تتذكر أن هناك أطفالا يعملون ، وما حصلوا يوما على كتاب ولا على أية لعبة أخرى ·

فردد الصبى يقول فى عناد :

ــ الكتاب لى ·

فقال الاب متنهدا :

ــ نعم نعم ، هو لك ·

ونظر الى ساعته ، فقال لعمر :

ــ اذهب أيها الصغير ·

ففتح له الباب ، فاجتاز عمر العتبة ومضى ·

- ٢٢ -

كانت ماما تنظف البيت وترتبه ، ذاهبة من غرفة الى غرفة ، محدثة نفسها بغير انقطاع • وكانت فى بعض اللحظات تخرج الى فناء البيت فجأة دون أن تتوقف عن الكلام ، فتستشهد أختها الصغيرة زهور ، ثم تعود تلاحق دمدمتها فى أعماق حجرة من الحجرات • ان زهور صامتة لا تقول شيئا • وكانت تسمعها تقول : « الشرف عندنا هو كل شيء ، هو فوق سعادتنا • هذه هى الحقيقة » •

ان طبقة ثقيلة من السحب تغطى السماء • وهذه طيور سوداء تدور فى الجو ثم تدور فى غير كلال ولا ملال ، ومانفك تزعق . وثمة أصوات أخرى تاتى من الشاطىء الصخرى المتغضن أمام المزرعة ، وتتردد اصداؤها فى الهواء • وفجأة غمرت الشمس فناء البيت • هذا أول شعاع من أشعة الصباح •

ما الذى يحملها على أن تقول هذا الكلام ؟ ان زهور لم تصغ اليها حتى الآن • انه ليس يعنيها هى أن يكون الشرف غاية الحياة • انها لا تفهم من هذا الكلام شيئا • أليس هذا ألفاظا فحسب ؟ ان المرء يسمع هذه الالفاظ كل يوم ، ولا شك ان الصمت خير من هذا الكلام كله • ومع ذلك فان خوفا مضطربا كان يتسلل الى نفسها ، ولا تملك ان تسيطر عليه • ان اقوال أختها الكبرى قد بعثت فى نفسها القلق ، كأنما هى تعبر عن خطر غامض يتربص بها • أليس وراء هـذا أمر من الامور ؟

كانت زهور تغرف اللبن الرائب من دن كبير أزرق بآنيـة من الاوانى ، وتنقله الى المخضة ، حتى اذا ملأت باللبن ثلاثة ارباع المخضة علقتها بشجرة التين التى فى الفناء •

وفى هذه اللحظة دخل قره واقترب من ماما •

ـ أنت تظنين أننى رجل لا ألاحظ شيئا ، أليس كذلك ؟ اننى أرى زهور دائما ، فأدرك انها على كونها طفلة ، تصبح امرأة يوما بعـد يوم •• ما عمرها ؟

ـ لم تكن قد بلغت من العمر الا خمس سنين وشهرين حين توفى المرحوم ابى • وقد مات ابى منذ تسعة اعوام • اننى أرى هذا كأنه

وقع بالامس . سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاما وشهرين أو ثلاثة .

ـ حقا لقد أصبحت امرأة ، امرأة جميلة .

وكان لابد من تقديم طعامه اليه فتولت زهور ذلك . انه الآن يلتهم الخبز الاسود الذى يمتلىء به فمه مع جرعة كبيرة من مصالة اللبن تدفع الخبز وتقرقر فى قاع حلقه . فلما فرغت زهور من حمل كل طعامه اليه ظلت واقفة على مسافة غير بعيدة ، تنتظر ان يطلبها ، بينما هو ماض فى ازدراد طعامه . ألقت ماما نظرة سريعة على اختها الصغيرة التى كان قد اسمر وجهها . هكذا أصبح قره يتكلم عليها كل مرة بهذه الصورة . وشىء صغير فى قلب ماما كان يبكى كسيرا ذليلا .

ماذا كان يريد زوجها فى واقع الامر ؟ أتراه كان يظن أن الصغيرة تستطيب هذا الكلام الذى يقوله ؟ انه مخطىء على كل حال . كانت أحاديث قره تنهش روح ماما نهشا . ولكن ما الذى يمكن ان تأخذه عليه فى الحقيقة ؟ هل كان على الاقل يعرف ما يقول ؟ ياله من فلاح شقى ، شقى ، بائس ! بهذا كانت ماما تهتف بينها وبين نفسها .

قال قره يتابع كلامه :

ـ جاءنى اليوم من يخطبها .

فقالت الزوجة لائمة :

ـ هوه ! لم تقول هذا الكلام أمامها ؟ زهور ، لا تبقى هنا ، أخرجى

فلما خرجت زهور من الغرفة خافضة رأسها ، سألت ماما زوجها :

ـ من الذى جاء يخطبها ؟

هكذا شأن النساء . انهن دائما متعجلات ، يردن ان يعرفن كل شىء فى لحظة .

ـ لماذا لا تريد أن تذكر اسم من جاء يخطبها ؟ أهذا ممكن يارب ؟

نظر الرجل أمامه وهو يهرس خبزه بين فكيه فى بطء .

ـ سأرى .

***

زهور قاعدة على صندوق صغير فى وسط فناء المزرعة تخض اللبن فى غير توقف . ذهبت ماما لتجىء الى البيت بماء . الجو فى الخارج ثقيل ، لكنه لا يبشر بهطول المطر . السحب التى فوق الجبال تحك السماء فى هدوء ورفق .. العالم راقد على هدهدة الارض كدولاب المغزل . ورمدة اشجار الزيتون المحاطة بأخاديد الحراثة السوداء ، وهى رمدة معدنية اللون ، تغطى شهب الاودية . الماء الذى ينبع من

مكان بأعلى القرية ، ويسمع خريره هنا ، يجرى غير بعيد عن البيت ، على مسافة خمسين خطوة . ان هذا الماء ينبع بين أشـــجار التين المعوجة ويجرى فى الحقول قدما نحو المزرعة ، فكأن هذه الارض كلها راقدة بين يديه المتلويتين .

ظلت زهور فى البيت ، تدفع الممخضة عنها وتجذبها اليها كأنها نواس ، فتقرقر ويخرج منها صوت كأب ، فكلما قامت بحـــركة من هذه الحركات احتك ذراعاها بثدييها اللذين يظهـــر تهودهما تحت غلالتها . ان لها وركين عريضين ، وجسما مكتنزا قويا . لم تــكن زهور قبل بضعة أشهر الا طفلة صغيرة . وهذا نسغ قوى يجرى فى جسمها دفعة واحدة ، فاذا بجسمها يتفجر فى كل جهة ! وهى بيضاء بياضا يثير الدهشة . وشعرها كتلة سوداء ناعمة . ان الرجـــال تنقبض حلوقهم متى رأوها . وفجأة حكت زهور جسمها من فوق ثيابها ، ثم شمرت جميع ملابسها وأخذت تحرث بطنها بأظافرها . كانت رائحة خفيفة من رائحة اللبن الخاثر تتموج فى الهواء الرطب فتختلط برائحة أخرى أكثف منها هى رائحة الزبل وبول البهائم الآتية من الحظيرة الفاغر بابها أمام زهور .

وأخرج الفتاة من ذهولها ظل خفيف ضخم كان يسير اليها . كان هذا الظل يشبه فى أول الامر ظل لقلاق نحيل الى أقصى النحول ، ثم لم يلبث أن بدا كظل سلحفاة ضخمة .. وتحول الظل على صور أخرى أيضا . انها خطوات قره ، البطيئة الصامتة . كان قره آتيا الى الفتاة من وراء . ان البوابيج ذات النعال القوية تحدث فى بعض الاحيان هذا الصوت الذى يحدثه وقع قدميه العاريتين .. وقف قره الى يسار زهور . وعندئذ أدركت زهـــور أنه كان متجها اليهـــا . تحدث قره عن الزبدة ، وعن طعام الفطور ، وعن المقبرة ، وعما لا تدرى أيضا من أمور ليست تعنيها . وكانت الفتاة لا تصغى اليه ، ولاحظت ان الكلمات التى يقولها تترجع فى داخلها ترجعا ضعيفا .

كان قره يتكلم ، مائلا عليها ، وكانت هى لا تحاول ان تفهم ما يقول ، شاعرة بأن رجلا هو الذى يحيط بها الآن . وشمس الشتاء التى ظهرت فى تلك اللحظة كانت شهباء لا نور لها ولا ثقل .

ان زهور باردة منقبضة النفس ، يبدو عليها أنها تنصت فى احتراز هادىء ، بينما الكلام البطىء الذى يخرج من فم الرجل يصطخب عليها دون ان ينفذ معينه . فلما رفعت رأسها أخيرا والتفتت الى قره لاحظت انه كان لا يحول نظراته عن ساقيها العـــاريتين . فأسرعت تضم

ساقيها تحتها · سألها قره :
ـ ثم ماذا ؟
ولكن الفتاة ليس لديها ما تقوله · قال :
ـ لا أستطيع أن اتصور انك ستظلين منتظرين ابد الدهر . يجب أن تزوجك ·
ـ ليس لي من الامر شيء ·
وغضت طرفها · أدركت فجأة لماذا جاء اليها ووقف قربها · ومالبثت أن رفعت رأسها بحركة عنيفه متحدية ·· وأخذت تحدق الى هذا الوجه الكبير الرخو الاخرس ، وجه قره · كانت هيئة الرجل تعبر عن البعد والاكتئاب · وومضت في نفس الطفلة شعلة من كره · وسمعا كلاهما وقع خطوات ماما آتية من خارج البيت · ياله من كلب قذر !

وابتعد قره متارجحا . ان هذا الرجل ، رغم انه لا يبدو شابا ، يشعر من يراه بأن قوة شيطانية عمياء تسكن جسمه الكثيف · كانت ماما قادمة بقادوسيها المليئتين اللذين كادا يملخان يديها ملخا . فلما وصلت ألقتهما على الارض في عنف ، مرتعشة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة · ألقتهما على الارض في عنف كأنها ترميهما رميا ، فاندلق شيء من مائهما · فلما عادت تحملهما لتدخل بهما ، بقي منهما على الارض دائرتان مبللتان سرعان ما شربهما التراب · وبخطوتين اجتازت ماما المسافة التى تفصلها عن الغرفة المشتركة · ونظرت الى الطفلة الجامدة الساكنة في وسط الفناء ، فما كان أشد دهشتها حين لاح لها معنى غريب في طريقة ترصد زهور .
قالت ماما لنفسها : « لا أستطيع أن أقول الى أى حد تجرني زهور الى الاعتقاد ان هناك اشياء خطيرة · يجب أن أوضح لنفسي كل شيء · في هذا المساء نفسه سأفاتح زوجي · رباه ان هذه الطفلة تسبب لي قلقا كثيرا · ان وجودها يهلكني ! »
لم تستطع ماما أن تدرك بوضوح الى أى حد كانت أختها بريئة · حتى أن ما يلوح على زهور من صفاء يقلقها ولا يدخل الهدوء والسكينة الى قلبها · غير أن هناك اشياء يخشى المرء أن يكشفها · وكان من شأن هذا الانحسار الخفي الذى أصاب عاطفة الاخت نحو اختها بسبب ما يبدو على زهور من وضع غريب ، أن ماما تمنت في سرها أن تموت أختها ولكنها ما لبثت أن تماسكت ·
كانت ماما نهبا لهذه الافكار حين رأت الصبية تنهض وتدرك باب الدار · لماذا تراها تذهب تاركة البيت ؟ كانت غلالتها التى تلف

انوثتها المراهقة تلطم ساقيها أثناء ذهابها بخطا سريعة . سلكت زهور طريق النبع • ان فيما تلقيه على ما حولها من نظرات حانقة شيئا من نفاد الصبر الذى يرى فى الاطفال •

وأصيبت زهور خارج البيت بذعر • ان مذاقا كمذاق التراب يملأ فمها • بصقت • انها تشعر بهذا التشوش فى عدو، وفى نوع من فقدان الاحساس مؤلم ممزوج بانتباه شديد • فلما وصلت الى النبع بعد أن سلكت اليه ممرا ضيقا ، جثت امام البركة التى يتجمع فيها الماء قبل أن يجرى الى الحقول ويضيع فيها • ليس هذا النبع الا ثقبا صغيرا فى الارض ، يشبه صدغا مشقوقا • انه كعصفور يختلج على غير هدى ، دون أن يستطيع استرداد أنفاسه ، لان يدين قد أمسكتا بخناقه • قالت زهور لنفسها : حين تتغازل الطيور فى الجو تسقط على الارض كأن صاعقة أصابتها • هكذا سقط العصفور • انني أرى حلقه ، وأسمع قرقرة شرايينه ، وهذا الخيط الناحل من الماء هو بلاشك شعاع من دم •

كانت زهـــور تصعد احيانا من الاعمـــــاق التى تستكشفها . وكأنهـــا مغمضة عينيها . ان حولهـــا شيئا لا تعرفه يهمهم فى قلب الجبـــــال والاودية • ليس هو الريح ، انه يتحـــرك فى الداخل ، ثم يصفع السهول ، ويصعد نحو الذرى • الارض تهتز منه وكل شيء يرتعش ، والحقول العارية تختلج ، ويسمع المرء حتى فى آخر الافق رنين هذا السيل من القوى الآسرة التى ستغرق البلد فى يوم من الايام .

الجبل والسهل ، والفجاج ، ترتسم فى الافق قاسية . الهواء حاد ، حتى ان المرء ليحس فى بعض اللحظات ان جذوات تلسعه . والبذور لا تزال تنتفض تحت قشرة الارض البـــاردة • صحيح ان أشجار الزيتون لا تزال مكسوة بالاوراق ، غير ان جميع الاشـــجار الاخرى هى الآن سوداء ، كأن أخشابها العارية النظيفة منتصبـــة كالجذور .

وفجأة سمعت زهور اسمها يترجع فى الفضاء : زهور . زهور ! فما ان يغب واحد من هذه النداءات الطويلة فى الهواء ، حتى ينشأ نداء آخر فى جميع الجهات يغمر النداءات السابقة . ظلت الفتـــاة ساكنة لا تتحرك . انها ترتعد . ان هـــذه الصيحات التى ترجعها أسوار السماء تنفذ اليها فى بطء . وارتفع الصـــوت من جديد . سمعت زهور النداء الاخير . وارتفع الصوت مرة أخرى فى نداء

متصل . ان الحقول ترتفع حتى تصل الى عقبة من الارض يرى ترابها الاسمر . وفوق هذا تبدأ السماء . كانت ماما تركض على القمة التي يمكن أن يطل المرء منها على السهل كله .

كانت تصيح من بعيد :

ـ زهور ! زهور !

ـ انا آتية .

ـ لا تستعجلي . ولكن يجب الا تبقي وحدك هناك . تعالي .

***

الارض التي تقضمها شمس كانون الثاني تستسلم للموت ببطء شيئا فشيئا . الانتظار يفرغ هذه الايام الطويلة . ان الناس ينتظرون أن يهطل المطر لينقذهم . ان في المراعي منذ الآن ، خرافا قد رقدت على الارض ومدت اعناقها . يا له من لعنة رهيبة ، هذا القحط في فصل الشتاء !

وانطلقت الرياح . انها في عتوها وهذيانها تهز الجبال . أسقطت الرياح أواخر أوراق الاشجار ، وعصفت بثمار البلوط المتراكمة على الارض فأخذت تخشخش . ان منطقـــة بني بوبلان تطقطق كأنها خشب يابس . رياح كانون الثاني ما تنفك تجفف رطوبة الاعماق ، وأصبحت الارض خفيفة ذات مسام . يهبط الليل فينام النـــاس مغمورين بهذا الجو ، جو سيىء يموت ، حتى اذا اســـتيقظوا في الصباح تشوقوا الى هطول المطر ، ولكنهم ما يلبثون أن يحســوا حتى قبل أن يلقوا نظرة على الخارج ، بذلك الخدر الذي تولده الشمس الساطعة ، ويظنون انهم يسمعون صوت رذاذ المطر يتساقط على الارض دقيقا ، وصوت سيلان الماء على أحجار أفنية البيوت ، ولكنهم ما يلبثون أن يعرفوا انها الارض تطقطق من التشقق ، وانها الريح تجرى في الحقول الخربة .

أيام الشتاء الحزين الذي تسطع فيه الشمس تدور فوق الارض الصفراء الحمراء في بطء لا يطاق . وفي انتظار حالم سادر ، تهتز الاغصان الميتة ، وتتأرجح ظلال الاشجار المتصلبة .

وكانت الريح في ذلك الصباح تدفع الغيوم فوق المزارع المقفرة .

حتى اذا جاء الظهر صفت السماء دفعة واحدة ، فكأن اشـــعة الشمس التي بدأت تظهر قد غسلتها غسلا . ان الحقول اليابسة مشوكة بأعشاب مشوية . حين اكفهر الجو انفعل النـــاس انفعالا مفاجئا . ولــكن النهار لم يلبث أن أخذ بثلج رقيقـــا كأنه زغب

لا يلمس . وأخذت الاصوات البعيدة تخترق هذا العالم من الشفوف.
وانتشر الصمت . ان البيوت تبدو فى الايام التى أعقبت الحريق مقفرة لا حياة فيها . الصمت وحده يرين ، الصمت وحده . انه يخترق حياة الناس من طرف الى طرف ، ويزحف عبر تأملاتهم ، ويلبد حركاتهم . أى قفر ! لا شىء . لا أحد . صمت ووحدة !
وهناك أجانب يجتازون الطرق . وفى بعض الاحيان يصفر قطار. الحياة غير بعيدة عن هذا المكان .

عمر هذا الصمت حتى الان بضعة أيام . لقد شاخ اذن . ألفه هؤلاء القرويون . ترى متى يخرجون عن هـذا الصمت ؟ متى يرفضون أن يمضوا فيه الى أبعد من ذلك ؟
افترضت السلطات ـ وهذا من عملها ـ ان ثمة استعدادات اخرى ، ان ثمة خططا اخرى تدبر فى ليل . فاستؤنفت الاعتقالات ، وعاد رجال الدرك . انهم يسوقون الرجال الى المدينة جماعات جماعات ، ولكنهم لن يحتجزوهم مدة طويلة فى هذه المرة .

ان أعمال الاستجواب التى تقوم بها السلطات تتم فى غرفة سرية. والفلاحون يحتفظون بآثار هذه الاستجوابات على أجسامهم مدة طويلة . النساء والاطفال يقضون هذه الايام فى قلق وخوف ، وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة . وضيع بعضهم ، منذ ذلك الحين، حرصه على الحياة .
غير ان هذا كله لم يثمر . ماذا تريد السلطات . ان الفلاحين لا يفهمون ماذا تريد السلطات . انهم لا يخفون شيئا ، وليس لديهم ما يعترفون به . كان الاستجواب يبدأ هكذا :

ـ هيه ... انت ... لماذا أضربت عن العمل ؟
ـ كنت لا أستطيع ان أعيش ، أنا وأسرتى ، بالاجر الذى كنت أتقاضاه .
ـ ها ... كنت لا تستطيع أن تعيش .
وعندئذ تتدخل طريقة عنيفة فى النقاش .
ـ لعلك تريد أحيانا ان تملك فيللا ، وأن تملك سيارة ؟ ولكن هلا نظرت الى نفسك ؟
ـ ليس هذا ما قلته ...
ـ ليس هذا كل شىء . لقد تآمرت أنت ورفاقك على فرنسا . انت من حزب الشعب الجزائرى ام انت شيوعى ؟ اعترف حالا . والا ...

وينقطع الاستجواب لان حججا أخرى تبدا عملها ...

— قل من هم الذين ينتمون من بينكم الى حزب « الشعب الجزائرى » أو الى الحزب الشيوعى ، فما يصيبك انت أذى .

وكان المستجوبون ينظرون الى المحقق محاولين أن يحذروا ما يريد ان يعرفه ، ولكنهم لا يفهمون شيئا . كانوا يقلبون السؤال على الف وجه ووجه ، ثم يظلون صامتين ، لانهم لا يعرفون ماذا يقولون. ويأخذ الجنود يضربونهم ، ولكن الضرب لا يزيدهم فهما .

وتنتهى الحفلة دون أن تسفر عن نتيجة . تطلق السلطات سراح الفلاحين ، معلنة لهم ان أسماءهم قد كتبت بالحبر الاحمر ، وان الامر لن يقف عند هذا الحد ، وانها ستعنى بهم ...

ذلك ما قطعوه للفلاحين من وعود للأيام المقبلة .

***

ان قره وامرأته يعملان فى البيت منذ الساعة السادسة من الصباح ، كسائر الناس فى منازل بنى بوبلان ، وينامان بعد صلاة العشاء رأسا .

التفكير ، التفكير دائما . والايام يتراكم بعضها فوق بعض . لعنة من السماء حلت بالارض . وقع أقدام على الارض ، نباح كلب ، طقطقة شجرة .. والناس ينتفضون عند سماع أيسر جلبة . ساعات وساعات . الريف مقفر حولهم . وماما لا تفرغ من ترتيب الاشياء فى البيت . انها ذاهبة آتية بغير انقطاع . وهى وحيدة . انها تخاف ان تتكلم وهى وحيدة .

حتى اذا رجع زوجها الى البيت ، أخذت تقول ما هب ودب من كلام ، فى كل أمر من الامور ، بغير كلفة ، لا تنتظر أن يؤيدها ، ولا ان يوافقها . أما هو ، فانه اذا تكلم لا يقول أشياء كثيرة . وهو يتحدث ، طبعا ، عن الحقول ، والبذار ، والنباتات ، أو يتحدث عن الجو .

ان قره على يطلب فى هذا الاوان هطول المطر ، لقد كان البرد قارسا ولكن السماء لم تمطر . ان الشتاء فى هذا العام أشبه باناء فارغ ظل ملقى على الارض أياما وليالى برمتها . ان أمر الخضار هو الذى يصدع رأس قره على . هذه سحب كثيرة ترقد على الارض منذ عدة أيام وتحتضن الحقول بين جنباتها التى تخرج منها التماعات قصدير سوداء .

ظلت السحب معلقة فى الجو مدة طويلة ، ثم أخذ المطر الغزير

يهطل على الارض .

لم يذهب قره بعد ذلك الى الحقول الا مرات نادرة . ليس له الآن فى الحقول عمل . ان الارض والماء يتكفلان بكل شيء . وأصبح قره يعمل فى البيت ، فهو ينقى البذار ، ويرقع الاكياس والبرادع والالجمة ، ويقدم العلف للبهائم .

ان بقرة من أبقاره قد وضعت حملها فى هذه الفترة . اقلقه ذلك كثيرا . لقد كان البرد شديدا كل الشدة . خاف قره على الحظيرة التى كانت معرضة لأن تغرقها مياه الامطار . ان الحظيرة كهف تحت الارض . دفأت ماما الحظيرة . وساعد الرجل العجل على الخروج من بطن امه ، والعرق يتصبب من جبينه . اخرجه من بطن البقرة ، وهى ما تنفك تجأر ، حتى أخذت بعد ذلك تزار زئير حيوان كاسر . خاف قره على البقرة أيضا .

لم تستطع ماما أن تنظر الى هذا كله ، بل ظلت بعيدة تنتظر ان ينتهى كل شيء ، وقد قام فى نفسها قلق خفيف .

وفى الليل أخذا الحيوان الصغير ليرقد فى غرفتهما . ان الجليد فى خارج الغرفة يجمد الهواء .

انتهت فترة الامطار الاولى . تجول قره كثيرا فى الحقول . تلبث طويلا عند محمد ، وعند عيسى ، ثم عند بن أيوب . كان يدرك ان الوقت لا يستحثه . كان يقول حين يصل :

ــ السلام عليكم . عافاكم الله . كيف الحال ؟

ــ وعليكم السلام . الحال كما ترى . الحمد لله .

انهم لايرتاحون لوصوله كثيرا . ولكنهم يقولون بضع كلمات حتى لا يظهروا بمظهر خشن غير مؤدب . انهم يحرصون على الا يرى فيهم الناس رأيا سيئا . غير انه يزعجهم أن يتوقفوا عن العمل وان يكلموه خاصة . يزعجهم أن يضطروا الى التحدث اليه ، بينما هم يدركون انه ليس يجدى أن يكلموه كما كانوا يكلمونه فى الماضى ، ويعلمون ان ذلك لم يكن حقا ، وان الامور الآن ليست على ما كانت عليه من قبل .

ولاحظ قره عند اقترابه خطاطيف خضراء ساكتة على مربعات الحقول الشهباء والسوداء :

هو الفول ، هل نبت الفول اذن ؟

قال قره يحدث نفسه ستكون لهم البواكير ، ولكن قولهم يهدد كثيرا ، فربما ساء الجو ، وحصل الصقيع .

وادرك قره انزعاج الجيران . فقال لمجرد القول فقط
ــ لقد رأيت أنا أن هذا خير . وأعتقد أن آخرين غيري فعلوا ما فعلت . لم يبق الا أنتم .. سيعرف الفلاحون بعد الآن كيف يحافظون على السكينة والهدوء .. لن تخشى بعد اليوم شيئا .
ــ طبعا
قال قره ايضا :
ــ طبعا
ــ وكرر هذه الكلمة عدة مرات ، دون أن يبدو عليه انه يقيم لها اى وزن .
كان يعرف مصدر صمت جيرانه . لقد باع قره نفسه . انه يرى هذا فى ملامحهم الجامدة وفى حركاتهم . هو عميل السلطة . لا لشيء الا لأنه قاوم ذلك الاضراب الذى قام به العمال الزراعيون . ان قره يكره موقف الاستنكار الاخرس الذى يقفونه منه ، ويكره ايضا ما يلوح فى وجوههم من أنهم يريدون ان يلقنوه درسا . فليفكروا كما يشاءون . انهم على ضلال . لقد أيد هو القانون وليس يخفى ذلك . هذا هو الوضع العادل فيما يرى . اما هم فانهم لم يزيدوا على ان عطفوا على الفلاحين وأيدوهم .
أراد مع ذلك أن يظهر ، من جهته ، انه يستطيع ان ينسى كل شيء . اهتم مرة أخرى بأمر الفول :
ــ بداية طيبة .
ــ صحيح ، من هذه الناحية ، صحيح .
وصمت قره . ولبث لحظة اخرى يلاحظ هؤلاء الرجال وقد استأنفوا عملهم الذى قطعه وصوله اليهم ، لبث لحظة أخرى يلاحظهم دون أن يضيف الى ما قال كلمة واحدة .
ثم انصرف . كان مروره أشبه بالقاء حجر فى غدير . ان لمزارعى بنى بوبلان رأيهم فى هذه الزيارة .
لقد أضرب العمال الزراعيون عن العمل ، فنشأ عن ذلك لغط كثير ، وتعطلت المزارع . وكان هذا كافيا لفقدان هؤلاء المستوطنين الفرنسيين صوابهم مع انهم كانوا واثقين بقوتهم ثقة كبيرة ، ظانين ان سلطتهم وطيدة لا تتزعزع .

- ٢٣ -

فى هذا الفصل من السنة لا يبدأ النهار حقا الا فى الساعة الثامنة من الصباح ولا يمتد الى أكثر من الخامسة بعد الظهر .

وسكان بنى بوبلان ينهضون فى الساعة التى يقدرون ان الشمس تطلع فيها ، وهى الساعة السادسة . ان الضباب ، والمطر ، وهو مطر رقيق يهطل على وتيرة واحدة ، يسدان الجو . والبيوت فى وسط هذا النهار الازغب تبدو ضائعة . وقد اضطر الناس فى الصباح الى اشعال القناديل او المصابيح. والطرقات فىخارج البيوت غارقة فى وحل لزج أسود .

ثم تبدل المشهد فى الساعة الثامنة ، ان ضيـــاء أشـــهب يزيل المسافات أخذ يتقدم شيئا فشيئا . هذا نهار من الانهر الاسبانة ، المحملة بالضباب الـكثيف والاضواء المنتشرة ، فالاشجار العارية ، والمنازل الضيقة ، والرجال الشهب الذين يســيرون فى الحقول البعيدة ، كل ذلك يبدو فى هذا النهار مترابطا آخذا بعضه بـرقاب بعض . وفى بعض الاحيان تبرز الآفاق البعيدة العميقة الزرقاء ، وكأن لها فى بعض ساعات النهار ولاسيما فى المساء مشهدا غريبا . ان شمسا شاحبة تضىء البلاد عندئذ على حين فجأة ، فتبدد جميع الساعات بالبيضاء الرطبة التى تنهزم مدحورة ، وتظهر المنطقـة فى تلك الدقيقة بكل قوتها ، مرتسمة فى قسمات بارزة مضيئة يعززها هبوط الغسق .

فى بيوت الفلاحين الصغيرة ، يعيش الناس فى جو خانق لا نافذة له ولا أفق ، ويخبون فى غم وهم ، مالئـين الوقت باضــطراب وسنان . اناس لا يعرفون الفرح ، لـكنهم مع ذلك ليسوا بالحزانى.

ان ذلك الضوء القاتم الدقيق ، ذلك الضوء الذى يضم اصوات الريف ، يظل منتشرا الى ان يأتى الليل .

والعمل فى داخل البيوت يستمر أكثر من ذلك ، وتصبح حيــاة الرجال سيرا بطيئا لملاقاة الليل . وفى خارج الجدران تغيب الحقول شيئا بعد شىء فى مقاعد الضباب ، وتمتد مقفرة لا ترى ، ندية تحت فروعها المائية . وتغيم حواشى المنطقة .

على ان صوتا من أصوات البشر يجيء أحيانا من تلك المساحات الغارقة ، فيقول المرء لنفسه ان المزارع لم تهجر اذن هجرا تاما كما يظن . ان هناك رجالا لا يزالون يعملون في ذلك البحر من الضباب والمطر ، لم يتركوا حقولهم .

***

كان عليها ان تسرع ، وان تملأ قواديسها ، لقد ارتفع النهار ولم تهيىء لزوجها طعاما . انه يصل فى الساعة الحادية عشرة والنصف . وما ان يصل حتى يطلب طعامه . انه لا يعرف شيئا آخر . كانت ماما ، متى ذكرت ذلك توقفت فجأة عن كل عمل . ولكن التفكير مرض . ان ابليس يحمل الناس على رعى أبقاره . ومن حسن الحظ ان لها عملا تقوم به ، وانها تظل تعمل فى جميع الايام الى أن تنفد قواها وترهق .

كانت زهور جالسة أمام رتاج الباب ، فجثت ماما أمامها . ان زهور قد صعدت الى بنى بوبلان أثناء هذا الشتاء عدة مرات متتالية . ولو جاء عمر معها فى هذه المرة لاختلف الامر ، ولتسليا معا .

قالت ماما لأختها :

ـ ان هذا الرجل لقاتلى آخر الامر .

وكانت تقول : من حسن الحظ أن زهور معها . لقد ساعدتها زهور كثيرا فى هذه الايام الماضية . مسكينة زهور . وقصت ماما على أختها ما وقع فى الليلة البارحة بينها وبين زوجها . ارتها شفتها الممزقة . وبكت بكاء مرا واستمطرت السماء وابلا من اللعنات على رأس قره .

ـ أود لو تبقى الوقت كله معى يا أختى . انه يخيفنى ، هذا الرجل . ابقى بضعة أيام فحسب . ان أمنا ليست فى حاجة اليك . لا تتركينى وحيدة .

ولم يكن ليغرى الفتاة ان تمكث فى بنى بوبلان خمسة أيام أو ستة . قالت زهور لأختها :

ـ لن استطيع يا أختى

فتوسلت اليها ماما قائلة :

ـ أرجوك ! بضعة أيام ..

وقطعت لها هذا الوعد قائلة :

ـ لاجعلن جهاز عرسك أجمل من جهاز كل فتاة فى هذه البلاد .

وذكرت لها كيف أنها تدخر لها شيئا من المال ستنفقه على جهازها

– سوف ترين بعد بضعة أشهر ما تجنيه من هذا ..

ان قره قد عامل ماما هذه المعاملة منذ أصبحت تعيش فى هذا البيت . بدأ ذلك بعد زواجها بمدة يسيرة ، ثم تفاقم حين فقد زوجها كل امل فى أن يكون له أولاد فى يوم من الايام . وكانت ماما لا تشعر بفرح الا فى صحبة أختها حين تجىء اليها من وقت الى وقت. أما قره فانها لاتشعر نحوه الا بالشك والحذر ، حتى اذا قاربها لم تحس الا بالعذاب

ان مزاجا كمزاج قره المزعج ، يمكن أن يوصف بأنه مزاج خبيث

مالت زهور الى الامام ولطمت ربلة ساقها براحة يدها . ان الذباب شره لجوج . هذه هى الذبابات الاولى تبشر بقدوم الربيع.ان دندنتها تختلط بهذا الصمت الثقيل الذى يرين على الريف . كانت الفتاة تنصت لشكاوى أختها هادئة لا تهتز . ما من لحظة من اللحظات ارتسم فيها على وجهها الصلب ظل من قلق او شىء يشبه القلق . وقررت أن تمكث عند أختها بضعة أيام . ولكنها لم تكلمها فى ذلك بل انها لا تدرى على وجه اليقين هل كانت تصغى الى اختها حقا .

كانت زهور تفكر فى المصير الذى كتب على اختها

رات بخيالها اختها العروس وهى تمتطى ظهر حمار حين اوشك الركب أن ينحرف عن الطريق الكبير ، ورأتها وسط النساء اللاتى كن يرافقن الموكب تصعد فى الدرب الوعر الصعب الذى يؤدى الى بنى بوبلان . لقد انفجرت ماما باكية فى تلك اللحظة . لماذا حزنت أختها ذلك الحزن كله ؟ لقد كان على ماما أن تبتسم . وقد ابتسمت حقا بعد ذلك . ولكنها ابتسمت ابتسامة مرة .

طافوا بها ، أول يوم ، فى حجرات المزرعة ، وكان عليها أن تحنو على جميع القدور والجرار والخوابى التى تودع فيها المؤونة ، لتنظر ما فيها

ان شيئا من هذه الجبال قد انتقل الى ماما منذ تزوجت ، أعنى شيئا ثقيلا خانقا

ان ظل الكرمة يسقط على أرض الفناء شيئا بعد شىء ، ثم لا يلبث أن يمحى ، فتسترد الارض الممهدة لونها الضارب الى سمرة .

***

حين فرغ الثلاثة من تناول طعام العشاء ، اختفت أواخر آثار النهار التى كانت تجرى بطيئة فى الهواء ،ونصب الليل شراعه فى كل جهة من الجهات . الليل ههنا كامل لا شقوق فيه ، ولا يشبه الليل

الذى يخيم على المدينة . الليل ههنا يلف العالم متوحشا ساكنا ، تملا حياة الا الصيحات الغامضة التى تطلقها البهائم ، والا حمحمة الارض

ان مصباح الزيت الذى أشعلوه يحميهم وراء ســـور واهن من الضياء ، ولكنه ضياؤهم الذى يبدد الليل

ولما فرغوا من الطعام ، انهضت ماما أختها وأرسلتها تنام ، فذهبت زهور دون أن تنبس بكلمة . وانه ليندر على كل حال ان يطيل أحد منهم سهرته الى ما بعد صلاة العشاء . ومن عادة زهور خاصة انهـا تكون فى مثل هذه الساعة نائمة نوما عميقا

ظلت ماما وحيدة مع زوجها ، ثم أخذت تتكلم بعد صمت طويل . ان الرجل معتصم بالصمت لا يقول شيئا . وادركت زوجته شيئا بعد شيء ان كلماتها تتزلج عليه ولا تلامسه . ان الضياء الاصم الذى يصدر عن المصباح ، ويبسط خطوط جسمه الضخم يجعله أشبه بانسان من صخر . واحست ماما بهذا الاحساس المضحك وهو انها تتكلم وحدها فى مكان خال ليس فيه انسان ، فبدت لها أقوالها عبثا لا طائل تحته

قالت فجاة بصوت مرتعش :

ــ أنت تريد أن تنشأ بيننا مشاكل ، اليس هذا ما تريده ؟

فأجاب قره قائلا :

ــ لست أحرص على ذلك

ــ لا يليق بأسرة كأسرتنا ان تحدث فيها مشاكل . لقد كان الناس يحترموننا دائما الى الان . وانى لاوثر ان يدق عنقى وأن يبقر بطنى على أن أسمع الناس يقولون عنا أمورا غير نظيفة . انت تعرف الناس وتعرف ماذا يمكن أن يقولوا . ما من شيء يوقف السنتهم متى أخذت تتحرك . لا أعرف ما الذى تجتره من أفـكار . ولكننى لاحظتـك وأستطيع أن أقول ان ما فعلته شرا

قذفت ماما هذه الكلمات الاخيرة فى وجه زوجها قذفا . فقال زوجها مؤنبا :

ــ كفى . لا أريد ان أسمع مزيدا من الكلام

كان قره غارقا فى أفكاره

انه يتهيأ لوضع مشروعات تبقى بعد الامتحان والتجربة ، مشروعات من تلك التى يعدها المرء اعدادا طويلا ، يرى تحقيقها يقبل من بعيد فى بطء وهى المشروعات الوحيدة التى تلائم مزاجه المنطوى ورغباته الجامحة على برودتها . .

ومن أجل ذلك كان رحل الزمن هو ما يجب ان يحمله على عاتقه . لقد سبق له ان عزم على ذلك ولم يجد حاجة الى أن يفكر فى الامر تفكيرا طويلا . لقد ارسى لمشروعاته اسسا وطيدة راسخة ، كما يضع المرء الحجر الاول فى العمارة التى سيشيدها • انه ماض الى تشييد مدينة باسرها ، وسيكون هو سيدها والمسيطر عليها . وقد أقام (الورش) امام المكان الذى سيرتفع فيه البناء . غير أنه كان يكتم امر هذه الاعدادات الاولى . فان حذره يمنعه من البوح بما ينتويه . كان يوصى نفسه قائلا : « حذار حذار ، فان المتعجل يضيع حتى أسنان فمه » .

كذلك كانت تجرى الحياة . وفى حياة قره على لا تفلت لحظة من الحساب ، لا تفلت لحظة واحدة من الخطة التى تعدها نفسه المرعبة . لذلك كانت ترى فيه كما ترى الان ، هذه العين الكالحة الثابتة ذات النظرة الشرهة . لكأنه يفسد كل ما قد يقع بين يديه . انه لا ينظر الى العالم الا ويستولى عليه جنون التملك . انه لا يدير فى رأسه الا مسائل الثراء

وهو فى بعض الاحيان لا يستطيع أن يقاوم شهواته . تثور به الحمى فى مثل هذه الاحوال فاذا العقل يتخلى عن مكانه فجأة لافكار طائشة ، ثم انه لا يخرج بعد ذلك من هذا الليل المبهم ليعود الى الواقع شيئا فشيئا ، الا فى عناء . انه يقول لنفسه فى هذه اللحظات « حذار يا قره ! اياك أن تضل عن الصواب » ، ثم يستأنف نظره فى خططه التى يراقبها مراقبة دقيقة

ماذا ؟ امرأته تتحدث عن الحريق ؟ عن العمال الزراعيين ؟ ارتعش قره . وصعد فى نفسه تيار من الكره يعمى . اتراها علمت بشىء عنه ؟ ام ان هناك اشاعات تروج ؟

ان أيسر ما كان يقال هو ان قره على يعرف من اضرم النار فى أكواخ الفلاحين .

وعاد الرجل الى تامله الكئيب الرهيب

« منذ مدة اشارت الى محصول الزيتون الذى اشتريته من المستوطنين الفرنسيين ، فهل تراها عرفت شئونى ونفذت الى أسرارى ؟ انها لشيطانة • لا ، لا ، هنا حذار ، حذار »

لا يزال قره يبدو وسنان ، غير خائف ، مع أن التأمل فى فكرة خانقة كان يلطم شطآن ذاكرته بغير انقطاع . وفى هذه اللحظة كانت الاشعة الاولى من الحمى التى تصعد الى عينيه توسع حدقتيه شيئا

فشيئا . وفى ثانية واجهت ماما نظرته ..

ـ ما الذى تريده من زهور ؟ من الدوران حولها دائما ، ما الذى يحملك على أن تنظر اليها ؟ ما الذى يحملك على أن تنظر اليها ؟ أعدا كل ما يهمك عمله ؟ لماذا لا تمضى فى طريقك حين تلقاها ؟ لماذا لا تدعها وشأنها ؟ ان من الافضل الا تدور هذه الافكار فى رأس المرء . اذا كنت تريد شيئا ، فانا لن اخلى لك الطريق

ـ قلت كفى

ـ سيعلم الناس جميعا بما رأيته أنا ، وسيكون أهلك أول من يعلم به . سيعرفون قيمتك . يشهد الله أنه ما من شىء يصدنى عن اعلان ما رأيت .

فما ان قالت المرأة هذا الكلام ، حتى هوت على وجهها يد قره الضخمة المحشوة بالعضلات . فاخذت الدموع تسيل على خديها ، منتزعة من عينيها انتزاعا بقوة اللطمة . قالت له :

ـ انت تنوى خلق المشاكل

كان صوتها قبل ذلك مكظوما ، ولكن المرء أصبح يستطيع أن يكتشف فيه اختلاجا يسيرا

ـ لئن شوهدت حول اكواخ الفلاحين ، لقد كنت تريد أن تخلق لهم مشكلات . انا لا أسالك الا أن تمعن النظر . اذا كنت تفكر فى هذا ، فانك تريد احداث متاعب

فعقد ذراعه حول عنقها يخنقها . عقف فى أول الامر قبضة يدها فكفت عن الصياح ، ولكنها ما لبثت أن تملصت منه فجأة بحركة مباغتة . لم تحاول بعد ذلك ان تتخلص ولا ان تتقى لطماته . أصبحت تتلقى الصفعات على وجهها بغير اكتراث . وقبض قره على يدها مرة أخرى فعقفها ، فسقطت ماما على ركبتيها ، واخذت قبضة الرجل تهوى على وجهها عدة مرات واستطاعت ماما عندئذ أن تتنفس ، أن تتنفس ببطء شديد . كانت شفتها السفلى مشقوقة متدلية دامية . قالت :

ـ هل رأيت ؟ انك لا تستطيع الانكار . معنى هذا انك كنت تنوى ذلك حقا .

وسحب قره يده التى كانت مدسوسة فى جيب سرواله ، وراح يضرب امرأته . لقد أصبح وجهه احمر قاسيا . وكان يكتفى بالضرب . ان يده تهوى على زوجته بحركات طويلة جامدة ، كأنما تحركها ارادة خاصة . وبسرعة ومرونة ليستا فى الحسبان ، كان يضرب ويضرب .

واخذ الكلام يفرقه أثناء ذلك . اصبح لا يتحرك الا فى تقل . وأستمر يضرب . ان كل حركة من حركاته تبدو له الان طويلة طول ساعات وساعات . وحين انقلت يده فى آخر الامر بحركة أبعد مدى ، لمست شيئا لزجا حارا .

نظر الى ماما ونظرت اليه . ولم تحدث جلبة كبيرة الا حين سقطت ماما . حاولت ماما أن تتماسك ثم صاحت معولة . ولكن الدم الذى يملأ فمها وقف صياحها . وأخذت تنظر الى زوجها بعينين قاتمتين وسعهما الكره . ونهضت ماما فورا ، وانتصبت على قدميها فى غير عناء تقريبا . ولكنها ظلت ساكنة فى مكانها نفسه ، غير ثابتة الحركات. رأى قره انها هادئة رغم انها كانت ضحية عجز محموم . وبدا له انه يسمع هذه الكلمة . « انتظر » . ولكنه غير متأكد من ذلك . كانت ثياب المرأة ملطخة على صدرها بدم لا يزال حارا . وانتظر قره . كان يلوح ان زوجته توشك ان تقول شيئا ، شيئا لا يعرف ما هو ، ولكنه رآها تخطو بضع خطوات فى الغرفة ، وتمضى تقعد . ثم تمددت حيث قعدت

***

حلمت زهور انها تطوف فى بلاد من جبال وغابات ، كانت تاتى اليها سبية مع أختها ماما . ان العشب الذى يدخل الى عنقها ، حين ترقد فى الصيف على أرض الحقول ، يزعجها كأنه ذباب . وغزاها شعور بعذوبة ناعمة شيئا فشيئا . فمرت بيدها ، وهى نائمة ، على جسمها الأملس ، فشعرت بأن لحمها ناعم كل النعومة . ان ارتياحا كبيرا يزدحم فيها كتيار نهر لا يغلب . وعلى هون نشأ ينبوع . انها احساسات مبهمة مضيئة يختلط بعضها ببعض وتملؤها أمنا وطمأنينة. بلعت زهور ريقها ، ولكن فمها ظل فاغرا الى أن امتلأ بالريق مرة أخرى . ان ريقها يسيل الان من بين شفتيها . مدت ذراعها وعادت تداعب جسدها بحركة وسنى . وصعدت يدها على البطن حتى وصلت الى الثديين ، فحكت بهما حلمتها التى أخذت تتصلب شيئا بعد شيء ..

تـــمت

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البرازيل
M. Miguel Maccul Cury
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك في الصفحة الثانية)

هــذه الروايــة

« الحريق » هى القسم الثانى من ثلاثيــة الكاتب الجزائرى المعروف محمد ديب ، اما القسم الاول وهو : الدار الكبيرة فقد أصدرته سلسلة روايات الهلال فى الشهر الماضى . وسوف يصدر القسم الثالث وهو « النول » فى الشهر القــادم « ديسمبر » فى روايات الهلال أيضا . وبذلك تكون روايات الهلال قد أكملت فى ثلاثة أشهر متتالية نشر الترجمة العربية لثلاثية محمد ديب . وهذه الثلاثية تعتبر من الاعمال الروائية البارزة فى الادب الحديث، لا بالنسبة للادب المكتوب باللغة العربية فقط ولكن بالنسبة للادب المكتوب باللغات الاوروبية المعروفة أيضا . وقد كتب محمد ديب هذه الثلاثية باللغة الفرنسية، ولكنه كان فى كل سطر منها يعبر بوجدانه وعقله عن واقع الانسان العربى فى الجزائر . ويقول محمد ديب نفسه فى رسالة كتبها الى مترجــم الرواية : « كان لا بد للسنين المائة والثلاثين التى قضتها فرنسا فى « تمدين » جزائرنا من أن تؤتى ثمراتها . ويلاحق انها قد آتت هذه الثمرات فيالها من ثمرات ! » يستعرفون هذه الثمرات : ان وصفها هو موضوع هذه الروايات الثلاث .. وما يقوله محمد ديب ـ فى سخرية واحساس بالمرارة ـ هو أمر صحيح وحقيقى ، حيث تجــد الجزائر بــكل أحلامها وآلامها من ســطور هذه الثلاثية العميقة الممتعة . اما الترجمة فقد قام بها الاديب العربى المعروف الدكتور سامى الدروبى سفير ســوريا فى القاهرة . وقد جاءت الترجمة دقيقة أمينة محتفظة بكل ما فى الاصل من جمال ونضارة ومتعة . وسامى الدروبى هو احد كبار المثقفين الذين اضافوا الى المكتبة العربية زادا خصبا من الترجمات الرفيعــة اختارها بذوقه وحساسيته وثقافته الواسعة كمــا اعتمد فى ترجمتها على معرفة دقيقة بأسرار اللغتين العربية والفرنسية . وقد انعكس هذا كله فى اختياره لهذه الرواية الثلاثية المتدفقة بالفن والجمــال والصدق والتى كتبها فنان عربى أصيل هو محمد ديب .. سرق منه الاستعماريون لغته الاصلية وهى العربية فكتبها بلغة اجنبية ولكن روحه فى كل سطر من سطور الرواية استطاعت أن تحتفظ بكل ما فيها من عروبة أصيلة خالدة .

١٠ قــــروش